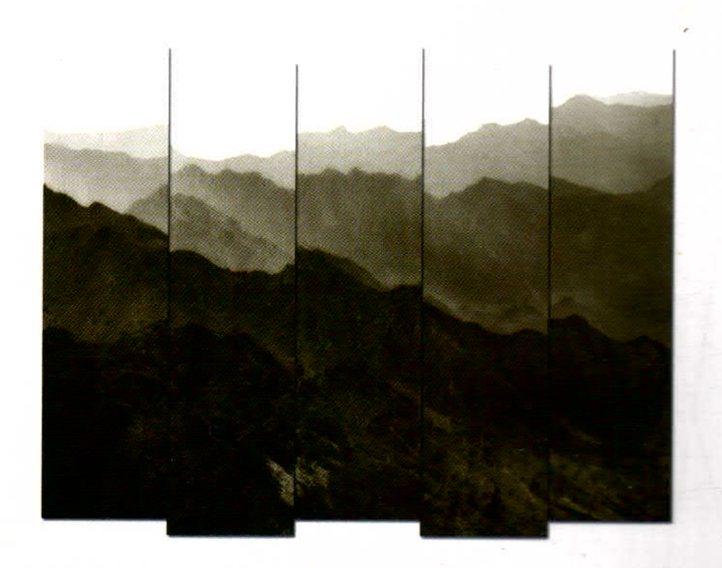
يحيى امقاسم

ساق الغراب

اَلهَرْبَةْ



طوى
للنشر والإعلام

منشورات الجمل

رواية

يحيى امقاسم: ساق الغراب ـ اَلَهرْبَةْ، رواية

يحيى امقاسم

ساق الغراب

اَلهَرْبَةْ

رواية

منشورات الجمل

طوى
للنشر والإعلام

يحيى امقاسم، مواليد بداية السبعينيات الميلادية، في «الحسيني» - جازان - جنوب غرب السعودية، له ومع كتّاب آخرين ثلاث مجموعات ومختارات قصصية. تأتي رواية (ساق الغراب - اَلْهَرْبَةْ) جزءاً من سيرة (ساق الغراب) وصدرت طبعتها الأولى عن دار الآداب - بيروت ٢٠٠٨م.

لوحة الغلاف: **جبال «السروات» - منطقة عسير - جنوب غرب السعودية.**
تصوير: أيمن علوان (ayman-alwan@hotmail.com)

يحيى امقاسم: **ساق الغراب - اَلْهَرْبَةْ**، رواية، الطبعة الأولى ٢٠٠٩

تلفون وفاكس: ٦٦٨١١٨ ١ ٠٠٩٦١، ص.ب: ٥٤٣٨/١١٣ - بيروت - لبنان
ولـ طوى للثقافة والنشر والإعلام - لندن
TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED
19 TANFIELD AVENUE, LONDON, NW2, UNITED KINGDOM
Email: tuwa@london.com
Tel : 00966505481425 - 009662108111

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: info@al-kamel.de

سيقان الغراب:

* اَلهَرْبَةْ (تِهَامَة، اَمشروق)

* يَام اَلْحَلاَم

* وَادِعَة العرين

* حِجْلَة، العَرِيضَة

(بِيشَة بن سالم، بِيشَة بن مشيط، بِيشَة النّخل)

* رِجال الحِجْر

* رَغْدَان

* صِفر سبعة



معراج

للرجل..

الذي مزّقوا قلبه بويل الله،

أبي.

و..

م. ح

وحدهم أجدادي،

نسألهم:

لا تموتوا أكثر.

من (فحولة إلى حين)

تِهَامِي..

كان «حَمُود الخير» يُمسك بفأس، لنصلها وميض خاطف، وهو يقتعد قطعة خشب كبيرة داخل الأحراش، عاريًا وواضعًا ذَكَره على حجر صوان يلمع أمامه كسطح غَيْل ساكن، وذلك استعدادًا لعمليّة الختان، دون اكتراثه للمرحلة الأولى من هذه العمليّة، إذ يلزمه ابتداءً إدخال بعرة بعير من خلال قَلَفَته دافعًا بها الحشفة إلى أقصى حدّ؛ لتحمي ذَكَره من أيّ خطأ محتمل؛ وليأتي النصل على كامل القَلَفَة دون سواها، إلاّ أنّه اكتفى بسبابته عوضًا عن البعرة، حيث غرس أصبعه للدّاخل، حاشرة حشفته إلى مَنبَت قضيبه، ثمّ عند الحدّ الفاصل بين ظفر إصبعه ورأس ذَكَره ضغط بنصل الفأس، وعندما اطمأنَّ أنّه خلص إلى بغيته أخرج إصبعه؛ لتتمدّد القَلَفَة على الحجر كجزء من خرقة قماش بالية، وعليه أن يجزّها سريعًا، ثمّ يُكمل ختانه عندما يسلخ الجلد من عانته وحول ذَكَره، وباطن فخذيه؛ محققًا بذلك عادة أجداده في الختان.

فيما هو في حالة تأهّب سمع من خلال الأحراش، وبعيدًا عن نظره، لهاث رجل كأنّه يحمل سوءًا لا يعلمه، ولكنّه لن يردعه عمّا سيفعله شيء ـ كما قرّر، ولن ينهاه أحد عن إثبات رجولته وقدرته على القيام بهذا العمل العظيم، رغم العقاب الذي سنّوه لمن يقوم

بختان نفسه. هذا ما عزّزه بداخله قائلاً لنفسه: (يقتلوني.. لكن ما يلمس واحد منهم رجولتي وأَنا اَبْن عُصيْرَةْ).

لم يعر اهتمامًا لأنفاس ذلك الرجل المتلاشية من المكان، ولا ريب أنّه يُراقبه منذ دخوله الأحراش، وقد اطمأن إلى فكرة أنّه عين لوالده أو جدّته «صَادِقِيّةْ»، تلك العين التي لا تُغادره على الدوام. ثمّ أردف: (اَبْن عُصيْرَةْ)، متحدّيًا من يسمع ومن لا يسمع، هذا وهو يعود في فكرة الاطمئنان؛ لأنّ الرجل قد يكون شرًّا لا غير، لكنّ ذلك لن يُثنيه عن نيّته المبيّتة منذ أيّام خلت، فهو ليس أقلّ شأنًا من سواه في وادي «اَلحُسَيْنِي».

(اَبْن عُصيْرَةْ) عبارة تُجمل كلّ أمجاد عشائره في وادي «اَلحُسَيْنِي»، وتحديدًا في قريته «عُصيْرَةْ»، عاصمة وداعية الوادي، التي لا يستنهضون في أرواحهم أُبوّتها لهم إلاّ لأمر جلل لا يتراجعون عنه. وعندما صرخ بأنّه ابن لتلك القرية استحثّ من أعماقه مواقد الإقدام، وأشعل في شخصه فتيل الشجاعة؛ ليتدفّق الدم إلى أعلى رأسه حاضًّا حماسه لإنهاء الأمر، ولم يتبدّد صمت الأحراش في تلك الظهيرة من صراخه بتلك العبارة، ولم تفرّ الطيور من بين الأغصان الكثيفة، إلاّ وقد رفعت يده الحجر الآخر وهوت به دون هوادة على رأس الفأس الذي نفذ نصله لملامسة الحجر الأملس، باترًا بذلك قَلَفَته التي قفزت بسهولة على التراب، وشخب الدمُ سريعًا مبهورًا بمخرجه.

وقع الفأس بمحاذاة الحجر المدمّى، وهو يستبشر فخرًا بما فعل، لكنّه أدرك خطأً فادحًا ارتكبه، إذ تشكّلت الدماء من حوله بشكل مخيف لم يسبق له أن سمع بحالة مماثلة له! تمعّن جيّدًا وشعر بوخز مريع، ثمّ وجد أنّه قد بخس حشفته تكوّرها البيضاويّ بمزقٍ نال من طرفها الأيمن، وترك هذا المنظر الغريب في نفسه شيئًا من الرهبة، فعدل عن إكمال سلخ جلد عانته وباطن

فخذيه، كما كان يجب عليه تحقيقًا لتمام العمليّة، وعدلاً لعادتهم في الختان. فكّر في والده الشيخ «عيسى الخير» الذي سيُعالج الأمر لا محالة، وبهل في التراب المعجون بالدماء حتّى وجد ضالّته الضئيلة من الحشفة، وأسرع في تفقّد منافذ الأحراش وأيّ طريق سيكون سلكه آمنًا من أعين تتربّص به لوشاية ما تدسّها بأذن أمير «صَبْيَاءْ»، فأعداء والده كُثر ولا بدّ أنّ تطهيره لنفسه سيكون نكاية بأبيه من قبلهم لدى الأمير الذي يُحذّر من اقتراف هذا الفعل وأنّ القصاص ممّن يرتكبه سيكون قاسيًا.

برغم وصوله خِفية إلى البيت إلاّ أنّ أعين الظلام في القرية لا يُمكن مغافلتها، هذا في تقدير أهله الذين من فورهم تيقّنوا تمامًا للخطر المحدق، فأسرع والده في إخفاء ابنه عن الأنظار، ورتّب مع نفر من خاصّته تطبيب الجرح، ثمّ تدبّرت الأمّ مع الجارية «زَهْرَةْ» دفن الجزء المبتور من حشفة الصبيّ.

ركب الشيخ عند الظهر دابّته باتجاه «صَبْيَاءْ»، وتحديدًا نحو الأمير الذي استقبله برحابة يستحقّها، مع أنّه فُوجئ بزيارته، فهو الذي كان يُرسل له أكثر من خطاب للتداول معه في أيّ أمر ذي صلة بوادي «اَلحُسَيْنِي» فلا يُجيبه مطلقًا، وكلّ ما يفعله الشيخ تجاه الدعوة الخطِّيّة هو وضعها تحت فراشه ويأمر جنود الأمير بالذهاب حاملين منه إلى أميرهم عبارة واحدة: (إذا كان هو بحاجتي فبيتي واسع)، ولا يأتيه في مجلسه إلاّ إذا نزل سوق «صَبْيَاءْ» يوم الثلاثاء وسمع به الأمير؛ فيُسارع هذا الأخير لمقابلته على مضض ويُلاطف عرش أنفته؛ حتّى يلين الشيخ لحيله فيعبر بدار الإمارة على عجل، فهو لم يكن يومًا ليذهب عنوة إلى مقرّ الإمارة، ولم يحمله على هذا العمل إلاّ أمر مستطير - ربما هكذا تحدّث الأمير في نفسه حين رآه.

بدأ الشيخ بتنفيذ أهمّ خطوة في خطّته للخلاص من العيون

المتربّصة به، حين دعا الأمير وصحبه لحضور «شُهْرَة» ابنه «حَمُود» عصر غد الذي سيكون إيذانًا ببداية ليالي التشهير بيوم ختانه، وأصرّ عليه في دعوته ليكون ضمن «المَطَالِيب» الذين يُدعون، وبشكل خاصّ، لهذه المناسبة الكبيرة، فاعتذر الأمير بحجّة انشغاله، وطلب من معاونه الأوّل الحضور نيابة عنه وبصحبته بعض عساكره، فأضمر الشيخ سعادته بهذه التلبية التي تمّت بالوكالة، لكنّه لم يُظهر فرحه بأيّ سلوك مبالغ فيه يكون من شأنه إيضاح بعض ممّا طواه في نفسه.

اَلهَرْبَةْ

(١)

خرجوا وكأنّ لا بلاد من بعدهم، لا رُضّع في المهد يلثغون لقلوبهم، ولا نساء يرتكبن الأمل في إثرهم، يقفن على سهوب غادروها، نساء تعيث ريح الصباح بمناديلهنّ وهي تُضارع بخفقها بيارق «عُكْفَة عُصيْرَةْ»، يُوقظن وحش الحماس في أرواح عصبة القرية، بأُهزوجة ترى أنّه لا يكاد رجال هذه العصبة أن ينهضوا لسماع «دُوْف» بنادق، حتّى يتناهى إليهم رجع ذلك الرصاص البعيد راكعًا من فوق المروج الهيّاجة، وآخر طوافه على آذان وحش يسكنهم فيقدح مخالبه في أجسادهم؛ ليستنفروا على نداء تلك البنادق دون هوادة. كنّ يُنشدن بصوت عالٍ، وظافر بالفخر والعزّ، تلك الأهزوجة التي تُؤلّب قلوب الرجال للحرب:

(قِمتْ واسْمَعْ دُوْف غَابي
مِنْ عَلَى اَمْهَيْجَةْ رِكِيعُهْ)

قبل الشروق كان ناي الجيش يُلهب الأرواح في ميدان «قُنَيْدَةْ»، فإثره جرت في أزقّة قرية «عُصيْرَةْ» جلبة لا تلوي على شيء أبدًا، إذ راحت الجموع تتقاطر إلى الميدان جارفين دمدماتهم الحارقة، والجباه تُقطّب في صمت مهول، ولا تقبض الأذن على كلمة واضحة ليلمس المستطلع من أمرهم شيئًا، ولا يجرؤ أحدهم أن يعلو صوته قبل أن يتقدّم الشيخ ليبدأ صباحهم ذو الشرّ المستطير.

أُشعلت الفوانيس في مداخل البيوت، والأمّهات الكبيرات يصرخن في أبناء القرية، كلّ واحدة تُضرم النار في قلب ابنها، وتُناديه في صراخ فاجع بأنّها لم تلده وتدّخر شجاعته إلاّ ليوم طويل كهذا، وأنّ الله لم يمدّ في عمرها إلاّ لتشهد بطولته في هذا اليوم تحديدًا. كان الرجال يمتثلون لنداء الحرب في حناجر الأمّهات؛ مستنشقين رائحة البارود في بنادقهم، ويعلمون أنّ هذا اليوم سيطول بالمشقّة البالغة، وفي قرارهم يرجون الشيخ أن يُعطيهم إشارة التحرّك، لكنّه بدلاً من إطلاقهم كشرر الرصاص في وجه الغرباء، نظر إليهم مليًّا وكأنّه يتفحّص عددهم وعتادهم، ثمّ علّق في خيبة أخزتهم جميعًا: (عُكْفَة عُصيْرَةْ ناقصة أربعين رجل!)، تلفّت الجميع بتعجّب، فلا يُمكن أن يتخلّف أربعون رجلاً منهم، وعن استنفارهم هذا تحديدًا، دون أن يُلاحظوا ذلك، إلاّ أنّهم لم يُراجعوه فيما ذكر، وأسلموا لصمت كان يرغبه منهم وهو يستعرض صفوفهم، حتّى علت المكان رصاصة تعمّد مطلقها أن تشقّ سماء ميدانهم. من فوره، وببشاشة واضحة أعلن الشيخ أنّهم اكتملوا، وعندما حدّقوا في القادم، إذا هو «بِشَيبشْ» الذي تنقص عصبة «عُصيْرَةْ» بغيابه أربعين رجلاً.

كان «بِشَيبشْ» قد أوقد الشمس قبل وقتها، ذلك حينما جرّ «ولد بلال» من على قَعَادَة نومه فجرًا، وتحديدًا قبل غروب نجم «الزُهْرَةْ»؛ ليعزف بنايه العتيق لحن رقصة الجيش في الأزقّة، ثمّ أشعل في أطراف القرية النيران، معلنًا حالة التأهّب، واستنفر عددًا من الرجال؛ ليعدّوا عُدّة النزوح بالعجزة من وادي «اَلحُسَيْنِي» مع النساء والصغار، وكأنّ ساعة الصفر تُنذر بالحلول، وانطلق إلى تُخوم القرية من الشمال يتحسّس أمرًا كان يُخفيه منذ أيّام، وهو الآن يضع قومه وشيخهم أمام شرّ لا قاطع لدابره سوى مبادرة شرسة تكون من جانبهم.

لم تمض دقائق معدودة على تلك الرصاصة، حتّى انضمّ «بِشَيبشْ» إلى الرجال الماثلين أمام الشيخ «عيسى الخير» وهو يُذكّرهم بنبوءة والده

الشريف «مِشَاري» التي رأت أنّ حاكمًا سيخرج من إحدى مدن «ص»، يعني «صَبْيَاءْ» أو «صَعْدَةْ» أو «صَنْعَاء». وقد تحقّقت تلك النبوءة في رجل خرج من العامّة هو «الأَدريسي» الذي كان، في يوم قديم، حاضرًا سوق «صَبْيَاءْ» حين خرجت على الناس امرأة تستغيثهم أن يدفعوا عنها ضيمًا لحقها من ثلاثة رجال جرّدوها من مالها، فاستلّ «الأَدريسي» سيفه ونادى في الجميع مقسمًا أن يقتصّ من المعتدين الثلاثة بجزّ رؤوسهم، ولا رجوع في ذلك؛ قصاصًا للمرأة وإقامة للعدل، ومن تلك الساعة اجتمع الناس له على قلب واحد، فصار له شأن عظيم من قوامة وخير؛ ليكون حاكم «المِخْلاَف» الأوّل بلا منازع، حتّى غربت شمسه بعد سنوات طويلة من اليد الواحدة بلواء واحد في كافّة المنطقة.

كان الشيخ يتساءل عن أيّ نبوءة، هو لا يعرفها، وتتحدّث عن هؤلاء القادمين من الشمال، فلم يردّ عليه أحد، ولم يسمع تعليقًا واحدًا، عدا الأمّ «صَادِقِيَّةْ» التي بدأت صباحهم باستصراخ رجال خلَوْا، تُناديهم بأسمائهم واحدًا واحدًا؛ لتشرخ غيّ رجال القرية في ذلك الصباح، فتردّهم إلى صواب تراهم يحيدون عن جادّته. وغدت تتبع صوت ابنها الشيخ، بمساعدة جاريتها «زَهْرَةْ»، حتّى تمكّنت منه، فشدّت شعر ذقنه إلى الأسفل، ليتهادى مع حركتها إلى أن خرّ على ركبتيه أمامها، وهي تصرخ فيه: (يا عيسى.. عُصيْرَةْ صاحبة عهد وميثاق.. فلا تذلّ بلادك بحرب ما لها ذكر في أيّ كتاب عندي...)، وكان يُلصق جسده بها؛ وهي تنخرط في صراخ أيقظ ما تبقّى من القرية، ورجاله يصطفّون في خشوع تامّ، ولا يرون في امتثال شيخهم أمام أمّه إلاّ صلاة خالصة تسبق هذا اليوم الطويل. كان الشيخ يشدّ جسد أمّه إليه صامتًا وهي تقبض على ذقنه وتُنادي في سادة الوادي الراحلين، فلا يُجيبها أحد، فتُناشد في عصبة «عُصيْرَةْ» الواقفين أن يطرحوا بنادقهم جوار آنية نسائهم في البيوت، ولا يميلون إلى هوى ابنها «عيسى» في حرب لا أساس لها البتّة، حرب لم ترد في كتاب

علمها الذي لا يطّلع عليه أحد، وتستصرخ فيهم أرواح آبائهم الأوّلين.

كانت تُدرك عظيم إجلالهم لها، لكنّ عصمة دمائهم الحارّة في لحظتهم تلك مقبوضة إلى ابنها الخارج عن طوعها هذه المرّة، ولا يُمكن أن يُبدّل في رأيه هذا، فهو قد استهلّ اجتماعهم بنبوءة الشريف «مِشَاري» التي كانت مسوغًا لقيام إمارة «الأَدَارِسَةْ» في زمن خلا، وما كان لرجل في الناحية أن يكون سائس حكم إلاّ بموافقة عصبة «عُصيْرَةْ»، مثيرًا بذلك السؤال عن هذا الزمن الذي ينسلّ من بين أيديهم، فلا يكون لهم.. وكيف سيُصبحون على مقاليد بلادهم مسلوبة بيد أغراب لا مكان لهم هنا بتاتًا؟! وهذه الأسئلة جعلها حبيسة القوى عن فعل شيء يُوقف ابنها عمّا قرّره مع الرجال الذين تراصّت أعضادهم باتجاه الغرب حيث يُلاقون «قوم الذُّلُول» فيكسرون شوكة غاياتهم ويردعون مطامعهم في النيل من ترابهم.

كانت الأمّ قد أرخت قبضتها عن ذقن ابنها قبل أن يُقرّبوا الناقة «مِسْلِيَهْ» ويحمّلوها فوقها، وتسمع الشيخ يُوصي ابنه «حَمُود» أن يُثبت رجولته في الحفاظ على جدّته وإيصالها مع الأطفال وعجزة العشائر إلى تُخوم جبال «ساق الغراب» من الناحية الشرقيّة لواديهم، وألاّ يخذله ويتعقّب الرجال فيما مضوا فيه غربًا.. ثمّ انضمّ الشيخ لإحدى فرق القتال، بعد أن وزّع مهمّات حربيّة مساندة على بعض النساء.

(٢)

كان صبيًّا، وفي عين مَنْ رآه ذلك اليوم، لم يتجاوز بعد العاشرة من عمره، حين قاد «حَمُود الخير» الناقة «مِسْليَهْ» وعليها جدّته «صَادِقِيّةْ»، التي ما انقطعت تُحذّرهم من هجر واديهم في ذلك الصباح، وتصرخ بهم أن يظلّوا في بيوتهم، لكنّهم لم يستمعوا إليها، فخفّوا للخروج من سهول قراهم، تجنّبًا من مواجهة الأغراب المغيرين على مرام لا يعرفه أحد.

أضحت قرى وادي «اَلحُسَيْنِي» جرداء من أقدام الأطفال الذين اصطّفوا سيرًا في قافلة النازحين، وخالية من جرار الفتيات على الآبار، ونقيت السماء من دخان التنانير الذي يتلبّد عاليًا عند كلّ فجر، وغابت أصوات المواشي حين يُسرّحها الرعاة للمراعي وعثّة سيرها المتطايرة في الطرقات، فخوت القرى تمامًا من تباشير حياة القوم في ذلك اليوم الفصل.

والناقة «مِسْلِيَةْ» تتصدّر المسيرة، كانت الجموع تتدافع بمحاذاة الوادي شرقًا، حيث يستقرّون إلى حين، فحرص الفتيان والفتيات على تقاطر المواشي والدواب في مسلك واحد يتأخّر عن المتقدّمين ممّن طعنوا في السن من الأهالي، وهناك من النساء من تحمل صغار الضأن والماعز المولودة حديثًا لتتيسّر حركة الجموع، إذ يلزمهم ألاّ تَحْمَرَ أحْباط الجبال بالشفق إلاّ وهم في حلّ من أحمالهم وناصبي أساسات

خدورهم تحت تلك الجبال، حيث يتعيّن عليهم ذلك، فلا يُعيقهم عن مبتغاهم شيء. وظهر في المؤخّرة جمل ضخم قيّدوا عليه «علي هبّاش» وهو يُنادي في بكاء طويل رفاقه الراحلين، واليوم يقتاده القوم كدابّة حرون انصياعًا لأمر الشيخ، فما كان لهم من بدّ غير ذلك؛ لأنّه رجل كبير وأعمى ويُقسم ألاّ يخرج من القرية، وأن يُواجه أُولئك القوم، فيُمزّقهم بأسنانه، إن منعه ظلام عينيه من نخر صفوفهم العتيدة بالرصاص. كان يشتدّ غضبًا كلّما نزلوا في سيرهم من مرتفعات يحسّها تفصلهم عن «عُصيْرَةْ»، أو كلّما مالوا إلى منحدرات يعلم أماكنها، وكان يقيس قدر المسافة التي يجتازونها من خلال عدد التلال التي يصعدها جمله أو من خلال برك المياه الآسنة التي يقطعونها ويعرفها هو واحدة واحدة.

كان إلى جوار الناقة «مِسْليَهْ» يسير جمل يحمل «بنت الخَبْتي» الشهيرة بـ«فاطمةْ»، وكانت تربط إلى جسدها أخاها «بن شامي» الساكن في حضنها كطفل ودود لا يُقدم على أيّ حركة، متشبّثًا ببندقيّته «شَارِقْ»، وكان «بن شامي» كلّما تقدّموا في المسير سأل أخته: (فاطمةْ.. عسى في شَارِقْ رصاص؟)، منذ سنوات وهو يسأل السؤال ذاته وتردّ عليه بالإيجاب، ثمّ تطلب منه أن يُوفّر رصاصه لمنازلة ذوي عاشقاته، هذا رغم أنّها لم تضع له رصاصة واحدة منذ أن فقد قدرة التمييز ووهنت قواه قبل سنوات نتيجة حرب شعواء مع سيل كاد أن يجرف بعض مواشيه، فصارع الأمواج وتلقّى على رأسه عدّة ضربات أودت بجلّ ذاكرته. وكانت من خلفهما «عَلِيّةْ هادي» تذود بقرة شغوفًا بملاحقة جمل «فاطمةْ» التي زيادة على إمساك «بن شامي» في حضنها، كانت تُردف خلفها «بَوْ»، من جلد ابن البقرة النافق قبل أسبوع، محشوًّا بالقشّ، وأقاموه جوار البقرة لئلاّ تنحل بفقد وليدها فيقلّ درّها بالحليب، وعند خروجهم صباحًا اضطرّوا لحمله معهم كيلا تُحجم البقرة عن المسير.

كان «علي هبّاش» لا يتوقّف عن النحيب والصراخ، وإذا وصل

«بن شامي» شيء من ذلك الصراخ الفاجع سأل: (فاطمةْ. . ما يقدر الهبّاش يسري يبايت معي؟ اسألوه إن كان يقدر يسري؟)، ويسأل «فاطمةْ» إن كان بإمكان «الهبّاش» أن يُشاركه مبيته مع الصبايا العاشقات، ويسألها بصيغة الجمع كما هي عادته، فالجميع لديه «فاطمةْ»، حيث لا أحد يقترب منه، سواء كان رجلاً أو امرأة، إلاّ إذا بيّن الداني إليه أنّه «فاطمةْ»، وإذا لم يُصرّح أيّ شخص يقترب منه بذلك الاسم تحديدًا، فعلى الفور يتلمّس «بن شامي» جسده بطريقة مستفزّة، إذ يضع يده في حجر ذلك الشخص، فإن كانت امرأة زاد في ملامستها وملاطفتها، وإن كان رجلاً بصق عليه، لذلك ما كان لأحد أن يجرؤ على الاقتراب من سرير نومه دون أن ينتحل شخص «فاطمةْ» ثمّ يصمت. ودون أن يصل «الهبّاش» سؤال «بن شامي»، أجابته «عَلِيّةْ» وفي مداعبة لا يعيها: (الهبّاش يقول هو محتزب لليل طويل. . وأَنت؟)، وعندما سمع أنّ صاحبه مستعدّ بسلاحه لخوض كلّ لياليه مع الفتيات، ردّ متسائلاً: (يا فاطمةْ. . في شَارِقْ رصاص؟ قولوا لي؟)، فعادت أخته تشدّه إلى حضنها لتُصلح من جلسته معها على الجمل، وعلّقت بأنّ بندقيّته جاهزة لكلّ الليالي فهي محشوّة بالرصاص حتّى العنق، ولكن عليه الانتظار إلى أن يصلوا لنزل عاشقاته، ثمّ نظرت لـ «عَلِيّةْ» نظرة ناهرة للتوقّف عن إثارته بمداعباتها التي لا تتوقّف حتّى في ظرفهم الحرج ذاك. وعاد «بن شامي» يُؤكّد لها: (أنا قادر عليهم. . بس شَارِقْ في نحر اَمْنَبّاش. . .)، فتحوّل بها إلى شجاعته من دون البندقيّة التي يحتزب بها طيلة حياته وحتى في مماته؛ لتكون في نحر «النبّاش»، ذلك المارد الذي التقاه قبل ثلاثين عامًا في وادٍ سحيق، وقال له: (يا بن شامي حِلَّيْلتِي بك وبعيالك)، فهو لن يكون حليلاً لذلك المارد الذي توعّده بأن ينبش قبره وقبر كلّ من يتسلسل في ذرّيَّته، إذا لم يقدح «شَارِقْ» كلّ حين بالرصاص، و«فاطِمَةْ» وحدها هي من تُبقيه على هذا المحمل من الانتباه والحرص، كما يؤمن دومًا.

(٣)

(اللّي يُشلّ بندق أو حتّى شفرة ويدخل بلادنا ما يشا اِلاّ الموت يا لنا يا له)، هذا ما أعلنه شيخ الشمل «عيسى الخير» عن حاملي الأسلحة وداخلي بلادهم، الذين لا يقصدون غير الموت لهم أو لمن يلقونه وهم في طريقهم إلى كلّ بلاد يدخلونها عنوة.

قال ذلك قبل أن يُسرّح الجميع للشرق عدا الرجال الموقدين بشهوة القتال، والتفّوا حوله يرصّون العزم لنجدة ترابهم من القادمين، فاستبقوا إلى طريق الساحل مشكّلين خطّ المواجهة الأوّل مع «قوم الذُّلُول»، والبعض انتشر في مداخل القرى على وادي «اَلحُسَيْنِي»، وداخل الجروف من الناحية الغربيّة، وحمل بعض النساء البنادق والسكاكين واقتعدن أحراش «الأراك» و«الأثل» المنتشرة شرقًا، فيما الصبيان حملوا ما استطاعوا من مؤن العشائر، بصحبة الأطفال والماشية والعجزة، قاصدين ناحية «الحِبَاطَةْ»؛ من الجهة الشرقيّة حيث تتّسع منحدرات جبال «ساق الغراب»، لتكون ملاذهم إلى أن يكشف الله عنهم هذا الضرّ، وتنفيذًا لأمر الشيخ في نهاية توجيهاته لهم، وقد أطلعته أعين سرّه على أنّ القرى الواقعة شمالهم وتسبقهم في مقابلة تلك القوافل لم يمسسها سوء، إلاّ أنّه فضّل المرابطة في حصونهم؛ ينتظرون هذا الغيب ليروا من أمره شيئًا.

انقضى يومان وهم على حالتهم لا يتحرّكون من مواقعهم، بعد أن

اطمأنوا على الأهالي في مقامهم الجديد، وبعض النساء يتناوبن على بعض الثغور لإحكام حراستها فيما أُخريات يُشكّلن همزة وصل مع النازحين إلى «الحِبَاطَةْ» والتأكّد من سلامة مقام الأهالي، إضافة لجلب الماء والغذاء من أماكن متفرّقة للرجال المرابطين.

عند بداية اليوم الثالث وصلت تلك القوافل فجرًا إلى حدود وادي «اَلحُسَيْنِي» الغربيّة، بعد أن انضمّت فرقة الخطّ الأوّل لبقيّة العصبة المرابطة، ولم تكن هناك ظروف مواتية لإحلال التفاوض بديلاً لحرب قُرّرت سلفًا، فأُطلقت أوّل رصاصة على أوّل القادمين من بندقيّة «بِشَيبشْ» بحكم تمركزه وحيدًا في طريقهم، إذ كان يتحصّن في خندق أقامه بالشقّ الأسفل، حيث الجهة الغربيّة للقرية، فرُفعت أوزار الحرب سريعًا، وكان رجال القافلة لا يتوقّفون عن اللعن والسخط، وكأنّهم يحذّرون من مغبّة مجاراة أهل هذه البلاد، وقد تخلّف قائد الحملة العسكريّة عن خطّ المواجهة، كأنمّا يُمعن في قراءة طبيعة هذه الدمنة التي تنام منذ مئات السنين على تلعة كبيرة ومن تحتها الوادي والمزارع ولا يرى بها قاطنين وقت وصولهم إليها، وشعر فيما بعد أنّه قد يقع ورجاله في مصيدة لا فكاك منها، فهذه البلاد تُحيط بها أحراش ومتاريس حجريّة ممتدّة حتّى جذور الجبال من الجهة الشرقيّة، ولا يُمكن التأكّد من قدرات أهلها الذين يجهل بالمطلق عددهم وعتادهم في القتال.

لم يُقرّر القائد إيقاف إطلاق النار من طرفه إلاّ بعد إدراكه أنّ الخسارة ستكون أوسع من المتوقّع فيما لو تقدّم للمواجهة، ممّا أثار فيه الرعب، فما شاهده من نيران لا تتوقّف قد تحرق أخضرهم قبل يابسهم، وكان يُكرّر لمستشاريه وجنوده: (في ذَا هَمَجْ ما يعرفوا حَسَنة مجيئنا. . .).

واستغرق في تفكيره حتّى تدبّر مع مستشاريه ورجل دليل أمرًا مفاده إرسال وفد صغير للتفاوض. إلاّ أنّه قبل تحرّك الوفد المعيّن تغيّر الوضع

وبدأ القائد يتقهقر ويعود لمسار قافلته الأوّل نحو الجنوب بدلاً من التوغّل شرقًا إلى حيث لا يعلم بطبيعة الأرض في ذلك الاتجاه، إذ كانت نيران البنادق لا تتوقّف، ولو تقدّموا لَحُصِدوا جميعهم، ويجهلون منافذ المكان الكثيرة، وقد اقتنع في قرارته أنّ هذه المواجهة ما كان لها أن تقع لو أنّ هناك قراءة جيّدة لطبيعة هذه الناحية من حيث ساكنيها وتضاريس بيئتها المجهولة تمامًا بالنسبة لهم كفاتحين بحسب اعتقاده.

كان شيخ الشمل يُصرّ على مطاردتهم لمجابهتهم ودحرهم إلى شمالهم، أمّا كبار القوم فكانوا يُثنونه عن ذلك، وكأنّه يُحاربهم وحده ويصرخ في المكان بأعلى صوته: (والله هَاذُولا عسكر اَمْسَعَاوِدَةْ.. اللّي يحاربون على ذُلُول.. والله هم.. لا تخلّوهم يُهجّون مِيَمّن.. شَا يقاتلون في الشقّ اليمانيّ.. حُدُّوهم.. خلُّوهم يرجعون لبلادهم الشاميّة.. لا يقتلون حلفنا في الشقّ اليمانيّ..) ورجاله لا يُحرّكون ساكنًا مطلقًا!

صرخ يُفتّش في وجوه رجاله عن ناصر له، وعمّن يردع الغزاة، الذين يخوضون حربهم على جمال بخلافهم حيث يُقاتلون راجلين، عن مواصلة سيرهم جنوبًا، وتحديدًا نحو وادي «ضَمَدْ» و«أبي عَرِيش» وما خلفهما من بلاد حتّى حدود اليمن الشماليّة، لكنّ رجاله بقوا ربيبي صمتهم المفاجئ، فجميعهم لا يعرفون لهم حليفًا في الشقّ اليمانيّ، إنهّم مكتملون، وبعضهم يُبرّر ثورته بأنّ جمرة الحرب ربما سلبت لبّه، ولم يعد يُدرك ما يقوله، وما يُوافقونه عليه تمامًا هو أنّ هؤلاء القوم لا مكان لهم هنا، وما جرّ أرجلهم لهذه البلاد إلاّ «الأَدريسي» حاكم «المِخْلاَف» الأخير، وأنّ عليهم الرجوع شمالاً إلى بلادهم البعيدة.

أيقنوا أخيرًا وبعد تواري القافلة عن الأنظار، أنّ لا يد لهم في هذه الحرب، وأنهّم سيتدبّرون الآن أمر عيشهم في جوانب الجبال، حتّى ينتهي أمر هذه القوافل، وحتمًا ـ في القريب العاجل أو في البعيد المنتظر ـ سيسمعون عن أفعالها في الجنوب والشمال.

بإيعاز وتصرّف حكيم من كبار العشائر، حملت أكتاف العبيد سرير الشيخ من مقرّ معسكرهم، بعد أن خرّ مغشيًّا عليه من شدّة غضبه عليهم كعصبة شهيرة، إذ خذلوا مناشدته لهم اللّحاق بالغزاة الأغراب، وقِيدت دابّته محمّلة بالأسلحة والذخائر، ثمّ بوجه الهزيمة انطلقوا جميعًا مع بقيّة النساء المعاضدات إلى قربة أهاليهم الفارّين من قراهم، وقد خلّفوا من بعدهم «بِشَيبشْ» عينًا استطلاعيّة وراصدة للمكان.

(٤)

عندما استقرّوا في «الحِبَاطَةْ» نازحين، كانوا قد اختاروا منها مكانًا يُسمّونه «اَلقَايِمْ»، لإطلالته الشاهقة على الأودية من الجانبين وارتفاعه عن بقيّة الأرض الصخريّة المحيطة، فأُقيمت عليه بعض البيوت بسواعد النساء والأطفال من القشّ وجذوع السمر، ولم يصل الشيخ وبقيّة المحاربين إلاّ وكلّ أُسرة لها خدرها المشيّد. وفي المقدّمة أُقيم عريش كبير للشيخ، بأمر الأمّ ذات الفضل الأوّل في استقرارهم هناك، بعد عقد تفاهم مع أعيان تلك الناحية الذين رحّبوا بهم كما ينبغي لذوي المكانة والجاه العالي أمثالهم، وقد طمأنتهم أنّ الغزاة لا مكان لهم في ذاكرتها ولم يُنبئ أيّ كتاب من قبل بحرب كهذه، وأنّها قد نبّهت شيوخ القبائل وعلى رأسهم قائدهم ـ ابنها ـ إلى مغبّة خروجهم من قراهم لكنّهم لم يعوا حدسها، وهي التي لم يُعص لها أمر من قبل هذا، لكن هذه المرّة غُلبت وشقّ عليها مخالفة إصرار الرجال وابنها على الخروج من واديهم.

في الليلة ذاتها التي لحقوا بأهاليهم كانت الأمّ تجتمع في خدرها الصغير بثلاث نساء من مساعداتها الخاصّات، ولم يكن مستغربًا أن تطرد الجميع بمن فيهم الشيخ العليل عن جوار ذاك الخدر الضاجّ بالصياح، كما أنّه لم يتجرّأ أحد بالسؤال عن سبب الاضطراب الظاهر على وجهها من خلال عبارات الشتم والسباب لكلّ من شعرت باقترابه

منها، أو من النساء الثلاث، ولو لمعرفة أسباب الصراخ المنبعث من حنجرة امرأة يُوجعها المخاض، وكانت جاريتها الخاصّة «زَهْرَةْ» تُنبّهها فورًا باقتراب أيّ شخص يستطلع الأمر.

وقد تضاربت الآراء حول اسم المرأة التي يصلهم صراخها وكأنّها تسألهم غوثًا لا تجده أبدًا، كما تناقل النّاس فيما بعد أنّ هناك أكثر من امرأة تصرخ وتستنجد، وراح الجميع يفترضون ما استطاعوا، في محاولات مضنية لمعرفة سرّ تلك الليلة.

في الصباح كان يظهر على الأمّ جهد ما كان ليُصيبها ـ بحسب تقدير ابنها الشيخ ـ لو أنّها أسرّت إليه مسبقًا بدواعي ذلك الجهد، ولم يخطر بباله أن يستدرج إحدى النساء الثلاث اللاتي خرجن بصمت هلع، فهو لن يخرج منهنّ بشيء ما دامت الأمّ هي من تقود فريق القَبَالَة طوال الليل، وبين أيديهنّ امرأتان تضعان حمليهما في ليلة واحدة ـ كما علم فيما بعد ـ ففضّل الشيخ السكوت حتّى يحين الحديث كما ترغب هي، كما أنّه لم يكن بحال جيّدة للتدخّل في تلك الأمور المقدور على إنهائها من دونه، خاصّة وأنّها من شؤون النساء.

عصر ذلك اليوم وجّهتهم الأمّ بصلاة الميت على امرأتين وطفل واحد، ثلاث جنازات عناء الليل الفائت، وكانت إحدى المتوفاتين زوجة «بِشَيبشْ» الغائب عنهم، أمّا المرأة الثانية فكانت مجهولة، وقد جُهّز الموتى في الخدر ذاته، ثمّ بأمر الأمّ دُفنت جثّة إحدى المرأتين جوار نُزل «اَلسّاحِليْ»، والأخرى والطفل دُفنا خارج نطاق مقامهم، وحين هبط أوّل الليل كانت جارية الأمّ الخاصّة «زَهْرَةْ» تتسلّل ناحية واديهم غربًا مخبّئة فيما حملته معها الحبل السرّي للطفلة الباقية على قيّد الحياة، فيما كان رغاء «اَلبَارق» ـ جمل بِشَيبشْ ـ يعلو في سماء المكان فقدًا على زوجة صاحبه، ممّا دعاهم إلى شدّ وثاقه إلى قائم قَعَادَة الأمّ خوفًا من أن يسري إلى القبر ويدكّ معالمه، كما أنّ الجمل لن يجرّ قَعَادَة الأمّ ليلاً، فهو يعرفها، وقد أمرت الأمّ «ولد بلال» بألاّ يُطيل في

عزفه لحن الموت كونهم لا يُقيمون في ديارهم، وكيلا يفجعوا «بِشَيبشْ» بصوت الناي الباكي، إذا ما اقترب من مكان إقامتهم ذاك، مع علمها أنّه عند تلك السّاعة كان يَجْبُر إلى غارٍ يحميه من الليل المطير، ولن يصلهم في «اَلقَايِمْ» إلاّ ضحى الغدّ.

عِشاءً في عريش الأمّ، والسماء تهدر بالرعود، كان الشيخ على حالته مثخنًا بحزن وحرقة، ومنثنيًا عن حادثة الموت والصلاة والدفن، ولم تُذهب عنه تلك الحالة سوى الأمّ القادرة وحدها على تطبيب كافّة آلامه، فعندما شعرت في جواره بصمت تعرف مغزاه، بادرته تقول: (زوجاتك ماتوا وحقّك ما مات. . عادوه في مكانه. . .).

تبسّم ابتسامة لم يشعر بها سواها رغم وجود خاصّته ومن حضر للتعزية في زوجة «بِشَيبشْ» الغائب حتّى تلك الساعة، وسرّهم التخفيف من كمد شيخهم، ثمّ ليستغلّوا فرصة مراوغة الأمّ له حين ذكّرته بأنّ عضوه باق رغم موت كلّ نسائه وآخرهنّ أمّ «حَمُود» المتوفّاة قبل سنتين، ولكيلا يصمتوا لحظتئذ، علّق «سُبَيعْ» ـ ابن الأمّ الأصغر ـ على ما ذكرته العجوز قائلاً لها: (ما عاد في حقّ ولدك اِلاّ البول). وبذلك زاد «سُبَيعْ» من صخب التندّر بعضو أخيه «عيسى»، معرضًا بعجزه، فعندها ارتفع ضحك «بن شامي» غير الواعي بحال حزنهم، وبدورها ردّت الأمّ على «سُبَيعْ»: (أنا اَدرى بولدي يا هيّن. . أرجل منكم كلّكم).

وفي محاولة أُخرى منها لتُحرّك شيئًا بداخله للحديث، دافعت عنه بأنّه أكثرهم رجولة، ومع هذا لم يستجب الشيخ لما ذهبوا إليه، بل غيّر الحديث بسؤاله عن الأسلحة، وما إذا كان النساء اللاتي وصلن قبلاً بيوم، قد أتين بما تبقّى من بنادق وذخيرة.

ردّت عليه الأمّ مؤكّدة وصول الجميع وبكلّ أسلحتهم، وهي تتنهّد قليلاً متذكّرة «بِشَيبشْ» وكيف سيستقبل خبر وفاة زوجته، وأضافت: (رَوّحوا معهنّ بواحدة حُبلى في حَدّها. . حصّلوها في طريقهم متعسّرة. . يمكن زوجها أسروه قوم الذُّلُول وهو هاربّها. . .).

بشدّة وفزع، سأل رجاله: (من هو زوجها؟).

هوّنت عليه الأمّ: (ما نعرفها.. كَأنّها من وادي ضَمَدْ).

صمت قليلاً بفعل الاطمئنان، ثمّ وجّه الحديث لها متسائلاً: (قالوا لي أنّكن ولّدتن ثنتين ماتوا مع ولد واحد وبقي صُبى حَيّ.. ولَد مَنْ؟). عقّب أخوه «سُبَيعْ»؛ مصحّحًا له جنس المولود، قائلاً: (اللّي بقيت صبيّةْ يا عيسى).

عطّلت حواسّها عن السؤال، وكأنّها تُثير انتباههم للاهتمام بما ستقوله، أخذت بعصاها من طرفها ولوّحت بها في الهواء كمن يُحذّر من شيء، وبعيدًا عن أيّ ملمح لإجابة عن سؤاله، قالت: (أنتم مقدمين على زمن ما عادوه لكم.. صحيح اَنّ هَاذُولا ما اَجوْا يحاربون مثل ما تحسبونهم.. لكنّهم اَجوْا بشرع غَيْر.. حياتنا شَا تِتْغيّر كثير.. فعينكم بعيالكم لأنّهم بعد زمن يُهجّون مشايم ويخَلّون بلادهم.. يُهجّون ورا دولةْ.. يطاردون ورق.. ويمكن الواحد فيهم ينسى أهله وأرضه وحياته هَا هِنا كلّها.. هذا الشّام ما عادُه زي زمان.. فيه دولة جديدة.. وشرع جديد.. يحكم ظِهار باسلة وبعيدة.. واللّي مَرّوا هم عسكر لهذيك الدولة.. يصلون حتّى زَبِيد...).

وكأنّ في مسامعهم وقراً بعد حديث الأمّ التي توقّفت لتقرأ في صمتهم خشية عارمة ممّا قالته، ولم يُحرّك واحد فيهم ساكنًا، وكاد وجيب قلوبهم أن يُسيطر على مجلسهم الهلع ممّا سمعوا، فلم يخطر ببالهم أن تسير الأمور إلى هذه الدرجة من الخطورة التي تُهدّدهم وتُهدّد أولادهم، وتقضي على ذخيرتهم في هذه الحياة، ولم يُمعنوا جيّدًا في واقع كهذا من قبل، أو أنّ زمنًا كهذا سيُدركهم، فهم لم يتعوّدوا مثل هذه الأحداث المثيرة، حيث ذكرت أنّ هناك دولة قائمة تجوب أراضي كثيرة ويصل شأن قوّتها حتّى مدينة «زَبِيد» اليمنيّة، وهذه القوّة ستفني مقدّراتهم من سلطة لها شرعيّتها، والأدهى أنّ هذا الحكم سيستقطب أبناءهم للشمال!

لُجموا بحديث الأمّ عن هذه القوّات وعن الحكم الجديد الذي يستشري مرورًا ببلادهم، ولا يعلمون أيّ مستقبل ينتظرهم في خضمّ هذه الواقعة الجلل!

جمع الشيخ لعابه وقذفه خلف مجلسه، رافضًا هذه الأفكار التي ذكرتها الأمّ، مع أنّه يعلم تمامًا قدرتها على كشف ما يجهلونه، وهذه المرّة بثّت مرارة لا تُحتمل، فكيف سيرضون بهذه الإهانة، وأيّ قدر ضرير يحلّ بهم!

تهدّج صوته في وجهها وكأنّه يسألها تبديل حديثها بقول أكثر تفاؤلاً ممّا هو عليه الآن، إذ كان قولاً يشوي لحى الرجال ويصفع النساء، يتغلغل في أرواحهم بفجيعة مهولة.

لا يعرفون من الشمال غير «مَكّة» التي يُيمّمونها مرّة واحدة في العمر لأداء الحجّ، ولا يرحل الواحد منهم أبدًا غير تلك الرحلة الشاقّة التي تستغرق شهورًا عسيرة، فكيف سيعيشون زمنًا فيه أولادهم يُغادرون بذلك الاتجاه، وبعضهم قد لا يعود؟!

يُفكّرون جميعهم في المعضلة ذاتها، هذا السفر الذي سيغدون طريدته السهلة، فريسته المواتية، رغم أنّه لم يكن مخيفًا من قبل، فلديهم مقولة عريقة يُكرّرونها دائمًا عندما يُناقشون أمرًا يتعلّق بسفر أحد أولادهم، تلك المقولة التي صرخ بها «الهبّاش» ـ عند نهاية حديث الأمّ ـ غاضبًا: (ولدك إذا وجّه مشايم خَلُّه، وإذا وجّه مِيَمّن أمسُكُه)، فذكّرهم بأمر الموافقة على سفر أحد الأولاد من عدمها، فلو كان هذا الابن سيتوجّه شمالاً فعلى أهله أن يخلوا سبيله؛ لأنّه سيجد الجوع ويضطرّ للإياب نحوهم، أمّا إذا كان سيُسافر جنوبًا، باتجاه اليمن تحديدًا، فحينئذ تتعذّر الموافقة؛ خوفًا من عدم رجوعه، فاليمن مشهور بالخيرات وقد تمنعه النعم من العودة للبلاد ولأهله الذين سيخسرونه عضدًا يُجابه معهم ويلات الحياة. لذا كيف لهم أن يعتقدوا الآن أنّ الشمال بقحطه وموته سيأخذ فلذاتهم بدلاً من اليمن؟ وهذا ما أشعله

«الهبّاش» في قلوبهم الساكنة إلى صبر ممضّ، حين عاد متعجّبًا والحسرة تنشب أظافرها في قلبه، وسائلاً الأمّ: (عسى الزمن اَنقَلَب يا صَادِقِيّةْ؟!).

هذا السؤال أضمره كلّ قلب حضر حديث الأمّ، والشيخ كان في مركب خشن وأسبابه كثيرة، أهمّها سلامة رعيّته، ولم يكترث كثيرًا بفكرتهم تلك التي أثارها أكثر من شخص في استفسارات متلاحقة يودّون من الأمّ الإجابة الشافية عنها.

وفي معرض الأحاديث تنهّدت الأمّ طويلاً، بآهتها المعروفة: (إِيييييييهأ...)، ليحلّ الصمت مجدّدًا، وتشقّ عليهم هذه البادرة للخوف، فلا تُقدم الأمّ على تنهيدتها تلك إلاّ لرعب يتسلّقها، ولم يفتق الترقّب منهم شيئًا حتّى قالت: (الرجال يموتون.. ما يبقى اِلاّ النساءْ).

(٥)

عندما انكفأ «قوم الذُّلُول»، ولحق عُصْبَة «عُصيْرَةْ» بالأهالي في مقامهم المؤقّت، كان «بِشَيبشْ» قد قرّر البقاء عينًا تتحسّس ثغرات واديهم وأيّها أدعى لمباغتة من الغزاة، ولم يكن لكبار القوم أن يدعوه وحيدًا حتّى أتاهم بمواثيق وأيمان ألاّ يلحق بركب تلك الحملة العسكريّة، وألاّ يتتبّع أخبارها من بعدهم، فلا يطول غيابه عنهم أكثر من يوم يكون فارقًا بينهم وبين الغزاة، ويتأكّد في ذلك اليوم أنّ لا أحد يقتفي عشائر واديهم.

بحلول مساء اليوم المعيّن لبقائه كان قد مشّط الناحية بكاملها، فاطمأنّ إلى خلوّها من أيّ مؤشّر لوجود «قوم الذُّلُول»، وانطلق في إثر العصبة، حيث تُقيم العشائر. تبدّت الجبال قبالته متخصّرة بغيوم داكنة تُبشّره بليلة وفيرة الرعود والبروق، عندها استحضر لازمة المطر الغنائيّة، المبثوثة في جموعهم كلّما أنذرت السماء بعطاء جديد، وشحذ جوارحه لصوت العصبة حين ترى على أعالي واديهم برقًا يُضيء ماء، يشمل بنوره الخاطف وهادًا واسعة وسفوحًا بعيدة، فمن اتساعه أن ركب حتّى جبال «اَمْعَارِضَةْ» شمالاً، وتلك بشراهم بغيث هائل. راحت سكّين أساه تجزّ حنجرته كلّما خطفته ذاكرته إلى ترحيبهم من على تخوم واديهم بالغيوم الوامضة:

(بَرّاق من تَوْ اَلحُسَيْنِي يِضيْ مَاءْ
ومن جبال اَمْعَارِضَةْ مِرْتِكبْهَا)

كانت سروات «ساق الغراب» تُفسح من ردائها القاتم كما لو أنّها جبين الليل الهاطل من الشرق، وهو بتلك اللازمة الترحيبيّة للقائها يحثّ الخطى؛ ليتمكّن من النجاة بغار، لا يعرفه غيره؛ فيأوي إليه قبل أن يضطرّ لمجابهة ليل شاقّ، وراغبًا عن البقاء في أحد الجروف الكثيرة المنتشرة في طريقه، فكان يعي أنّه لن تعصمه شجرة ولا صخرة في تلك الجروف، إذ سيسهل على الماء انتزاع كلّ شيء من بطونها. لحظة وصوله إلى المكان المعيّن كان الوقت عِشاءً، وكان حسم السماء زلزالاً في الغيوم البعيدة، حين عصم جسده عند فتحة الغار، ولم يتقدّم إلى آخره لتنال روحه غبطة بزرقة السماء الحالكة عندما تُومض زلازلها البرّاقة على السهول حينًا من الجهة اليمنى، وحينًا على التلال والجبال من الجهة الشرقيّة. عند الهزيم يظهر وجهه مشرقًا في الداخل، إذ يُصاب بفرح لا يعرف من أيّ قرار بداخله يتسلّق، يغسله من ألم يمضّه وحيدًا، بعد انحسار الموقف عن منازلة «قوم الذُّلُول»، فلا يعود إلى تذكّرهم إلاّ عندما يُطفئ الظلام تلك الومضات الخاطفة بين الفينة والأخرى. كان البرق يمتدّ من الشمال إلى الجنوب كسيف يُومئ إلى ساحة نصر كبيرة، تنفر الجموع إليها زخًّا مطيرًا لتسحق القامات مهما علت. كان يصله صوت مقاومة أشجار «الدّوْم» لقصف السماء، والحفيف في سعفها وانكساره الباكي، وإذا تسنّى له، من ثقوب الليل الخاطفة، شاهد جرجرة الماء بغصون «البَشَامْ» و«السّمَرْ»، تطفو وتغوص حتّى تقرّ في مسلك هائل للمياه التي تهدر حتّى مجمع الأودية، وتُكمل سيرها في جيش عارم إلى واديهم «اَلحُسَيْنِي» غربًا. لم يغب عنه أنّهم قد عزّزوا من قدرات عقوم الحقول ليمنعوا بها الماء من الوصول إلى زروعهم القائمة، والقريب حصدها، حتّى وإن كانت السيول كبيرة فلن تُصيب بلادهم بضرر بالغ.

كان رشق المطر للمساحات الشاسعة في الخارج، أو صفعه للصخور المستوية، يُذهب عن المكان وحشته ويُؤنس قلب «بِشَيبشْ»

الذي ما كان له أن ينعم بذلك الفرح الغريب لولا هذه الليلة المغتسلة بكلّ ما فيها، وعادة ما يدخل هذا الغار الذي يعرف زواياه جيّدًا، ويُجيد التوغّل فيه، وكلّما أتاه أقام أكوامًا من الأشواك في مدخله، لتمنع عنه الزواحف والسباع، ويذهب في قلق إلى نومه، إذ لا يصل هناك إلاّ لقيادة السيول إلى واديهم مع نهاية العاصفة عندما يسري يُعارك هياج المياه حتّى يعقلها في واديهم. هذه المرّة آثر مراقبة الأشجار وهي تُناضل العاصف الذي يفتك بكلّ قائم هانت قوّته، ويدكّ كلّ ما يسهل تقويض أساسه. كان يُراقب يد السماء قابضة على الشجيرات وتمزّقها، ومرّة يسمع جذعًا عزّ عليه مفارقة الأرض فيُطقطق في أنين متصل، ويصله تدحرج الصخور من هامة التلّ وكأنّها جنود يتدافعون لنجدة ما، فيغمرها السيل وتسكن إلى هناك بعد اصطدام يقهره جبروت المياه المتدافعة إلى الأمام كوحوش مزمجرة لا تحدّ من قطيعها الشرس أيّة عثرة، ومع وميض البرق يرى الأمواج المتتابعة دُرَبَ ثيران تتمايل في سَبق محتدم بالمنافسة ولا نهاية له. وكلّما أرخى «بِشَييشْ» لروحه الهيام بتلك المناظر والأصوات، رسم صورة بليغة لعصبة «عُصيْرَةْ» وهم يجرفون الغزاة كما تفعل أيادي السماء بوجه الأرض خارج الغار في ساعتها تلك. كان إذا استقرّ على لوحة مرضيّة عن رجال واديه، انتهى إلى ألم خارق يشلّ حواسّه عن المدركات المحيطة. يتمنّى أن يملك يد السماء الجبّارة ويجزّ معاول الشرور عن بلاده، ويعصف برزايا القادمين فلا يُبقي لهم أثرًا البتّة. كان يجوب سنوات عمره ذات العقود القليلة فلا يقبض على منقصة واحدة لحقت ببلاده، ولا يذكر مَغرمًا تمنّوه لم يُحقّقوه أو عجزوا عنه، وما كان لهم هذه الحياة الطولى إلاّ بقوّة لا مثيل لها، كانت لهم، ويُقسم أن يبقوا عليها. وفي لحظة يصيخ لنداء روحه العالي ينكسر للقسم، الذي قطعه على نفسه أن لا يُقدم على أيّ فعل من بعدهم، فيعود مغتاظًا إلى صليل السماء على الأرض. (إنّها القوّة...)، (الحقّ...)، يُقرّر في داخله أنّ القوّة حقّ محض، فلا

مبرّر لهم في العيش كلّ هذه القرون إلاّ بالقوّة التي وهبتهم حقًّا بالمطلق، وشاهده على ذلك لا يتوقّف عند مثال واحد، فكم من أرض آلت لترابهم، وكم من مياه أسِنَت في واديهم وحبسوها عن الغير، وكم من حصون ركموها على أجساد أصحابها. وهو في تلك الساعة يقطع في كلّ شكّ حول هذه الحقيقة، وينهر نواصي الأعذار التي قد تُبرّر خروجهم من ديارهم، ثمّ في لحظة جديدة يتحوّل إلى نشاط السماء المستمرّ والصارم في العمل، فيلمس إتقان القوّة فيما تسعى له دون توقّف. ويستقرّ إلى تذكّر زوجته «مريم» الحامل والتي خرجت من القرية على جمله «اَلبَارق» وودّعها على أمل اللقاء بها بعد أيّام قليلة انقضت، وهو فرح بانقضاء تلك الأيّام التي فصلته عنها، ويشعر بأنّها قد وضعت مولودهما الأوّل، ولن يتعسّر عليها شيء ما دامت في رعاية الأمّ دائمًا.

بات يُدير فكرة الحياة الجديدة مع ولده القادم، هذا وهو لا يُغادر ليد السماء النشطة صغيرة أو كبيرة إلاّ وسجّلها في خلده، وهكذا حتّى لملمت السحب أسمالها الداكنة وقشع الصبح بفيضه الذهبي ما تبقّى من الليل، فهبط من مكانه ليطأ أرضًا تمتدّ بصخورها وأشجارها الغارقة واكتسابها لبريق خالص لم يشبه ضوء الشمس الباهر بعد. ولتبقى روحه في سكينتها، بعد ليلة طويلة مع المطر، رأى حشرة «جِدّةْ اَمطَرْ» وهي تتحرّك أمامه ببطء على عادتها، بلونها البرتقالي الزاهي، كأنّها قُدّت من مخمل نفيس، فكلّما كفّت السماء يدها عن الأرض خرجت هذه الحشرة جذلى بالبسيطة المرتوية، نذيرة بالرخاء، ممّا يدفع كلّ من يُشاهدها أن يقطع من ثيابه خيطًا ويضعه عليها ثمّ يستعطفها سائلاً برجاء متودّد: (أنا كسيتك في الدنيا فاكسيني في الآخرة)، معتدّين بكون هذه الحشرة رسول الخير والعطاء، ويلزمهم إهداؤها شيئًا من كسوتهم لتردّ لهم الهديّة في الفردوس، وهذا ما فعله تمامًا «بِشَيبشْ»؛ مظهرًا بذلك روح العاطفة التي لا يُمكن أن تبدو عليه أمام أيّ شخص!

(٦)

والقمر يحكي لهم عن ألوان الذرة وعن حصاد الموسم ـ أو ما تعارفوا عليه بالخريف ـ إذ خَرِف الزرع مستويًا للحصاد، كانت آنية النساء مصفوفة تحت القُعُدْ مملوءة بالماء البارد، وقد غمسن فيها وُريقات الريحان تعبيرًا عن أملهنّ في رحمة الله بالمتوفّين، ففي هذا استحضار لفضاء الجنّة كما يعتقدن، عند ذلك كانت الأمّ تُعاتب ابنها الشيخ: (وأنَا اَمّك قلت لكم اَنّ هذي حرب ما سبق وكُتبت في كتاب.. لو اَنّكم سمعتوني وقرّيتُم في بيوتكم ما كان جانا شِي.. وذا الحين ترى كيف اَحْنا مضيعين في هذي الدمن؟!).

يسمعها الشيخ، وهي تُعاتبه متحسّرة على وضعهم الشقي، دون حراك منه، إذ كان مشغولاً بليل «الهبّاش»، وهو في ساعتهم تلك يُواصل نداءه على رفاقه من فرسان القبيلة الأوائل، القاضين من قبل هذا، يستنجد بهم باكيًا لنصرته ويستنكر الزمن الذي صار فيه ضريرًا، ويتمنّى لو أنّه يُفرّق بين اللّونين الأبيض والأسود، وقد زاد امتعاضًا عندما علم أنّ الغزاة يُحاربون على جمال، وذرف دمعه المهيب عند هروب قومه به، فكان يصرخ فيهم: (ليتني عادني اَفرّق بين اَمبيض واَمسوَد والله لاَمزّقهم باَسناني)، كان صوته يجوب عروق الجبال متصعّدًا سفوحها وهامتها حتّى يخدش حلكة السماء، مثل جرح يتمدّد ويتلوّى فتيلاً حارقًا في دماء الرجال جميعهم، وينزل في النساء رعبًا.

كان يصل الأمّ نداؤه لأصحابه الراحلين، يتناهى إليها مضرمًا كجمرة الموت المباغت، فيكويها بمناجله الحادّة ودونما أثر يتركه فيها، إلاّ أنّ الأمّ التزمت رباطة الجأش، ليلزم البقيّة صمتًا فائضًا على حاجتهم، إلى أن قالت لابنها: (يا عيسى كن رجل واسمع كلام اَمّك. . لا تطاوع شياطينك. . وقِرّ بروحك وخلّنا نرجع. . ترى ما لنا اَلاّ بيوتنا. . والله لو اَنا اَبصر أنّي ما أهجّ معاكم من عُصيْرَةْ. . لكن صرت تتحكّم بي لأنّي عميا. . من متى تخالف كلامي يا عيسى؟!).

أنهت لمحة من حسرتها بحشرجة كادت تُبكيه، فقد شعرت بعجزها لأنّها عمياء، وإلاّ لبقيت في قريتهم «عُصيْرَةْ»، حيث شعرت لحظتها أنّها تنقاد لأمره كرعيّته، وهي التي كانت تأمر وتنهي طوال حياتها.

لقد كسرته بشكل لا يُظهره أمام الموجودين، فمدّ يده لرأسها وداعبها باسمها مجرّدًا، يقول: (يا صَادِقِيّةْ زمان اَنتِ أمّي. . لكن اليوم اَنا اَمّك واَبوك وولدك)، ثمّ استطرد متعمّدًا ممازحتها كما اعتاد كلّما شعر بمنغّص يتخلّلها، ومحاولاً جلي روحها من الكدر: (اِيضًا وشيخك يا صَادِقِيّةْ. . بس لا يكون نسيت هَرْجنا ذاك. . كأنّك كبرت قليل!)، وهمهم بكلمات من خلال ضحكة مغتصبة، بعد أن ألمح إلى سرّ بينهما يُدبّران تحقيقه في الخفاء، وكأنّه بها تقدّمت في العمر فنسيت ذلك الأمر.

ردّت متسائلة بتعجب، كمن يرفض تعديل مسار حديثه: (عادك متذكّر واَنت شاحنك الشيطان لهذي المقاتلة؟!).

صمت قليلاً حتّى عاد لجرح «الهبّاش» وصراخه في الليل فوجّه حديثه لأمّه متسائلاً: (عسى يصلك صياح علي هبّاش؟).

أجابته متهكّمة: (الهبّاش يرى شرّه وهو أعمى. . وأنت هبل وترى قوّتك. . فلا شرّ يردّ نظر ولا هبل يمسك قوّة)، فضحك الشيخ هُنيهة قبل أن يُردف على كلامها، وكأنّه يُهدّئها، قائلاً: (بكرة يلتقون مشايخنا

بمشايخ هذي الدمنة.. شَا نِتشاور بيننا...).

صمتت كي لا تُضني نفسها بأمر لقائهم بمشايخ تلك المنطقة التي تستضيفهم، لأنّها تعرف توجّه ابنها، وتعرف قدرتها فيما بعد على ثني كلّ قرار، إذا ما رأت أنّ ما توصّلوا إليه يُعدّ وبالاً عليهم جميعًا.

في المساء التالي كان الرجال جميعهم قد قرّروا أمرًا لم تتوقّعه الأمّ كثيرًا، عندما أجمعوا علنًا على التريث في الرجوع إلى وادي «اَلحُسَيْنِي»، وقد تتحسّن الأمور فيعودون لبيوتهم في الشقّ الأسفل المقابل لمقامهم ذاك، ومع هذا حلّت في بطن الشيخ غصّة كبيرة، وأمّه تشعر بذلك، وتعرف أنّه لن يرضى إلاّ أن يُلحق الكمد بمن تسبّب في هذه «اَلهَرْبَةْ» لشمله الكبير، وهذا ما يُردّده للجميع دائمًا.



(٧)

مضت بضعة أيّام على نزوحهم، وإثرها بدأت بوادر الحصاد، ولا بدّ من التجهيز له، وشحذ السواعد القادرة على العمل في حقولهم البعيدة، وهذا الموسم أشدّ المواسم حاجة، فبهم خصاصة لا تُوصف ناتجة عن قلّة مؤنهم الغذائيّة، إضافة إلى شحّ في المراعي، وقد بدأ الهزال يلحق بالمواشي والدواب.

وكما هي عادة الأمّ تُرتّب كلّ أمر دونما انعقاد مجلس يخصّها، فتوجيهاتها غير المباشرة تُدبّر آليّة عمل كلّ مجموعة من بين العشائر التي يحكمها ابنها، فدرايتها بمواقع النجوم كما اشتُهر عنها، وكذلك بأحوال الطقس والأرض، جعلتها ذات مكانة مرموقة وشخصيّة مطاعة، وبالرغم من منزلتها تلك إلاّ أنّها لا تُلقي بالاً لمن يسألها تقديم النصح له في أمن ماله، أو لعمل «تَلْوِيثَةْ» تُضلّل بها السارقين عن بيته أو ممتلكاته من مزارع ومواش، إذ كانوا يعمدون لقوّتها الروحيّة التي يُشاع أنّها اكتسبتها من أخوالها الجنّ الذين اختطفوها في طفولتها بدعوى زيارتهم لمدّة ثلاثة أيّام فُقدت فيها، ويُحكى أنّ أهلها تقبّلوا فيها العزاء باليوم الثالث الذي ظهرت عليهم فيه من ركن العُشّة الكبيرة، وكانت لحظتها تحمل رغيف «خَضِير» معمولاً من الحبوب الخضراء، وكان هذا الرغيف محلّ تعجّبهم واستغرابهم لأنّه لا يظهر في غير موسمه، ولا يُمكن أن يُوجد في أيّ قرية من قرى المنطقة رغيف كهذا في

الوقت الذي خرجت فيه عليهم، ولعلّ هذا الأمر العجيب جعلهم يصدّقون ما نقلته إليهم عن عالم الجنّ؛ عالم أخوالها الخرافي، وما قصّته عليهم من أحوالهم وطريقة عيشهم.

ومن تدبيراتها المتقنة في محنتهم القائمة، أن دعتهم يُفكّرون بتوزيع الحقول على الأفراد رجالاً ونساء، وجدولة الأعمال في تلك الحقول على مراحل، فيباشرون أوّلاً بحصد الحقول الأقرب والأصغر، والتي تُوجد بالطرف الشرقي لواديهم، فذلك أدعى لعدم مواجهة الغزاة، لأنّهم في غنى عن ذلك خاصّة في هذا الوقت، ثمّ إذا خلصوا وتأكّدوا من عدم وجود العقبات، بدأوا بالحقول الأكبر والأبعد.

وهكذا بدأ الصّريم بجمع السنابل الجاهزة لاستخلاص حبوب الذرة منها، ويُرسل الحصاد إلى مستقرّهم الجديد بقيادة «عَلِيّةْ هادي» المنصّبة لهذه المهمّة من قبل الأمّ؛ فرغم دعابات «عَلِيّةْ» الكثيرة التي قد تشي للحازمين بأنّها غير مسؤولة وغير جديرة بتولّي الأمور وتنفيذها على الوجه المطلوب، وخاصّة فيما يتعلّق بمحصول الخريف وقيادة أسراب النساء الصّوارم، إلاّ أنّ «عَلِيّةْ» من وجهة نظر الأمّ ذات قدرة هائلة على مواجهة المخاطر والتصرّف بشكل أفضل من النساء الأخريات اللاتي تمّ تقسيمهنّ إلى نصفين، نصف يتراوح العمر فيه بين خمس عشرة سنة وثلاثين سنة، وأغلبهنّ لم يتزوّجن بعد، هذا الفريق قام بقطف السنابل وجمعها، وذلك بعد أن جزّ الرجال القصب من أصوله وطرحه أرضًا ونشره تحت الشمس لمدّة يومين ليجفّ، وكانت المختارات لهذه المهمّة أقدر على التحرّك والعودة سريعًا إذا ما داهم المكان خطر ما، أمّا الفريق الآخر، فكان بقيادة «بنت الخَبْتي»، وشمل النساء الأكبر سنًّا وانحصر دورهنّ في استقبال ما يُجلب من سنابل مقطوفة لدرسها بطريقتهنّ الخاصّة في قرى «المِخْلاَف»، إذ جمعن السنابل على أرضيّة البيدر الذي يكون بمنتصف الحقول عادة، وقد دكّوا جزءًا من الأرض التي يُقيمون فيها لتكون بيدرًا مؤقّتًا استعدادًا

لعمليّة الدرس، فاستخلصن حبّات الذرة بالـ «مِخْبَطَةْ» الخاصّة بالنساء، يضربن بها السنبلة لاستخلاص الحبوب، ثمّ يذرُونها في الهواء لتصفيتها مما علق من قشرها ـ «اَلجُوش» ـ الذي يُجمع ويُقدّم لاحقاً للدواب مبللاً بالماء، فيما تّم تخزين الحبوب بكمّيات كبيرة في أكياس مجهّزة لهذا الغرض منذ وقت مبكّر. وقد استعدّوا لهذه المهام بشكل دقيق يتوخّى الخلط بين ممتلكات وحصص الناس.

استطاعت الأمّ إقناع «اَلسّاحِليْ» بعدم ذهاب ابنته «هَدِيّةْ» للحصاد كبقيّة الفتيات، بحجّة رعاية الطفلة اليتيمة، هذا عذرها في ذلك، والحقيقة أنّها أرادت قربها لأمر في نفسها، ولم يكن والد «هَدِيّةْ» بغافل عمّا يدور برأس الأمّ، وكم كانت الغبطة تأخذ منه كلّ اتزانه، كلّما طلبت الأمّ منه شيئًا ليُلبّيه، فهو ينتظر يومًا عظيمًا في حياته سيطلّ، لكنّه لا يعلم تحديدًا متى سيكون ذلك اليوم.

وهناك سبب آخر لم يكن ليحضر بحسب ملاحظة البعض في مناقشة الأمّ مع «اَلسّاحِلي» بشأن بقائها لرعاية الطفلة، وهو عدم إعطاء «بِشَيبشْ» فرصة التحجّج بطفلته اليتيمة للبقاء، ومن ثمّ يُمكنه التخلّف عن العمل مع الرجال في الحقول، وكما أوضحت للخاصّة فهي حريصة على أن يُشارك في حصاد هذا العام؛ ليُذهب عن نفسه ذكرى موت زوجته بانهماكه معهم دون راحة؛ حيث كان خبر وفاة زوجته ودفنها دون علمه أمرًا عظيمًا نال منه الكثير، وإن بقي معهم في «اَلقَايمْ» فلن يتوقّف عن محاولات حفر القبر الذي دلّه على مكانه جمله «اَلبَارق» في مساء اليوم التالي على دفنها.

كان الصبيّ «حَمُود» لا يُغادر خدر جدّته والوقوف ملبّيًا أيّ أمر لها، وكانت هي تُدرك حاجته لاستقاء تقاليد أهله والتعرّف على أدقّ تفاصيلها، إلاّ أنّه لن يكون قادرًا على معظمها ما لم ينتقل إلى رحاب الرجال الكبار، وذلك بالختان كما يُقرّر هو، وكما تشعر هي بسؤاله الدائم عن أحقيّة المشاركة في كلّ منشط جديد، كالحصاد الذي رأوا أنّ

رجولته سُيثبتها لهم بمرابطته جوار النساء العاملات في درس السنابل، لذلك طوال أيّام الحصاد لم يتحرّك البتّة عن ملازمة جدّته، وكان يتلمّس في روحه حسّ القائد، مثل أبيه وجدّه من قبل. كانت الأمّ تتبسّم كلّما سمعته يُناكف النساء في عملهنّ، أو يُزاحمهنّ على تناول قشور البنّ الفاضلة من القهوة، و«زَهْرَةْ» تمنعه عن ذلك بدعوى أنّ «حَثْلَة» القهوة ستتراكم في خصيتيه؛ ليخاف ويمتنع عن تناولها معهنّ، وهو لصيق مجالسهنّ على الدوام، ومدرك لخداعهنّ له؛ إذ يرغبن في سلافة القهوة لوحدهنّ من دونه كما يعرف. كما كانت «زَهْرَةْ» تنهره أيضًا كلّما شعرت بوجوده يُراقبها وهي تُعلّم «هَدِيّةْ» كيفية غسل الطفلة «شَرِيفَةْ» وتنظيفها على فخذيها، وما بين حين وآخر يسرق لحظة مواتية، ليُحملق في فرج الصغيرة متعجّبًا، ويُقارن بينه وبين ذَكَره، فقد اعتاد على عملية «الفَلْخ» إذ يُخرج حشفته باستمرار من القَلَفَة كما يفعل الذكور الصغار استعدادًا ليوم الختان العظيم، وكلّما سرق نظرة على فرج الطفلة سألهنّ في ذهول واستغراب: (وكيف تِفْلَخ شَرِيفَةْ؟!)، فما لم يتصوّره أنّ فتاة تخرج حشفتها مثله من ذلك المكان دون أن يكون لها ذَكَر يتدلّى، فتصرخ الأمّ من سذاجته، وتقوم في محاولة لزرع الفزع في قلبه؛ فتطرده «هَدِيّةْ» وهي تبصق عليه، ويتوارى خلف أكمة، ثمّ يُواصل النظر إلى فخذي الجارية العاريين ومن فوقهما الرضيعة غارقة بالماء وأطرافها ليّنة حمراء كثمرة «المُصّيص» لشجرة «الغَشْوْ» التي يعبث بعرائشها المتسلّقة على عُشَش القرية طوال فصلي الربيع والصيف للحصول على تلك الثمرة السكّريّة.

كان إذا أقدم على سؤال مستهجن من الجميع يسمع الأمّ تلعن يومًا غفلت فيه عن حبله السرّي لتأخذه غجريّة راحلة، وتحمله في متاعها تيمّنًا بنسله العالي، فمن ذلك تنبّأت الأمّ بأنّ «حَمُود» سيقضي عمره باحثًا عن حبل سرّه في سُرر النساء العابرات، وتأسف على سنوات عمره المقبلات إلى أن يتبدّى منها بكاء محبوس، وكم تمنّت لو أنّ

حبل سرّه دُفن في بلادهم، شأنه شأن ذكور العصبة الذين ما رغبوا مناقص الدنيا، والذين تُحصي أيّام ولادتهم واحدًا واحدًا، ما عدا «بِشَيبشْ»، فهي لا تجرؤ أن تقصّ شيئًا عن دفن حبله السرّي في ليلة ولادته البعيدة؛ حتّى تنخرط في وجع يأسر روحها وجسدها معًا، ولا تتخفّف من ذلك الوجع القاصم إلاّ بـ: (إيييييييها)، تلك آهتها الجارحة بتحسّرها أمام كلّ من يُجالسها عندئذ، ودائمًا تُبدّد استفهامات الجميع عن آهاتها الحارقة تلك، بالتأكيد على يدهم البأس وريحهم الواحدة.

استغلّت الأمّ غياب الرجال مع النساء في الحصاد لتُرتّب مع خواصّها طهار الطفلة «شَرِيفَةْ»، فتولّت «فاطمةْ» أو «بنت الخَبْتي» المهمّة حين شحذت الشفرة وفي حركة خاطفة كشطت الجزء العلوي من بظر فرج الطفلة التي تعجّبن منها، حينما لم تصرخ متألّمة، بل زمّت شفتيها الرقيقتين وفرفرت بقدميها لتُمسكهما «بنت الخَبْتي» في اللحظة التي أمرت فيها «هَدِيّةْ» بوضع «لُقّامَةْ»، وهي كمّية من البنّ المطحون، تُكمّم بها فرج الطفلة لإيقاف النزف، وضحك النسوة عندما علمن أنّ «هَدِيّةْ» هي الأمّ التي سيظلّ الناس يستدلّون على شرف هذه الفتاة بها، فكلّما أراد شخص أن يمدح نسلها وصباها سيقول: (باقي بنت.. باقي على لُقّامَة اَمّها)، أي لم يمسسها أحد، وأنّ فرجها باق على قبضة البنّ تلك. وعندما أحاطت بـ«هَدِيّةْ» الضحكات المتواصلة علّقت الجارية «زَهْرَةْ»: (من اليوم يا هَدِيّةْ ما عاد لك قهوة)، في دعابة منها وإشارة إلى أنّ الناس باستحسان سيرة الفتاة على الدوام سيقضون على مؤونة «هَدِيّةْ» من القهوة، وأنّ بكارة «شَرِيفَةْ» ستبقى على غلقها طوال حياتها، إلاّ أنّ الأمّ قلبت على «زَهْرَةْ» الدعابة لتعلو عليها قهقهات متتابعة حين سألتها بسخرية: (وقهوة اَمّك يا زَهْرَةْ غدت كلّها في حِرْك اللّي كَأنّه دلو؟)، فزادت «فاطمة» أو «بنت الخَبْتي» من ضحكهنّ وهي تُردف على سخرية الأمّ بتعجّب: (يعني حِرْها ما عاده

على لُقّامَة امّها؟!). كان «حَمُود» غير بعيد يرقب جمع النساء المتحلّق حول سرير الطفلة، ولم يكد يقترب حتّى مُلن إلى وليمة أُعدّت بالمناسبة، فتراجع عن رغبة في إلقاء نظرة عن قرب على سبب اجتماعهنّ، لكنّه لم يُضمر كثيرًا ممّا تناهى إلى سمعه المسترق، فصرخ بصوت عال يسأل: (يا زَهْرَةْ حِرْك باقي على لُقَّامَة امّك؟)، فتغضّنت خدود الحاضرات بابتسامات محبوسة. ومن فورها قامت الجارية تُطارده، والأمّ تتحسّر من قذارة لسان حفيدها وتعود في تذكّر غفلتها عن حبله السرّي. بإكمال تناول وليمة ضحاهن تلك، قام النساء بغرس أيديهنّ في إناء كبير مملوء بالحبوب بدلاً من غسلها بالماء، إذ تلك هي عادتهنّ بعد ولائم طهار الفتيات؛ ليُعزّزن بذلك خصوبة الأرض وهباتها من الحبوب التي سيُقارعها في العطاء فرج كلّ فتاة يُطهرنها.

(٨)

كنبتة برّيّة تجرفها الرّيح دون حاضر يبكي جذورها الرطبة، ماتت تلك المرأة الضائعة في إحدى ليالي الصيف، ودُفنت في اليوم التالي، دون أن يُكشف عن جثمانها، ولم يفكّروا حتّى بالسؤال عن ذويها!.

وقد أوكلت الأمّ إلى «هَدِيّةْ» ابنة «اَلسّاحِليّ» مهمّة الاعتناء بالطفلة اليتيمة الباقية من ليلة المخاض المشهورة، بعد أن قرّرت تسميتها «شَرِيفَةْ»؛ لتظُنَّ فيها بذرة موعودة بالخلود.

وباختيارها «هَدِيّةْ اَلسّاحِليّ» لتكفل اليتيمة، كأنّما أرادت الأمّ أن تحفظ سرًّا يخصّها، وفي يديْ مَنْ اصطفتها في دخيلتها زوجة قادمة لابنها الشيخ، هذا بعد أن تأكّدت في اليوم التالي أنّ حبل اليتيمة السرّي قد دُفن على جزءين، الأوّل بدارهم الواسع في قرية «عُصيْرَةْ» بوادي «اَلحُسَيْنِي»، والجزء الآخر في مكان لا يعلمه غيرهما، كما قالت لجاريتها، والله ثالثهما، وقد قصدت بذلك أن تظلّ «شَرِيفَةْ» تقتفي حبل سرّها حيث يكون، فلا تُبارح مكان دفنه مطلقًا، وهذا ما اعتادوه حين يُقرّر كبيرهم مصير كلّ مولود بمكان دفن حبله السرّي، فالفتاة يُدفن حبلها في البيت لتبقى على عصمة الشرف تُلازمه، أمّا المواليد من الفتيان فتُدفن حبالهم خارج البيوت؛ لينالوا من صروف الزمن عند كبرهم أشدّها امتحانًا لرجولتهم وبأسهم على الحياة.

في ذلك الحين كانت «هَدِيّةْ» تقتحم بكلّ أنوثتها الربيع التاسع

عشر، أخذت من أمّها «حَسْنَةْ» مباهج الحياة التي قد يستشعرها كلّ حيّ، أمّها ذات الجمال الفائض عن حاجة رجل فقير كزوجها «اَلسّاحِليّ» هذا الرجل الذي تفوق شجاعته شجاعة عشرة رجال من القبيلة، ثمّ إنهّا كانت ابنة عمّه، وهذا ما جعله ذا حظّ عظيم، أمّها التي قضت نحبها في أوّل يوم يصل فيه نبأ قوافل شماليّة تتحرّك باتجاه نواحيهم، أي قبل شهور قليلة من وصول تلك القافلة حقًّا. هكذا بلا مقدّمات، اتّخذت «حَسْنَةْ» من عُشّتها غطاء وذهبت في غشاوة الليل نحو السماء؛ تقول الأمّ: (ربّي شَلّ جمال حَسْنَةْ بسرعة...)، وأضافت وبآهة مجرورة ومتحسّرة: (إِيييييها.. حَسْنَةْ نازلة من عند ربّنا.. واَلسّاحِليّ شَا يكره حتّى البلاد اللّي ورثتها من اَبوها.. كَاَنّها اختارت موتها في الوقت اللّي تمنّيناه كلّنا بعد هذي المصيبة اللّي اَحْنا فيها.. أَمّك يا هَدِيّةْ جات للدنيا كَاَنّها ما هي من الناس وخرجت منها كَاَنّها مَا هي منهم بالمرّة!).

كما تحكي الأمّ، لم تبك في حياتها قبل وفاة «حَسْنَةْ» إلاّ ثلاث مرّات، مرّة عندما مات والدها قبل أربعين عامًا، ومرّة ثانية حين آلت قطعة أرض من ممتلكات والدها إلى ورثة خلّوها للسبيل من الرّيح والجفاف، ومرّة ثالثة لا تذكرها وتكتفي فقط بعضّ شفتها السفلى، وتُخرج آهتها الأليمة (إِيييييها...)، ثمّ تُبدّل حكايتها بتذكّر حكاية كلب كانت تُربّيه سبق خطواتها في ليل بعيد، وهي تُطارد ذئبًا ببندقيّة انطلقت منها رصاصة لتُصيب لسان الكلب الذي أكمل حياة قصيرة بنصف لسان!

وأضافت إلى مرّات بكائها مرّة رابعة، حين ماتت «حَسْنَةْ»، وهي تحكي لـ «هَدِيّةْ» عن تلك المرّة الأخيرة، أوضحت أنّ بموت الجمال تتوقّف الحياة عند بعض الناس، فيما يُواصل الآخرون التقدّم، وتظنّ أنّ أباها «اَلسّاحِليّ» يرى عدم الجدوى في ممارسة الحياة كما تحتاج الحياة ذاتها.

وقالت لها إنّ الحياة لا تتوقّف لوحدها ولكنّها تتوقّف بفعل اليائسين، ولكي تُوضّح أكثر بيّنت لها أنّ والدها ليس قنوطًا بالقدر الذي قد يجعل القبيلة تتذمّر منه، فهو ما زال قادرًا على العطاء والعمل، لكنّه لم يعد ذاك الرجل المهتمّ بشؤونه الخاصّة، كالعناية بها كفتاة ناضجة، ممّا يعني أنّه لا يُمكن الاعتماد عليه في اختيار شريك حياتها، وقد عمدت الأمّ إلى نهاية الحديث عند جزئيّة اختيار الزوج؛ لتغرس بداخل الفتاة درايتها بهذا الشأن، وأنها ستكون الأوْلى بترتيب أمر زواجها من دون والدها، الذي يأكله فَقْدُ أمّها الآن، وإلى أن يهرم ويسأله الترابُ الرقاد الأبديّ على عظامه وحزنه البالي.

لم تُفرط «هَدِيّةْ» كثيرًا في ذكرى أمّها «حَسْنَةْ» بعد الاستماع للأمّ، فقد مرّ على ذلك الحدث شهور تكفّلت شدّة شخصيّتها، التي اكتسبتها من هذه الأمّ، بتطبيب كلّ أوجاعها سريعًا، كما لو كان الأمر لا يعنيها، فهي ليست من الناس الذين يُوقفون حياتهم عن الاستمرار، ولا حتّى من الذين يستمرّون في الحياة، إنّها الحياة بعينها إذ تصفها الأمّ معتدّة بها أيّما اعتداد، وتزخر في وصفها بالكلمات أمام من تعرف ومن لا تعرف.

وحينما كلّفتها مربّية للطفلة اليتيمة؛ فقد كانت تُوقن بأنّها أصلح امرأة في القبيلة لهذا العمل النبيل، والذي لم تقله الأمّ لأحد هو أنّ «هَدِيّةْ» ستُصلح كلّ حادثة قد تُثير زوبعة على هذه اليتيمة لاحقًا، كالشكّ في نسبها، فهي قد خُلقت في الليلة التي نفست فيها المرأتان المتوفّاتان، زوجة «بِشَيبشْ»، والمرأة الغريبة، إضافة لطفل مات في الليلة ذاتها، وبقيت هذه الطفلة التي لم يقبل بها «بِشَيبشْ» ابنة له لأنّها كانت سببًا في إزهاق روح زوجته ـ كما قال ـ وخالته «صَادِقِيّةْ» وحدها تُدرك ما لا يُدركونه بخصوص تلك المرأة الضائعة التي صار التراب وحده يتشمّم سرّها ويُفتّش في رفاتها عن رائحة حملها ذاك، ماذا كان وأيّ دفقة بذرته؟

لم تُبصر «هَدِيّةْ» الحياة الحقيقيّة إلاّ على يد الأمّ الكبيرة، إذ كانت مفصولة عن مجمل الواقع من حيث ملامسة أدقّ مكنوناته، ككائن سيعيش في مجتمع متجانس، روابطه ذات متانة واضحة، فقد كانت لا تعي العالم السحريّ الذي عاشته أمّها «حَسْنَةْ»، كالتصوّرات الخاصّة التي تشي بها هذه الأخيرة كسرّ لخالتها الأمّ، فتارة تروي أنها ستصير نجمة تُضيء لأطفال جياع، وتارة تحكي عن طيور صفراء تخرج من أعالي «ساق الغراب» وتشوي بلادهم، وقبل موتها بليلة قالت لخالتها التي كتمت قولها: (أنا شَا اَرقد في عُشّتي مع المغرب.. واَنتم شَا تهربون.. أدفنوني قبل ما تُهجّون...). هذا بعض «حَسْنَةْ» ومخاوفها المستقاة من عالم خفي، هذا غير رعشة تهزّها عند طرفي النهار مع صمت رهيب تنوء به بعيدًا، ولا تُوجد أثناءه بقرب أيّ شخص حتّى ابنتها «هَدِيّةْ» التي لقيت الرعاية الكاملة منذ طفولتها على يد خادمات الأمّ.

لم تكن ملاصقة «هَدِيّةْ» للأمّ محض صدفة، أو نتيجة للأحداث التي تعيشها العشائر بوادي «اَلحُسَيْنِي» والسهول التي تليه غربًا وجنوبًا، بل كان قربها من الأمّ نتيجة انفصال ويُتم مبكريْن عن حياة أمّها الراحلة، وهذا ما قدّرت له الأمّ وتمنّته منذ سنوات خلت، وها هي الآن فرحة بما وصلت إليه وما حقّقته من خططها عبر هذا الزمن، فإضافة لقبضتها القادرة على توجيه ابنها وعشائره في الطريق السليم، فقد اطمأنّت كثيرًا لأنّها وجدت في «هَدِيّةْ» تلك المرأة الحلم، والقادرة على خلافتها في رفعة ذات جلال، ما فتحت أذرعها لغيرها، ولا تكشّفت عن أسرارها إلاّ لها، وهي ماضية في تحصينها من كلّ معوّقات الحياة وشرورها التي بدأت ملامحها السيّئة في الظهور، مع الدعاء بأن يهبها الله مددًا من العمر لم يحظ به شخص غيرها من قبل.

بقيت «هَدِيّةْ» بجوار الأمّ طوال الصيف، لا تُفارقها إلاّ عند الوقوف على أمور الطفلة، أو عند انفراد الرجال الكبار بالأمّ لأخذ مشورتها في بعض الأمور المهمّة.

(٩)

عندما اختلف الرجال على أماكن تخزين الحبوب بعد أن عرف كلّ منهم حصّته، إذ صعب جمعها بطريقتهم المعتادة وذلك برصّ أكياس الحبوب على خشب الدوم لتُشكّل مخزن «اَلدِّمِيم»، وكانوا يخشون السرقة كونهم في العراء، فهم لم يُقيموا حواجز تُشبه قواطع منازلهم في القرية حتّى تحجب المخازن عن الرؤية، كما يخافون نهبها من قبل الغزاة لو وصلوا لمكان نزوحهم وتركوها غنائم سانحة لسلبهم، وعندما لم يجدوا حلاًّ مقنعًا لكافّة أعيانهم، أعلن شيخ شملهم عبارته المعروفة كلّما اختلفوا في أمرهم: (الحلّ عند صَادِقِيَّةْ. . .)، فمتى شقّ عليهم الأمر قرّروا أنّ خلاصهم بيد الأمّ.

في المساء كان نفر من الرجال هم خاصّة الشيخ ينتظرون غير بعيد عن مقرّ العجوز، وبعد لحظات استدعت بعضهم بالاسم، ثمّ اكتفت من الخاصّة بثلاثة فقط وغادر البقيّة؛ ليُشكّل الثلاثة المصطفون نصف دائرة حول مجلسها الذي ضمّ أيضًا ابنها الشيخ وحفيدها «حَمُود»، وراح الجمع يتلقّى ـ في سريّة تامّة أرادتها عن قصد ـ خُطّة التخزين التي رأت جدواها في ظلّ هذه الظروف الراهنة.

«اَلسّاحِليّ» و«بِشَيبشْ» و«بن شامي»، مع الشيخ وابنه، وحدهم كانوا بالغي نظرتها الثاقبة ووحدهم الأجدر بثقتها.

ـ (لَمَه هَاذُولا الثلاثة بس من رجال باسلين تختارهم العجوز؟!).

تتساءل «عَلِيّةْ هادي» عن سرّ اختيار هؤلاء الثلاثة فقط، هذا السؤال مُوجّه اعتباطًا لـ «هَدِيّةْ» المقرّبة من العجوز والقادرة على الإجابة في معتقد السائلة التي تبرّمت كثيرًا عندما اكتفت «هَدِيّةْ» بهزّ كتفيها نافية علمها بأيّ شيء.

وقد ثار تعجّب الجميع بشكل واضح من اختيار الفتى لذلك الأمر، هذا الفتى الذي يلقى اهتمامًا مبالغًا فيه كما يرى عمّه «سُبَيعْ» عندما قال بنبرة محتجّة: (جاهل ما يغسل طيزه من خراها وتِسْتِسِرّ عليه هذي العجوز وأَحْنا رجال تستصغرنا!)، قال ذلك في غيظ واضح لأنّ أمّه لم تختره كرجل أشدّ على المهمّات الصعبة، فهي تعتمد من دونه حتّى على طفل ما زال يجهل كيفيّة غسل مؤخّرته، وكان في قوله عزاء لأخته بالوصاية «عَلِيّةْ» التي تفاجأت بحضوره خارج العريش، وهو أيضًا في حيرتها ذاتها من هذا الاجتماع المغلق.

إنّ كلّ واحد من الرجال الثلاثة محفوف بخاصّيّة تُحبّذها الأمّ، وتدفعها بالتالي للاعتماد عليهم فيما قرّرت من أمر، حتّى لحظتهم التي ولّت، لا يعرفون كنهه، أمّا ابنها فهو كبير القوم ولا بدّ من وجوده في جميع الأحوال، ولكن بماذا يُمكن تبرير اختيار الصغير «حَمُود»؟!، هذا سؤال كرّره «سُبَيعْ» مع «عَلِيّةْ» رغبة في إجابة مقنعة، وليس لهما قدرة على معرفة شيء ممّا نَوَته الأمّ.

وقد قرّبت الأمّ «اَلسّاحِليّ» من هذا السرّ ليزيد في نفسه فخرًا باصطفائها له، وبذلك سينال منه المنّ أمامها، وسيزيد فضلها عليه، ولن يكون رافضًا لأيّ طلب تُريده، وابنها هو شيخ الشمل ولن يذكر لأحد شيئًا، وحفيدها غرّ ولن يتذكّر بعد سنة واحدة فقط أيّ شيء، فيما «بِشَيبشْ» هو مستودع سرّها المكين. أمّا «بن شامي» فرجل معتلّ وعيونها الأمينة لا تُفارقه، وهو لا يعي كثيرًا ما يحصل حوله، وكانت كلّما صمتت تداخل بقوله: (يا فاطمةْ قولي لهم انّي تعيشقت لمية

صُبيّةْ)، فلا يلقون له بالاً، فحضوره من قبيل رفع روحه عن أيّ حرج قد يشعر به إذا ما علم أنّ الأمّ عقدت اجتماعًا دون دعوته، فهو مازال قويًّا ويُعتمد عليه، كما يحكي للجميع، وكانت الأمّ تحرص على تواجده المستمرّ لديها؛ ليتوقّف عن مطالبتهم الدائمة بأن يُوكلوا إليه أيّ عمل لا يُنجزه سوى شجاع مثله ومثل أخته «فاطمةْ» أو «بنت الخَبْتي»، رغم أنّه حتّى اللحظة لم يطّلع على سبب نزوحهم من القرية، ويقرّ في رضا صامت كلّما ألزمته أخته السرير ونهرت محاولاته المتكرّرة لمخالطة الآخرين.



(١٠)

كاد ينقضي على بقائهم قبالة منابت الجبال عام تقريبًا، وقد تمكّنوا أثناءه من إنهاء كافّة الأعمال المتعلّقة بحصاد الموسم، ممّا جعلهم في طمأنينة على وضعهم في الشهور القادمة، لاسيّما وأنّ القوّات العابرة راحت ببغيتها المجهولة إلى أبعد ممّا توقّعوا، فقد سمعوا أنّها تجاوزت في ذهابها حدود المنطقة مع شمال اليمن، في هذه الأثناء تحقّقت لمكانهم خاصِّيّة السلام؛ ليُبرّر بقاؤهم نازحين لمدّة تُقارب العام، ولولا احتجاج بعض الرجال وفي مقدّمتهم «الهبّاش» الذي يقدح صدورهم ليل نهار بصراخ مرير يلعن به زمنًا صار فيه أعمى وعاجزًا عن مطاردة الغزاة والنيل منهم أنّى يثقّفهم، فلولا ذلك الاحتجاج لتناسوا شيئًا فشيئًا مصابهم الحال، على الأقلّ أثناء إقامتهم تلك.

هذا التذمّر المستمرّ ربما كان وسيلة لاختصار وقت محنتهم، وحتّى يبقوا شائكي الحياة التي أُرغموا عليها بمحض إرادتهم، أملاً في إياب عاجل يردّ لهم أرواحهم بملامسة وادي «اَلحُسَيْنِي»، فما فتئ شيخهم يحثّ فيهم دماء أجداده الحارّة، ويُعدّ أرواحهم ليوم عريض العذاب لمن مسّوا بلاده بسوء.

وبفضل ذلك السلام المؤقّت استطاعت الأمّ أن تُخرجهم من لهب عمهم قليلاً، وذلك عندما أعلنت في مجلسها موعد زواج ابنها الشيخ بـ«هَدِيّةْ اَلسّاحِليْ»، حيث قرّرت أن يكون اليوم الأخير في حصادهم هو

أوّل أيّام عرسهم الكبير، مقرنة بذلك عرس حصادهم الذي يُقيمونه في نهاية الموسم عادة، مع عرس شيخهم، في حفل واحد.

كما جرت العادة في هذه المناسبات، في غضون يومين كان إنجاز أعمال عرسهم كافّة على قدم وساق، واكتمل نصاب فرحهم بوليمة كبيرة، وحفل بهيج بدأ من عصر الليلة المحدّدة لدخول الزوج على زوجته، الشيخ الكبير على الفتاة الأولى بين العشائر، التي ما كان لأحد أن يحلم بمضاجعتها قرينة لحياة فاتنة، فهي فوق مستوى التمنّي الذي يُساور أيّ رجل، وخالصة لسيّد القوم دون سواه.

كانت خصور النساء تتلاصق بخصور الرجال في رقصة «اَلصّف» وتتمايل كأعناق دوال في نسيم المساء، و«اَلمِزَلّفين» ينهبون مهج النساء بحبال النشوة، ويعصفون في مضمار الرقص بكلّ ساكن، فلا يتوقّفون عن ضرب الدفوف بأصابع كرؤوس عِصيّ صغيرة، وبتحريض على السعادة من الأمّ انتصفت جاريتان حلقة الرقص متقابلتين؛ لإيقاد فتيل الزغاريد التي من شأنها إغاظة العصافير في ذلك المساء الخلاّب بأجساد النساء اللاّتي يحكن رهانات صغيرة، وأيُّهنّ أكثر قدرة على إثارة الانتباه نحوها، وشرعت الجاريتان في رقصة «اَلوِرْك» على نحو يُثير الغيرة بأكباد الأخريات، إذ تسابقتا في إظهار مفاتن جسديهما على نحو بليغ الحسرة في عيون نساء لا يُجِدن غير الانضمام مع الرجال في الصف، وقد غرستا أشواك البهجة في الأفئدة من حولهما، وهما تهزّان وسطيهما في اتّجاه واحد وبفتنة تُتقن الإبهار، وقد تشابكت أيدي النساء والرجال في نسيج سعيد، حيث تراصّت الأكتاف في صفّ طويل يزهو بألوان زينتهم جميعًا، وبأرواح مهتاجة لا يُوقفها عن التحليق مع غناء الأمّ شيء، ثمّ تناسل الرجال وبعض النساء من انتظامهم؛ ليخلو الميدان لفتيات انخرطن في لعبة «اَلغُنْجِي»، حيث يتقدّمن ثلاث ورُباع يرفعن ويخفضن صدورهنّ ويكدن يلتصقن بالأرض حين يقتربن من ضارب الدفّ الرئيس، ثمّ يعدن في حركة متناغمة لها جلجلة حليهنّ وصهيل

غنائهنّ، وكان الرجال غير بعيد يتربّصون بكلّ غبطة سانحة يبعثها منظرهنّ البديع، وبرصاص بنادقهم يشقّون زرقة السماء صخبًا، ويُعلنون من جانبهم الرغبة في إظهار فتنتهم هم أيضًا، فيميل ضاربو الدفوف إلى ناحيتهم بعد أن فاض الفرح عن حاجة النّساء، ملبّين للرجال نهمهم في النهل من ذلك الفرح الوافر إلى أن يحين الغروب، حيث قضوا ساعة في رقصة «اَلعَرْضَةْ»، إذ تضرب أقدامهم الأرض ثلاث مرّات وخطوة رابعة يرفعونها في لحظة واحدة بحركة متّسقة، وبدوا على بريق أُزَرِهم الغنّاء بألوانها كأنمّا هم نظم من المرجان يُوالي درره في مقطوعات متساوية، لا تسبق الواحدة منها الأخرى.

وكانت «عَلِيّةْ هادي» قد مالت إلى ركن العروس «هَدِيّةْ» التي دمشقوا لها مرتقى يليق ببهرجة أيادي السماء والأرض، إذ اشتركت معًا، في زينتها الفريدة، فأنشدتها كأخت نصوح بأن لا تحبّ الزوج فهو سيهب لها من العشرة ساعة ويتركها، لأنّه ابن أمّه ـ في إشارة إلى أنّه ابن مدلّل ـ، وأخبرتها أنّها إن ضُربت فإنّ الفعل سيكون من الزوج، لكنّ الوشاية التي سبقت فعل الضرب أتت من الأمّ.

أشعلت «عَلِيّةْ» ضحك النساء المحيطات بعرش العروس المبتسمة من تلك النصيحة، وقد أمرتها الأمّ بأن تُعيدها على مسمع بعض الرجال، فأنشدتها مرّة أُخرى تقول:

(يا خَيْتِي لا تِعْشِقين الزوج..
يَهبْ سُوَيْعةْ في طريقكْ ويعود..
يا خَيْتِي لا تِعْشِقين اَبْنَ اَمُّهْ
اَلدّبْج مِنُّه والمِحَارَشْ من اَمُّهْ)

فارتجّ قاع «اَلقَايمْ» بضحكات متواصلة، وسارعت النساء الكبيرات بالابتعاد عن العروس لتخصّ محيطها بالفتيات الأبكار اللاتي يتسابقن إلى جوارها بهدف أن ينلن منها تمنّيها لإحداهنّ: (عسى اَمْشُعْرِي ينْفرّ عليك)، قاصدة بذلك أن يزورها طائر «اَلشّعْرِي» ناقل البشرى بفارسها

المنتظر، وكعادة «عَلِيّةْ هادي» لم تُفارق «هَدِيّةْ اَلسّاحِليْ» واصطفّت مع الفتيات أمام العروس، مضيفة إلى عرسهم الدعابة الحاضرة، فقد سألتها أن تدعو ذلك الطائر لزيارتها رغم أنها متزوّجة؛ بدعوى حاجتها لتجديد زوجها الهرم.

بحلول باكورة الليل كانت الأمّ قد قرّرت الاكتفاء بيوم واحد هو مدّة فرحهم، وبذلك لن يسعهم مواصلة الرقص ليلاً كما هي عادتهم في بلادهم، فقضوا ليلهم يتسامرون في مجلسها. ثمّ قُدّم الطعام واحتوت المائدة آنية الفخّار «الحَوَاسِي»؛ تحقيقًا لرغبة «الهبّاش» في تناول «المِفَحَسْ» وهو خبز مفتوت ومرشوش بالمرق، وراح يُنادي الجواري أن يُقرّبن منه مرّة «المِفَالتْ» المكوّن بخبز حال مفتوت مع الحليب، ومرّة أواني «المَغَاش» وفيها لحم بالمرق وما تيسّر من الخضار، كما قُرّب له اللحم «الحَنِيذْ» وهو يُسقّط في التنانير مباشرة على الفحم، وهذا النوع من الطبخ يُحبّذه «الهبّاش» إذ سبقهم يزدرده وهو مهموم بالحرب وبمناداة أصحابه القدامى أن يعودوا فلا يتركونه وحيدًا أعمى! وكانت «عَلِيّةْ هادي» تبتسم عند سماعه وتُخبر الأمّ بأنّ هذا الموسم عملت معهم امرأة من الشقّ اليمانيّ وحكت لهم أنّ «قوم الذُّلُول» دخلوا على امرأة عجوز وهي تطحن حبوبها ولها دجاج كثير ينتشر في باحة دارها فتركوا جمالهم تأكل طحينها وغاروا على الدجاج، فكانوا يُمسكون الدجاجة ويُلقون بها في التنّور بريشها ودون ذبحها، حتّى أهلكوا كامل الدجاج بتلك الطريقة وأكلوا منه ما أكلوا، والعجوز تلوذ في أحد الأركان خوفًا، وعندما انصرفوا صرخت في الناحية: (واااااو يا دجاج ولدي.. وااااو يا دجاج ولدي)، وهرع الناس إليها فوجدوها تُولول وتبكي على دجاج ابنها الذي حصدوه جميعه، والمضحك في الأمر أنّها كانت تأكل من الدجاج وهي تُواصل صراخها: (واااااو يا دجاج ولدي.. واااااو يا دجاج ولدي)، وهذا ما تراه «عَلِيّةْ» في «الهبّاش» فهو لا يُفوّت على نفسه لذّة الأكل بينما لا يتوقّف عن الندب

وتذكّر رفاقه الشجعان، وقد واصل أكله برغم الضحك الذي انتشر في «اَلقَايمْ» عليه وعلى تلك السيّدة.

بعد عشائهم كانت الأمّ تستمع لحديث يدور بين ابنها العريس وبين بعض من رجاله، إذ كانوا يُحاصرونه بسؤال عن قدراته الفذّة، في تعريض مباشر بحماسه الجنسي، ومدى استعداده للدخول على بنت «اَلسّاحِليّ» وهو لم يعد يملك من قوّته السابقة شيئًا، ولمست من ضحكاتهم معاضدة له في المهمّة التي تنتظره هذه الليلة.

ولأنّ من المنقصة التي تلحق بالرجل أن يحلّ أوّل فجر يلي ليلة زواجه وهو ما زال لصق زوجه، بل عليه أن يكون في الحقول قبل طلوع الشمس، مؤكّدًا رجولته بعد أن تمكّن من الثمرة البكر، وقدرته على العمل بعد ليل حافل، فقد ذكر «الهبّاش» مداعبًا أنّ الشمس ستُشرق وهو في حضن عروسه، ممّا زاد من ضحك الجميع، لأنّ من شأن ذلك أن يُوسمه بخسّة بينهم، فأوقف الشيخ ضحكهم باللازمة: (اَبْن عُصيْرَةْ)، هذا حين قال له «الهبّاش»: (يمكن تِنَوّر واَنتَ في حِبْهَا...).

بترت عبارة «اَبْن عُصيْرَةْ» ضحكهم، وعادوا لقراءة أُنس شيخهم مجدّدًا، والأمّ غير بعيدة تُبادلهم الحديث بحدّة أقلّ ممّا هو الحال في العادة، خاصّة كلّما شكّك أحدهم بصلابة ذَكَر ابنها، أو أراد أن ينال من ذلك شيئًا ولو للتسلية بينهم، وفضّلت عدم المداخلة لتتلمّس أيّ منعطف سيصلون إليه بنهاية ما يخوضون فيه.

واستغلت «عَلِيّةْ» هذا الجوّ الحميم، وسألت الشيخ بضحكة خبيثة: (يا شيخ عيسى ذا الحين النسا كثير.. مِنهُن اللّي مطلّقة واللّي مرمّلة وباقي فِيهُن الروح اللّي تِشاها، لكنّك يا شيخ ما تتزوّج اِلاّ صبيّة بِكر.. لَمه؟)، واستنفر الجميع لسماع الإجابة عن سؤال وقع في محلّه تمامًا، إذا ما استعرضوا جميع زيجاته، فهو لا يقترن إلاّ ببِكر، وبنت «اَلسّاحِليّ» هي الزوجة الرابعة، ولم يسبق لأحد أن سأله هذا السؤال

الذي مثّله بين أيديهم متّهمًا، وعليه أن يصنع معجزة للخلاص.

لم يتوان عن مشاركتهم الضحك على ملمح «عَلِيّةْ» الفكاهي، واستوى في مجلسه، وتحت ظلّ ترقّب أمّه، أجاب مداعبًا السائلة: (يا اَمّ الفضايح.. لو تزوّجت مطلّقة أو مرمّلة وإن كانت الواحدة منهنّ في آخر قوّتها، وبتّ معها، فما اَخلّص من ملامستها اِلاّ وأنا خاجل، ووجهي ما يقابلها.. يكون في نفسي سؤال لها: أيّهم أحسن أنا واِلاّ زوجها اللّي سبقني؟.. أخاف يكون حقّ ذاك اَكبر من حقّي.. وأكمل ليلي في حيرة، لكن لو تزوّجت بكر فأنا اَبيت مرتاح لأنّها تحسب اللّي معي هو مثل اللّي مع بقيّة الرجال، فالبكر ما تعرف انّه يُمكن رجل غيري عنده اَكبر منّي... فهمتِ يا اَمّ الفضايح ذا الحين لَمَه اَتزوّج بكر دايم؟)، والرضا يُتمّم ليلهم السامر عادوا إلى ضحكهم مجلّلين بدهشة من إجابته تلك.

كان الصبيّ «حَمُود» يحضر مجلسهم، ولا يتوقّف عن عمليّة «الفَلّخ» فيستعرض أمام الرجال والنساء الكبيرات حجم ذَكَره، ليحضّوا في داخله حماسًا كبيرًا إلى يومه الموعود حين يرتقي بالختان إلى مصافّ المقاتلين الشجعان، وقد كان يستوعب ما يُقال ولا يتحرّجون كثيرًا من بقائه بينهم، إلاّ أنّ الأمّ هذه المرّة نهرتهم قائلة: (الجرّة تحتها حَصمُول)، ممّا أثار حنق الصبيّ، إذ سألتهم الحذر في حديثهم لوجوده بينهم، فالجرّة لا تُكبّ على وجهها للشرب وتحتها حصى وإلاّ ستنكسر، وأحاديثهم بمثابة الجرّة وهو حبّة الحصى، فراح يسخط من صغره وأنّه أقلّهم شأنًا في الرجولة، وفكّر في أنّه ليس أهلاً لأن ينال من امرأة بكر كما سيفعل والده الليلة، وأيقن أنّه لن يكون رجلاً إلاّ بالختان فقط، وبعيدًا عنهم، أكمل في سهوه صور ذلك اليوم الشهير الذي سيكون فيه رجلاً كاملاً.

وعذوبة الليل تذهب بهم إلى ذكريات قديمة، قامت الأمّ بمساعدة جاريتها الخاصّة «زَهْرَةْ» متوجّهتين لمخدع العروس، فقابلتا عند

المدخل والد العروس خارجًا من هناك بعد أن أوصى ابنته قائلاً: (أحْفِظِي بيت اَبوك. . .)، ويعني أنّ عليها الممانعة من مضاجعة زوجها؛ لكيلا يتمكّن من بكارتها، فتمكّن الشيخ منها هو أدعى لقول الناس إنّها فتاة سهلة، وراغبة حدّ اللهفة؛ لبسط جسدها من تحته في أوّل ليلة، ممّا سيعيبها وأهلها بين القبائل.

أكملت الأمّ وجاريتها الدخول، وهما تعرفان أيّ مهمّة قام بها والد العروس قبلهما، وتلمّست الأمّ بأصابعها زينتها لتتأكّد من جهوزيّتها، ثمّ راحت تُوصيها بما تفعله هذه الليلة في سرير زوجها، حيث قالت لها: (بعدما تاخذين حقّ اَلوِزْرَةْ، تقرّبي منه ولا تُحطّين يدك عليه، هو يعرف الباقي، وإذا حطّيت راسك لا تُحطّينه على جنب، كوني تحته، وجهك بوجهه، ومن تحتك شرشف أبيض، ورجليك تكون على فخوذه، وحسّك يكون معك. . .)، فبعد أن تأخذ مقابل رفع ثوبها عن فرجها، كما جرى عرفهم في ليلة الدخلة، أوصتها بأن لا تلمسه، وعليها الاقتراب منه، وأن تنام على ظهرها ناظرة إليه مستوية لحرثه، بفتح قدميها على فخذيه، ويلزم قبل ذلك أن يكون تحت وسطها شرشف أبيض، ليُنشر في اليوم التالي على الدخلة دماء بكارتها أمام النساء، مثبتًا للجميع أنّ الشيخ تزوّجها، وأنّها بنت رجال حقًّا، ثمّ حين انتهت الأمّ من توجيهاتها أخبرتها بأنّ «زَهْرَةْ» ستحمل الطفلة شَرِيفَةْ، وتبيت خارج مخدعهما الذي سينتقلان إليه، منتظرة خروج الشيخ لتُعالج أمرًا ما.

وسمع كلّ السامرين في «اَلقَايِمْ» غناء «زَهْرَةْ» مؤذنًا بانتقال العروس لبيت زوجها، وهي تتمنّى لأهلها السلوى إثر نقولها الذي كان يلزم أن يمض على زواجها وقت طويل لحلوله، إلاّ أنّ ظرفهم القائم دفعهم لإقامة مناسبة «النّقُول» في ليلة الزواج ذاتها، إذ غنّت «زَهْرَةْ» على لسان العروس أنّ برواحها لبيت زوجها ستخلفها في أهلها العافية، كخلفة العطاء الخصب في العيش، وزهرة المطر على قلب زارع بلادها. فرّت

أرواحهم إلى ليل وادي «اَلحُسَيْنِي»، الخالي من تلك الساعة السعيدة، والمغنيّة تشحن فيهم بارود الشجن بنشيدها:

(لا قِدِيني مِرَوّحْ خَلْفَني اَلعَوَافِي
خِلفَةَ اَلغيث والمطر على مِسَاقِي بلادي)

ومن بيت أبيها إلى عريشها الجديد، المشيّد بسواعد النساء والرجال معًا في ساعات قليلة، كان الشيخ يتقدّم أمامها ساحبًا قبل خطواتها لِحافًا لتنظيف طريقها، ويجنح لتلبية كلّ أمر منها، فإذا توقّفت ـ كما هو عرفهم ـ فعليه الإسراع بسؤالها عن طلبها، وحتّى لا تتوقّف عن إكمال الطريق نحو منزله، وبقاءً منها على نجابتها وحصافة عقلها لم تتوقّف البتّة إلاّ قبل الدخول بخطوة واحدة، فراعهم ما فعلت، إلاّ أنّ الأمّ أمرتهم أن ينظروا في طلبها، فالعروس لا تتوقّف إلاّ ليُحقّق لها العريس ما تُريد أو تعود لبيت أبيها، وما انتهت دقيقة على حيرتهم حتّى سألت «هَدِيّةْ» الشيخ: (يا عيسى.. أسألك بالله ما اَحد ياَذي شَرِيفَةْ طال ما بِقيت وبِقيْ رجل في عُصيْرَةْ)، فطوّح الشيخ من فوره باللحاف وصرخ فخرًا: (والله ما عاد لي زوجة بعدك، فكلهنّ ما راح يصلون لقدرك يا هَدِيّةْ، ويحترق وادينا كلّه وشَرِيفَةْ ما يمسّها سوءْ...)، وهرول يحمل الطفلة من حضن «زَهْرَةْ»، ويضعها على سرير نومه مع زوجه؛ مقدّرًا لـ «هَدِيّةْ» روحها الفريدة في الحنان والعطف، إذ لم تطلب لنفسها أيّ مطلب ليُؤكّد كرمه لها، كما يفعل معشر البنات قبل الدخول إلى بيت أزواجهنّ أول مرّة؛ وإنّما أجَلّت فوق ذلك مكانة الطفلة اليتيمة وحقّها في حياة هانئة طوال عمرها وألاّ يمسسها سوء. ونالت من قلوبهم خاطفًا للحزن والأسى على حال «بِشَيبِشْ» الحاضر بصمته الغائب كمدًا على زوجته، وأكبروا جميعهم ما هي فيه من نبل وإحسان وأنّها أهل لثقة الأمّ حين اختارتها راعية للطفلة وأمًّا لها.

وحين دخلت العريش سارعت «عَلِيّةْ هادي» بترتيب مجلس العروس كما جرت عادتهم، والفوانيس تُقاطر ضوءها على وجوه النساء

في العريش أجلسنها على السرير وخلعن لها حذاءها ووضعن من تحتها إناء الحبوب، ومرّرن على قدميها وبين أصابعها حبّات الذرة، ومسحن بها على ساقيها، ثم غسلن قدميها ورششن عليها شيئًا من العطر؛ آملين خصوبة مقدمها على بيت زوجها؛ أن يجود رحمها بالبنين جودَ الأرض بتلك الحبوب الغالية، ورافعين قدرها بأعزّ ما يملكون من القوت والطّيب، وذلك أدقّ ما جرت عليه عادة أهل العريس ترحيبًا بعروسه في قرى «المِخْلاَف».

حين انقضت طراوة الليل، وحلّ وابل نصفه الثاني، وقبل أن ينفرط نسيج جمعهم فرّ من صدر الأمّ نحيب صغير: (شَلّني وشَلّيته.. ومن اَمْبّرد دفّيته.. وخذوْه عَليّه)، فشاعت في أرواحهم غيرة المرأة من المرأة، هذا وهي الأمّ التي تخاف على ابنها من أن تخطفه الزوجة، وهي الأمّ التي تقود وادي السادة الكبار، وادي «اَلحُسَيْنِي»!، إذ عاشا في ضفيرة واحدة مجدولة من الفرح والقرح على السواء، فيحملها عن كمد الحياة وتحمله، وهي مَدّه من الأمان على الدوام، ثمّ تراهم يأخذونه منها!. عندما فاض جسدها بانكسارها ذاك، انتفض الشيخ «عيسى» منكبًّا على ركبتيه مقسمًا: (والله لو اَنّهُنّ من عدن حتّى القدس، وصلاتهن على الماء لرضاي.. ما اَبدّل ظِلّلك يا صَادِقِيّةْ وحلقي يجرع الماء)، وبذلك أرخى من شدّة اللحظة عليهم، ولم تكن هي بحاجة لقسمه بأنّ النساء مهما صدقن في صلاتهنّ طمعاً في رضاه، ولو كنّ يصلين معروشات على سطح الماء، ولا يغرقن، أو حتى يبتللن؛ من عظمة إيمانهنّ، فهو لن يستبدل مأواه في كنفها متحوّلاً إلى فراشهنّ؛ بل سيبقى على عهدهما ما بقي حيًّا، فأضاء بداخلها سريرة السيّدة الأولى وانطفأت منها تلك الأنثى التي هزّت فيه الرجل؛ ثمّ امتدّ جذعه عاليًا يُلاصق جذعها على مشهد من الجميع، ليحسم منها خوفًا خاطفًا.

لم يبقَ عناقهما طويلاً حتّى غلب الحضور خجل من اتساع الليل

فيُفضّلوا البقاء أكثر، لذا آثروا إيقاف السامر حين تحلّل شيخهم من ثقل عتاب أمّه، واتجه لمبيته الجديد. وقضت الجارية بقيّة الليل تدور حول عُشّة العروسين في ارتياب وخشية يمضّان قلب الأمّ قبلها، وما فتئت بوادر الفجر تتناسل من بين الجبال حتّى تهادى شبح الشيخ أمام نظر الجارية، وغمره الغبش متّجهًا غربًا حيث يطرق درب بلاده «اَلحُسَيْنِي»، فاتحًا هناك يومًا جديدًا قبل النهار.

لم تتمكّن الشمس من مقارعة رؤوس الجبال إلاّ وشهادة البكارة رطبة بالدماء معلّقة أمام النساء اللاّتي توافدن على عُشّة الأمّ، وقد تعالت زغاريدهنّ صباحًا، يُعلنّ بها تمام الزواج، في غياب العروس التي لم تُبارح العريش بحجّة رعايتها الطفلة اليتيمة «شَرِيفَةْ».

لم يسأل أحد عن الشيخ، إلاّ أنّ الأمّ ظهرًا، وبما تُحيط به من علم، وجّهت «بِشَيبشْ» وحفيدها «حَمُود» بالاستطلاع والعودة بما يُخفّف من قلقهم عليه. وما كاد النهار يسحب آخر فيضه الذهبي من على الجبال المقابلة، حتّى أقبل الرسولان برفقة الغائب وقد تعفّر كامل جسده بالتراب، في دلالة واضحة أنّه قضى يومًا أليمًا، وظنّ النّاس أنّه ما زال يُواجه جيوش شجاعته وأسلحة مهابته بشيء من الحسرة وهو يترك بلاده ويتخلّى عنها بسبب غزاة أغراب، لكنّ الأمّ وزوجه، والجارية التي أصبحت تعرج! هؤلاء الثلاث وحدهنّ يعرفن أيّ ليل قضاه البارحة وأيّ نهار خلا عليه اليوم؛ ليُمسي رثّ الجسد والقلب، ممّا زجر الجميع عن ممازحته في شأن مطارحته زوجه بكرًا، فضلاً عن معرفتهم بأمر الدماء التي نشرت خبر تمكّنه من بنت «اَلسّاحِليّ» ليلة البارحة.

وعندما وجدوا شيخهم بذلك الحال انقلبوا عنه لمتابعة «بن شامي» وهو يُمسك بجزء إزاره وعند حجره تمامًا، كما لو أنّه يقبض على ذَكره، وكان يهزّه أمام الجارية «زَهْرَةْ» التي تتوجّع من «كُوْن» أصاب قدمها فجرًا. هذا ويد أخته «فاطمةْ» تُضمّد الجرح بعد أن طبّبته بورق

شجرة «اَلسّلَعْ» اللّزج وتتعجّب قائلة لـ «زَهْرَةْ»: (جرحك هذا كأنّه فعل فاعل!)، ولا تجد تعليقًا من الجارية غير التأوّه بحرقة. «بن شامي» ـ الذي لا يُغادر جوار أخته ـ كان يصله ما يدور، ولا يسمع من الجارية سوى أنّاتها، ممّا دفع هواه لاكتساب الفرصة المواتية لحظتئذ، ليُمازحها بقوله: (زَهْرَةْ لو اَنتِ قَرّيت البارح ما كان لحقك باس)، فتنسى ألمها وتتقاسم مع الجميع الضحك على تعريضه بأنّها باتت تتمنّع على عشيقها ولو أنّها استوت لرغبته ليلة البارحة لما صار ذلك «الكُوْن» بقدمها والذي شكّكت «فاطمةْ» في سببه. كان لا يتوقّف عن التلويح بجزء إزاره أمام الجارية، إلى أن اقترب بجسده الراعش أكثر، يصيخ لصوت تأوّهها، وعندما أوشك على جذبها فرّت تلوي حول خدر الأمّ بقدم واحدة، خشية أن يتلمّس مؤخّرتها، كما يفعل كلّما غافلها، وخَلَفَه في هذه الفعلة الصبي «حَمُود» الذي لا يتوانى عن رفع إزارها كاشفًا عن عورتها. لم يتوقّف «بن شامي» عن مطاردتها، وسؤالها أن تقرّ، ويُطمئنها بأنّ عضوه لا يجرح، إذ كان يُكرّر بصوت عال: (يا زَهْرَةْ هذا ما يكَوّنْ)، فضجّ القاع على منظرهما بضحك عال كان للشيخ نصيب منه رغم غمّه الواضح، فقد رأوا فيه فحل الماعز وهو يُحاول مواقعة إناثه. ولم ينقطع ذلك الضحك إلاّ عندما تدخّلت «بنت الخَبْتي» وأوقفت «بن شامي»، ثمّ ربطته إلى جسدها حين اقتربت من مجلس الأمّ لقضاء أوّل الليل في مسامرتها ولن تنسى أن تُحصي لهم عاشقاته بأسمائهنّ كما يسألها أمامهم؛ معرّجًا على حكايته مع «النبّاش» ويطلب منهم ألاّ يحرسوا قبره، فهو سيدافع عن نفسه ببندقيّته «شَارِقْ».

فحولة إلى حين



(١)

في صباح أحد أيّام السنوات اللاحقة على عودتهم من الجبال إثر «الهَرْبَةْ»، بلا اكتراث جذب «بِشَيِيشْ» بندقيّته من الأرض، بعد أن سحبها منه الصبيّ «حَمُود» وطوّح بها تحدّيًا أمامه وعلى مشهد من النّاس!

في ذلك الصباح رفع «بِشَيِيشْ» بندقيّته وهو يُقسم ألاّ يُبارح بيته إلاّ ميُمّمًا وجهة لا إياب منها، وأضمروا في نفوسهم أنّ هذه الوجهة لن تكون غير الموت الذي سأل مقدمه كثيرًا منذ زمن مضى على وفاة زوجته.

علّق «حَمُود»، وهو يسمع عزمه على عزلة تتبعها هجرة لا رجعة عنها، قائلاً: (والله لا بكت عليك السُّلعِيَةْ)، وبذلك زاد من تهكّمه على «بِشَيِيشْ» أمام الحاضرين، إذ قلّل من مكانته بينهم، فأمر هجرته لا يهمّ أحدًا؛ لقلّة شأنه بينهم، فـ «السُّلعِيَةْ» جُنِيّة تبكي رحيل العظماء فقط ولن تبكيه أبدًا، وهذا ما يُؤكّد هوانه على رأي «حَمُود».

أقدم على قسمه ذاك إثر المشادّة الكلاميّة التي كادت أن تترك عواقب لا تُحمد، بينه وبين الفتى، إذ ثار خلاف بينهما على أحقِّيّة قطعة الأرض الآيلة له من خالته ـ الأمّ ـ، وكان «حَمُود» يرى أنّه استغلّ كِبرَ جدّته وأنّها ما كانت لتمنح أحدًا عطاء كبيرًا لولا جهلها بما يدور حولها في هذا الزمن، فضلاً عن أنّها أمرت بقطعة الأرض هبة للطفلة «شَرِيفَةْ»، وليست له.

تأجّج غضب الفتى عندما تناهى إليه أنّ «بِشَيبشْ» طلب من الأمّ كتابة «حُجّةْ» تُقرّر تلك الهبة، بصفته والد «شَرِيفَةْ» وهو الوصي الوحيد على ما تملك، فنازعه في هذا، كونه منذ ولادة هذه الطفلة لم يهتمّ بها ولا يد له في رعايتها، وكلّ الفضل يعود لجدّته ولأمّها بالتبنّي «هَدِيّةْ»، وأنّ «بِشَيبشْ» لم ينظر للطفلة إلاّ حين حصلت على قطعة أرض تُعدّ من أميز مزارع الأمّ على الإطلاق.

سأله بحضرة نفر من رجال القرية وأمام مسجدهم صباحًا: (فيان اَنت كلّ هذا الزمان من حياة هذي الصُبَيّة اللّي يزيد عمرها عن ست وحتّى ذا الحين ما قلت اَنّها بنتك؟!)، فجّر سؤاله هذا عن دوره كأب لليتيمة التي ربا عمرها على الست سنوات ولم يعترف بها كابنة من صلبه!!، وفي ذلك إشارة أكثر لسقوط حقّه في أيّ مطالبة بأيّ ملكيّة تعود لتلك الطفلة.

لم يصمت «بِشَيبشْ» عن هذا الحصار الخانق، فقد أخذه الحنق إلى درجة أليمة، وبادر قائلاً لـ «حَمُود»: (أوّل تِعلـّى ثمّ تكلّم مثل الرجال. . .). وهكذا كانت القاضية، إذ أخمد كلّ حمم الحماس في صدر الصبيّ، حين نال من جرحه الحقيقيّ، فلا قدر له بين الحاضرين، حيث سأله ابتداءً أن يعتلي مصاف الرجال ليُناصبه التحدّي، وذلك بالختان، فهو ليس أهلاً للحديث أو النقاش؛ لأنّه غير مختون. وكان «حَمُود»، وهو بعمر يفوق السادسة عشرة، كبقيّة أترابه يظلّون بلا ختان إلى أن يصيروا في رتب الشباب العامر بسنيه العشرين وأكثر، كما هي عادتهم في ذلك.

ورغم أنّه أصاب في الصبيّ مقتلاً إلاّ أنّه لم يشف غليله، إذ كان يحضر خصامهما رجال يحضّون الصبيّ ويُثيرون الفتنة أملاً في سقوط حقّه بتلك الأرض.

هذه الحادثة تُعدّ فاتحة شجّ في الجبين الواحد الذي يُنافحون به ضدّ مثالب الحياة، فهي حادثة ربما تُسجّل كأوّل زلّة يقعون في

شراكها، فكادت تُفرّقهم قطعة أرض وُهبت للصبيّة «شَرِيفَةْ»، ولولا تدخّل الشيخ «عيسى الخير» في الأمر لكانت الفتنة أمرّ، إذ خرج عليهم بأمر الأمّ ونهر الصبيّ ابنه بصوت ساخط أن يصمت ويُفارق جمع الرجال، كما نادى «بِشَيبشْ» ألاّ ينزلق إلى هفوات جاهل كـ «حَمُود»، فانتهت الخصومة بانكفاء الجميع، واعتزال «بِشَيبشْ» بعض المجالس العاديّة واعتكافه داخل عُشّته نهارًا، أو تحت سرير خالته العمياء ليلاً، محتضنًا في الحالتين بندقيّته التي لا تُفارقه، إلى أن دخل عليهم مرّة في ذيل ليل قادم يُخبرهم بعزمه على الرحيل، وقد أمست الأمّ قبل تلك الليلة تُضمر الشكّ في أمر سفره الذي شعرت به منذ حادثة خصامه مع حفيدها «حَمُود»، إلاّ أنّها صمتت عنه كيلا تُثنيه ولكيلا تطفح من الآخرين مشاعر الأسف عليه، فهذا ما يكرهه «بِشَيبشْ» أشدّ الكره.

(٢)

عندما بدأ الليل يتكتّل على الوادي في اليوم الذي قطع «حَمُود الخير» جزءًا من حشفته بالفأس خطأً، كان «بِشَيبشْ» يُغادر القرية بتوجيه من الأمّ في السّر لجلب بعض مؤونة من المخزن السرّي.

وممّا أثار الشكّ لدى «بِشَيبشْ» حول هذه المهمّة هو أنّهم لم يُكملوا بعد كميّة الحبوب التي جلبها قبل وقت يسير، كما أنّه لم يقف أحد بباب الأمّ يسألها زيادة حصّته من الحبوب المخصّصة له ولأهله في ذلك المخبأ الذي لم يطّلع على مكانه أحد حتّى تلك اللحظة، كما أنّ أغلب الناس كفّوا عن الاعتماد على ذلك المخزون؛ لأنّهم أخيرًا تمكّنوا من كامل محاصيلهم الزراعيّة وتوقّفوا عن إرسالها للمخزن السرّي عدا حصص صغيرة تُدّخر هناك من كلّ عام وبمعرفة «بِشَيبشْ» فقط، هذا بعد أن استتبّت الأمور لهم واستقرّوا بقراهم، ولم يعد يعتمد على ذلك المخزون إلاّ في المناسبات الكبيرة، وبإدارة مطلقة للأمّ وحدها.

في مساء ذلك اليوم، وحيث كان يقف على مشارف الوادي مع جمع من الناس يتدبّرون طريقة جديدة لتوزيع مياه السيل لو جرت قريبًا، فُوجئ بالجارية «زَهْرَةْ» وهي متقطّعة الأنفاس شاحبة الوجه، تدعوه لمجلس سيّدتها ـ الأمّ ـ التي استقبلته بهدوء مبالغ فيه، وقد ظنّ في بداية الأمر أنّها قدّرت مجيئه مبكرًا؛ لتضمن نومه تحت سريرها كما

تأمره منذ سنوات، كما فكّر أنّها ـ ربما ـ ستُناقشه في خصومته مع حفيدها ضحى، إلاّ أنّها همست له: (أحنا بحاجة لأَربعة اَكياس من. . .)، ولم تُكمل جملة همسها حتّى عالج حيرته العجلى بسؤال: (يا خالة قبل اَيّام حَمّلت عشرين كيس. . واَحْنا بلا حاجة ذا الحين. . ما السبب لهذي الزيادة؟). استنكر طلبها لأنّه لا حاجة لهم بكمِّيّة جديدة، إلاّ أنّها قرصته عندما اقترب منها متعجّبًا، مشيرة بقرصتها الخفيفة إلى تنفيذ أمرها دون نقاش، فصمت على الفور وعلم أنّ هناك أمرًا تُخفيه هذه العمياء عن الكلّ كعادتها.

وحين أطلق الظلام طواغيت عتمته تمامًا على الدروب كان «بِشَيبشْ» ينهب الطريق ومن خلفه «اَلبَارق» ـ جمله الصبور على لأواء هذه المشقّة. إنّه لن يقطع طريقًا يسيرًا، بل سيجوب غمار الظلام في وهاد وشعاب موحشة، ومنحدرات خطرة، وأحراش كثيفة كانوا يعتقلون فيها الجنّ وتسكنها الأشباح ـ كما قصّت الأمّ عليه في طفولته ـ، وهو الآن الرجل الأوّل وعليه أن يتجاوز كلّ ذلك في وقت وجيز، إذ يلزم أن يكون بالحمل واقفًا قبل غياب نجم «الزُهْرَةْ» من السماء، وإلاّ سيحلّ غضب الأمّ على الجميع، وستجرّهم لخصام وسباب تطال الكبير والصغير على السواء، رجالاً ونساء دون تفريق.

جبل «عَكْوَةْ اليمانيّة» ليس يسيرًا من جهته الشماليّة، وخاصّة المسافة التي تفصله عن جبل «عَكْوَةْ الشاميّة»، إذ تنتشر في تلك الجهة أشجار السمر الكثيف، محاطة بالكثبان الرمليّة التي يصعب على الجمل تجاوزها ما لم يكن قائد المسير يعرف جيّدًا معابر تلك الناحية، وقد يصعب سلك الطريق في اللّيل الذي تدلهمّ فيه كلّ المعالم، إلاّ أنّ هذا الأمر لا يُشكّل أيّ معضلة تُذكر أمام «بِشَيبشْ» منجز المهمّات الأوّل لدى الأمّ، وقد عرف برجولته الفذّة في مواجهة صعاب جمّة، أرعبها عراكه مع الجنّ ـ وفق الحكايات المتداولة عنه ـ أو مقاتلة أيّ ثلّة من قبائل «اَلعَبَاسِيَةْ» منفردًا دون نجدة من ذويه، حتّى حكي أنّه في أحد

الأيّام البعيدة انتصر لكلّ عشائره برأي سديد يذكره الجميع. ففي زمن انقضى تمّت هدنة بين عشائره وعشائر «اَلعَبَاسِيَةْ» وحُدّدت الحدود بينهم وتوقّفت المعارك بعد أن كانت تنشب بينهم النزاعات تترى، وأثناء تلك الهدنة وُجد رجل من «اَلعَبَاسِيَةْ» مقتولاً خارج حدود وادي «اَلحُسَيْنِي»، ولكي يتحمّل أهل «عُصيْرَةْ» أو «الحَسَانِيَةْ» القضيّة تناقل «اَلعَبَاسِيَةْ» بين القبائل الأخرى أنّ قتيلهم وُجد داخل حدود وادي «اَلحُسَيْنِي»، وذلك نكاية بشمل «الحَسَانِيةْ» الذين ثار غضبهم باستنفار شيخهم «عيسى الخير» حانقًا من تلك التهمة، ثمّ اجتمع أعيان الطرفين بحضور شيوخ من وادي «ضَمَدْ» وبلاد «هَرُوبْ»، ليقضوا في الأمر الشائك. وفي غفلة الجميع وقبل أن تُثار مسألة الحدود همس «بِشَيبشْ» لشيخهم قائلاً: (قُل اَنّ قتيلهم كان داخل بلادنا ولا تهتم...)، وعلى الفور أعلن الشيخ «عيسى الخير» أنّ القتيل «اَلعَبْسِي» وُجد بواديهم، مؤيّدًا زعم «اَلعَبَاسِيَةْ»، وبذلك انتهى النزاع، وتمكّن بذلك أهل «عُصيْرَةْ» من اكتساب مساحة كبيرة إلى واديهم الضخم الذي يمتدّ من حدودهم مع «صَبْيَاءْ» غربًا إلى منابت جبال «عَيبان» و«هَرُوب» شرقًا، وشمالاً إلى وادي «نَخْلاَن»، ثمّ جنوبًا حتّى مطالع «ضَمَدْ» الشمالية، فقد كان إقرارهم بالمسؤوليّة يعني أنّ حدود واديهم ستكون من حيث المكان الذي وُجد فيه الرجل المقتول، ولن يعترض «اَلعَبَاسِيَةْ» على ذلك؛ لأنّ بغيتهم أن يتحمّل نِدّهم الدائم ـ أهل عُصيْرَةْ أو الحَسَانِيةْ ـ الحادثة، ولأنّهم أيضًا كسبوا دِية في قتيلهم بحكم جموع الشيوخ الموجودين وقتئذ.

لقد استحسنت «صَادِقِيّةْ» رأي ابن أختها «بِشَيبشْ» الذي رفع رؤوس الجميع وصار وادي «اَلحُسَيْنِي» شاسعًا بشكل يُثير عجب من عرف حدوده قبل تلك الحادثة. هذا بعض ممّا أهّل «بِشَيبشْ» ليكون علامة فارقة في تاريخ وادي «اَلحُسَيْنِي» قاطبة وفي قلوب الرجال والنساء، أوّلهم الأمّ التي تُحيطه بكلّ اهتمام وتعلم كلّ واردة وشاردة

عنه، وتعلم أيضًا أنّه سيكون كمدًا عظيمًا في قلوب العشائر ولا مناص.

في تلك الليلة التي صارت منعطفًا في دمهم الواحد، والتي تشاجر فيها مع «حَمُود»، لم يكد «بِشَيبشْ» يطوي قلبه وحيدًا على حزنه الغالب، حتّى يمّم وجهته إلى مخزن قوتهم الذي لا يعرفه أحد إلاّ هو والشيخ، و«اَلسّاحِليّ»، و«حَمُود» الذي حتمًا قد نسي أمر المخزن منذ زمن، ـ حدّث نفسه بذلك ـ وتحوّل آسفًا على «بن شامي» الذي كان يحضر مجلس الأمّ وهم يتّفقون معها على مكان ذلك المخزن، إذ صار يرقد في فراش الموت منذ سنوات انقضت على عودة العشائر لقُراها بعد «اَلهَرْبَةْ» الشهيرة، وهو بعد وفاة أخته «فاطمةْ» أو «بنت الخَبْتي» صار في رعاية الأمّ، حين أصرّت على أن يُشيّدوا له نزلاً صغيرًا بجوارها وكأنّها تفرض على نهاية هذا الرجل رقابة صارمة يُبرّرها «بِشَيبشْ» بكون المريض أحد العارفين بمخبأ حصيلة حصادهم الكبير، الذي لم يشهدوا له مثيلاً منذ عشرين عامًا كما تقول الأم، لاسيّما أنّ «بن شامي» رجل يهيم بعشق النساء؛ ولو دلقت له امرأة قليلاً من قلبها وهو في حالته تلك لأخذه الهذيان إلى الحديث عن كلّ شيء، وفقدوا ذلك المخزون الوفير، أمّا الناس فلهم تبرير آخر وهو أنّ سبب حرص الأمّ على جوار «بن شامي» يعود إلى صلة القرابة بينهما، فهو ابن عمّها ولديها القدرة على إقناعه بتناول طعامه الزهيد، خاصّة بعد وفاة أخته، حيث عادت كامل الأمور إلى طبيعتها، وعادت لكلّ الأشخاص والأشياء أسماؤها الحقيقيّة، فلم يعد تركيزه يشترط اسم «فاطمة» للتعامل مع من يقترب منه، وما عاد يعنيه سوى الصوت، وقد اصطفى لرضاه من يُريد من الرجال والنساء الخاصّة؛ وذلك في أوقات أغلبها محدّد للاقتراب منه والكشف عن عورته للنظافة بيد جواري الأمّ التي تُشرف على ذلك مباشرة نظرًا لصعوبة شخصه في هذا الأمر تحديدًا، حيث كانوا يتندّرون عليه لكون شعر عانته لا ينبت على الإطلاق، فبعد ختانه أمام الناس في يومه العظيم، راح رجال، أسنّ منه، يتهامسون بما

يكره عن حجم ذَكَره ـ إشارة منهم إلى سوء ختانه ـ فزمجر وتوارى عن الناس في يومه ذاك، ممسكًا بسكين يصفها ـ وهو يقصّ حكايته ـ بأنّ لها نصلاً يقطع الريح، وغدا يسلخ بها جلد العانة إلى أن سحل كامل الجلد المحيط بذَكَره، وعاد يسير في أزقّة القرية عاريًا يتباهى بفعلته وملجمًا كلّ لسان يُعرّض رجولته بالنقصان.

تذكّر «بِشَيبشْ» ذلك عن «بن شامي» الذي ما كان له أن يدعه يسبر وحشة هذا الليل وحيدًا، فقد كان قبل سنوات بعيدة يصطحبه حتّى في ورود ماء البئر، وذلك أقلّ الأعمال شقاء ونادرًا ما يقوم به الرجال.

وهو يقترب من المخزن، ربط «بِشَيبشْ» الجمل، وقبل أن يتقدّم بخطوات متلمّسًا الطريق وشوائبها، وقف مستجيبًا للفكرة التي قدحت فجأة في رأسه، حيث رأى أنّ لهذه المهمّة التي يُنفّذها علاقة بحادثة مشاجرته مع الصبيّ «حَمُود».

إنّ قصّة سير «بن شامي» في القرية عاريًا ليُقنع الناس برجولته دفعته للتفكر فيما قاله ضحى لـ «حَمُود» بمعرض غضبه، فأيقن أنّ سخريته من رجولة الصبيّ فعلت شيئًا في نفسه، وهذا الشيء لا تعرفه غير الأمّ التي لم تُعلّق ولم تتدخّل لتُوقفه عن إيذاء حفيدها، ولم تُعاتبه أبدًا كما اعتادتْ ضدّ كلّ من ينال من الصبيّ.

ـ (أيُعقل أنّه فعل ذلك الآن؟)، سأل نفسه وهو ما زال واقفًا يُقلقه خوف جارف على «حَمُود»؛ إذ يعتقد أنّه مزّق أسفله تمامًا، فحتمًا سوف يُقدم على ذلك بعد أن سمع كافّة الحاضرين التعريض برجولته وإذلاله بمنقصة لا مثيل لها بين الرجال، ولكي يُثبت الصبيّ قدره الرفيع بينهم فلزامًا عليه أن يُؤكّد لنفسه أوّلاً أنّه أهل لكلّ موقف مشرّف سيظلّ حاضرًا في ذاكرة قبائل «اَلحُسَيْنِي» خاصّة وقبائل «المِخْلاَف» كافّة طوال ما توالت الأجيال وحملت بها الأمّهات دون انقطاع عبر الزمن.

لم يُكمل «بِشَيبشْ» خطوة أُخرى حتّى خرق ظلمة الليل بنظرة ساهمة وكأنّه طُعن في قراره دونما نجاة تُذكر، إذ تداعت أمامه ملامح

الوجوه التي كانت تحضر خصامه مع الصبيّ «حَمُود»، فرأى من تلك الوجوه خصمًا لدودًا لعشائره، وقد دخل القرية فجرًا مرسلاً من قبيلة «بني هَايِجْ» التي تقطّعت بها سبل الصلح على أرض تدّعي ملكيّتها، وعصبة «عُصيْرَةْ» تضع يدها عليها منذ ستّين عامًا خلت. وقد عمد «بنو هَايِجْ» إلى كلّ ماحقة يُلصقونها بأهل «عُصيْرَةْ» ليقلّ قدرهم بين الأحلاف في المنطقة جميعها وما استطاعوا فعل شيء.

قبض «بِشَيبشْ» في نفسه شيئًا من الخوف الهابط عليه إثر تذكّره ذلك الوجه، وتدارك صلابته بعد أن أضمر شكًّا يُدنيه لليقين أنّ ما حدث اليوم لن يكون سهلاً على الجميع، فحضور ذلك الرجل للحادثة أدعى لعواقب مريرة. جرّ معه ويلات خشيته مكملاً مهمّته، ويتحسّس مسيرًا سهلاً للجمل قبالة المخزن الذي وصله أخيرًا، وعليه أن يخفّ في العمل ليكسب وقتًا يقضي فيه أمرًا ما، يتعلّق بذلك الرجل من «بني هَايِجْ».

(٣)

ظهرًا كان حَمُود يدخل على جدّته العمياء وإزاره السفلي فاقع الحمرة من الأمام جرّاء نزف حادّ ألمّ به إثر الخطأ الذي ارتكبه عندما قطع جزءًا من حشفة ذَكَره المدمّى بشكل مقزّز، كما كان يحمل حينها في كفّه قطعة لحميّة صغيرة، وكان يتبعه خادما الأمّ وأنفاسهما تتصاعد هلعًا واطمئنانًا في آن، ويصرخان معًا: (حَمُود مزّق نفسه يا عمّة...)، فهرعت الأمّ لنهرهما عن الصراخ، وسألت: (من رآكم يا حَمُود؟)، ردّ الجريح بأنّه وصل خفية ولم يلحظ دخوله للقرية أحد. ومن فورها، وبعد أن أمرت بخروج العاملين، اطّلعت على كامل الأمر، ثمّ صرخت بجاريتها الخاصّة «زَهْرَةْ امّسعود» وأمرتها أن يلزم الصمت الأخوان ـ الخادمان ـ «مِسَاوَى» و«بِخيت»، أو كما يُعرّفانهما منذ ثلاثين عامًا بـ«بِخيت بَخيّه»؛ لارتباطهما معًا حتّى عند قضاء الحاجة، ولا يفترقان البتّة، فيُناديهما كل من في الوادي باسم أكبرهما مضافًا لصفة القرابة بينهما بقولهم «بِخيت بَخَيّه».

أخذت القطعة اللحميّة من الصبيّ وصرّتها في غطاء رأسها، ومباشرة كان ابنها شيخ الشمل، والد الصبيّ، قد وصل وتداول مع الأمّ أمر هذه الكارثة، وكان «اَلسّاحِليّ» والجارية «زَهْرَةْ اَمسْعُود» يغسلان الدماء من عانة الجريح، وقد تأكّد الجميع من نجاح عمليّة الختان لولا هذا الخطأ الفادح الذي حرمه جزءًا من حشفته.

سأل الشيخ الصبيّ مؤنبًا: (لو قلت لي!.. على الاَقل كان عَلّيْنَاك بدل هذي المصيبة!...).

ردّ الصبيّ محتدمًا: (ما عاد لي عزم اَنتظر.. كلّ يوم الرجال يتذاكرون اَنّي صغير واَنّي بلا زبّ زيهم.. أنت ما سمعت بِشَيبشْ اليوم وهو يفضحني أمام النّاس؟!...).

قال الشيخ متسائلاً بجزع ومستخفًّا بما ذكر: (واليوم صرت رجل!.. خلّص نفسك من أمير صَبْيَاءْ...).

تهكّم الشيخ من كلام ابنه الذي لم يرَ جدوى من إخطارهم ليُرقّوه هم إلى منزلة الرجال، وعرض عليه أن يُخلّص نفسه من حكم الإمارة التي راحت تنشر لجانًا في المنطقة تسير بين القرى وتقوم بختان البالغين؛ وذلك لإنهاء طقوس النّاس في هذا الأمر، والتي ما زالت تُقام سرًّا وبشكل متكرّر، خلافًا لأوامر الإمارة المسنونة في ذلك، وبحسب ما أُشيع في الناحية فإنّ القتل سيكون عقابًا لمن يقوم بعمليّة الختان لنفسه أو لمن يقوم بها عنه، فتلك الطريقة محرّمة كما وصفها رجل الدّين والمفتي في دار الإمارة حينئذ، ووفق رأيه الذي تناقله النّاس فإنّه عمل خارق لتعاليم الدّين.

عندما سمعت الأمّ كلام ابنها الموجّه للصبيّ صرخت: (أنا بنت عُصيْرَةْ، شيخة بنت شيوخ، والله لو الناس شمّوا اَمْعَنْقِرِيزْ من سبخة البحر يا قوم الاِمارة ما يلمسون حَمُود...).

قاطعها ابنها الشيخ بصوت عال قائلاً: (على حدّك يا بنت عُصيْرَةْ.. والله يعرفون اَنّك شيخة وبنت واَمّ شيوخ، لكن ولد ولدك هذا ما يترجّل وهو ما يسمع كلامنا، أمّا عن خوفك عليه من الاِمارة فاَنا ولد الخير واَنتِ تعرفين، والله لاَخسف بهم واحد واحد...).

كانت الأمّ تصرخ وتُنذر بعظمة تاريخ قريتها ومجد مكانتها العالية في القوم المكتسبة من تليد الزمن، وأقسمت لو أنّ الحرب اشتدّت مع الإمارة دفاعًا عن «حَمُود» إلى درجة أنّ الناس في الأرض السبخة،

بجوار البحر، يشمّون رائحة البارود ما لحق ابنهم سوء. وقد أردف الشيخ مؤيّدًا كلامها وعاطفًا على جهل ابنه وأنّه لا يسمع نصائحه وتوجيهاته له وأنّه لن يصير رجلاً بأخطائه تلك.

تداول الشيخ مع الأمّ، بعد أن خلا بها، شأنًا خاصًّا يتعلّق بضرورة أخذ الحيطة في هذا الأمر وفرض السرِّيّة التامّة على كلّ الناس الخاصّة والعامّة بالقرية، حتّى عن «بِشَيبشْ» الذي يغيب في الخلاء، ثمّ خرج لأمر عاجل لا يُحدّث فيه أحدًا على الإطلاق، عُرف فيما بعد أنّه اتجه نحو «صَبْيَاءْ» لدعوة الأمير إلى حضور الليلة الأولى من ليالي التشهير بابنه مختونًا، وقد عمد الشيخ إلى ذلك كي يسبق الأعداء الذين سيشون بالأمر لا محالة، وكذلك ليُبيّن للأمير أنّ ابنه سيُختن على الطريقة التي قرّرتها الإمارة مؤخّرًا، فدعوة الأمير لتلك اللّيلة لا تدع مجالاً للشكّ في أنّ الصبيّ سيُختن على طريقة عشائره.

لقد ظهر للشيخ أنّ الأمّ تعرف بأمر هذا الختان وأنّه حاصل لا محالة في ذلك اليوم، فهي منذ الصباح الباكر قد نشرت عامليها في القرى المجاورة يصيحون فيها أنّ ليالي «شُهْرَة» «حَمُود بن عيسى الخير» ستبدأ من الليلة التالية ولمدّة أسبوع، وقد دُسّ بين النّاس أنّ محبّتهم للشيخ ولذويه ستكون على المحكّ، ذلك عذر مُرّر بدهاء ردًّا على استغراب النّاس من هذا الإعلان المتأخّر الذي يجب أن يكون في وقت أسبق، وفق التقليد المتعارف عليه في هذه المناسبة الكبيرة.

استراح «حَمُود» لوقت طويل في مكان قصيّ لا تصله الأعين، بعد تضميد جرحه بلفاف محكوم لا يخدشه أو يشعر معه بألم. كان ذلك قبل أن يلبس حلّة زاهية وتتخلّفه الدفوف بأمر الأمّ، يسير ومن حوله رجال الأمّ كحراسة مشدّدة، قُصد منها عدم الاقتراب منه كيلا يُفتضح سرّه، وكان الوقت عِشاء عندما خرج يسير في أزقة القرية مُعلنًا أنّ ليالي «شُهْرَته» ستبدأ من مساء غد ويحبّ أن يحضر الجميع، فكلّما مرّ على بيت عزيز ضرب بالخنجر في عرض العُشّة ويقول بتودّد واعتزاز:

(نحبّ حضوركم. . .)، على عادة كلّ من يدعو الأحبّة ليوم رجولته الخالد.

تلك الليلة لم يقرّ بصمت ظلامها بيت في وادي «اَلحُسَيْنِي» إلاّ وهو محاط بالخبر السعيد، حيث سيكون هناك حفل لم يشهدوه منذ سنوات طوال مضت.

الفجر التالي كان «بِشَيبشْ» واقفًا بباب الأمّ التي استقبلته استقبال الفاتحين كما هي عادتها معه كلّما أنجز لها عملاً كبيرًا، لكنّها هذه المرّة حنقة على غير العادة، فسألها عن سبب تكدّرها، لتنبهه بهدوء قائلة: (فتّح عينك. . .)، فتلفّت حوله ورأى خادمهم «مِسَاوَى» داخل العُشّة يُحرّك مهفّة من فوق أخيه «بِخيت»، ففهم أنّ الأمّ اطّلعت على مجيئه ليلاً ولم يبت تحت سريرها كعادته، فقال: (كنت مشغول بعمل ضروري يا صَادِقِيّةْ. . .)، ثمّ دخل عليهما فشاهد أيّ عقوبة نالت من ذلك المسكين الذي التقاه البارحة خارج الدار، وأمره بإيصال الجمل محمّلاً بالمؤونة دون أن تعلم الأمّ، ووجدها قد كوته على ردفيه، وكان منظر الكي مقزّزًا، فأشفق عليه ونظر إلى وجهه الخجل واعتذر منه بنظرة متحسّرة، فصمت «بِخيت» وكأنّه يقرّ بزلّته، فتدخّل أخوه «مِسَاوَى» وذكر أنّ له زلّة أُخرى، فبُعيد الغروب فرّ من رباط أمرت به الأمّ لكليهما، وعِشاءً عاد فرحًا بمؤن يحملها الجمل «اَلبَارق»، فدخل على الأمّ يكذب عليها بأنّ «بِشَيبشْ» حلّ رباطه ليُساعده في العمل بدليل أنّه يُسلّمها المؤن بدلاً منه. ولقاء عمله هذا، يرغب أن تُسامحه عن التأخّر وعن عدم إخطارها بانحلال وثاقه في حينه، وكان أمره مكشوفًا لديها وحلّت ساعة عقابه أن ساووه مع الأرض منبطحًا ورفعت جاريتها الخاصّة إزاره عن ردفيه، ثمّ كوته الأمّ بشفرة ساخنة كانت حمرتها تلمع كلسان كلب.

عندما انتهى «مِسَاوَى» من سرد حكايته شاجره «بِخيت» شجار من لا يملك قوّة، واكتفى بتهديد قبيح قائلاً: (اَنا يا كاذب ذي المرّة اَكويك

بهذا. . .) ومشيرًا لعضوه، فضحِك «بِشَيبشْ» وغمز إلى «مِسَاوَى» يطلب تجاوز سفاهة ردّه، مراعاة لما هو فيه من حرقة، ثمّ تركهما لشجارهما الدائم.

رجع إليها متناسيًا كيّها للعامل، وسألها أن تُخفي أمر غيابه طوال البارحة، فتجاهلت حديثه كما يُريد هو، وتحوّلت إلى حادثة الصبيّ، فعلم منها أنّ كلّ شيء معدّ إعدادًا متميّزًا للاحتفال بهذه المناسبة، وقد تعجّب على مسمعها من قدرتهم على دعوة كلّ العشائر بالوادي وكذلك بعض أعيان القبائل المجاورة في وقت قياسي كـ «آل هَايل» من جبال «ساق الغراب»، لكنّها أرجأت تعجّبه لذهول يحدث له دائمًا، إذ قالت له: (أنا كنت عارفةْ انّك ستتخاصم مع حَمُود وكلامك عليه سيكون سبب فعلته، وقد اَرسلت قبل خصمتكم باَيّام للناس البعيدين أطلب حضورهم بكرة العصر. . .).

ابتسم وهو يرى غفلته عن تدابير هذه الأمّ التي ألفها تُدير أقدارهم على كلّ نحو ترغبه، فها هي تعترف له بأنّها تعلم من قبل بأنّ شجاره مع «حَمُود» سيُحدث ما أحدث، لذا فقد اتخذت جميع التدابير اللازمة!

لقد استقبل الأمر بذهول وأيقن أنّها تعرف الكثير، إلاّ أنّه لم يُقدم على سؤالها السكوت عنه، فهو يعلم أنّها لن تُخبر عنه شيئًا، وستظل أسراره دفينة صدرها كما عُرف عنها، فلم يستجب إلى تلويحة خفيّة لنيّة دخيلة، حيث احتاج أن يسألها كتمان عزمه على الرحيل ورغب ألاّ ترحم حاجتها في رجوعه إليها، وذلك بكشف مكان وجوده إنْ هي عرفته، وحتمًا هي ستعرفه طالما أنّها قد أوتيت من العلم ما لم يُؤت غيرها من قبل، فقد ظنّ أنّها ستتحدّث فيما لو أنّ غيابه أشقاها كثيرًا، ومع هذا بقي مؤمنًا بقوّتها وتجاوزها وجع فقده.

في الليلة الفائتة ضجّت القرية بالقادمين من جنوبها وشمالها ومن شرقها وغربها، فمئات من المدعوّين ملأوا فناء دار الشيخ يُوقدون الليل بالسّمر حتّى تنفّس الصبح الذي وجده «بِشَيبشْ» حافلاً ببقايا ليل طويل،

فقد رأى أيّ عتاد مجهّز للمناسبة الشهيرة، حيث جلبوا معهم الهدايا الثمينة وشتّى أنواع الحبوب من ذرة السهول بقرى «المِخْلاَف» ومن قمح يُعتقد أنّه من سروات «ساق الغراب» نزل به أصدقاء الشيخ من رجال «آل هَايِل» الذين حدس «بِشَيبشْ»، ومن قبل لقائه بالأمّ، أنّ لديهم علمًا بهذه المناسبة منذ وقت مبكر؛ نظرًا للمسافة الطويلة التي يلزمهم قطعها من بلادهم إلى وادي «اَلحُسَيْنِي».

كان العبيد والجواري قد جهزوا كلّ المراسم الخاصّة بهذا المحفل المهيب، فهذا اليوم أوّل يوم يُبشّر بأنّ «حَمُود صبيّ الخير» سوف «يتْعَلّى»، إذ يرتقي درجة أعلى بعد ركب النساء اللاّتي منهنّ الأمّ والمرضعة والمربّية والراعية، فقد صار فتى قادرًا على حمل البندقيّة والسيف، فوجب انتقاله إلى ركب الرجال، وارتقاء منزلة الكبار. ولأجل هذا العلوّ الذي لا يُماثله علوّ جُلبت له أزهى الثياب من «عَيْبَان»، فاشتروا له إزار «اَلحَطِيمْ» الزاهية ألوانه، وتُوّج رأسه بإكليل النباتات العطريّة من «كَاذِي» و«بعَيْثِرَان» و«خَطُورْ» وفي مفرقه طحينة حجر «الحُسنْ الهندي» فاقعة الحمرة، وعجينة الطيب الأخضر التي تتخلّل الشعر مضيفة لمحيطه رائحة زكيّة، وتمنطق بـ«جنْبِيّةْ» صنعانيّة، تُعدّ من أغلى أنواع الخناجر، وقد تقدّمته فرقة ملعلعي البنادق؛ واختارت الأمّ أشدّ معاونيها قوّة ومنعة ليحيطوا به حتّى يفصلوا بينه وبين الجماهير كونه جريحًا ولتجنب اكتشاف سرّه، وقد حرصوا ألاّ يُعالجوه بالطريقة التقليديّة كما يفعلون للمختون، حيث يلزمهم بعد الختان أن يشدّوا ذَكَره من الحشفة إلى الأمام بحبليْ الـ «مَعَابِل» ليُشكّلا مثلّثًا عند ربطهما إلى حبل الـ «حِقَابْ» المحيط بالخصر وقايةً من الفتاق، وبذلك يبدو ذَكَر المختون من تحت الإزار كما لو كان منتصبًا، وهذا ما لم يكن عليه «حَمُود» إذ كان يحتمل آلامًا مبرحة وهو يضمّ عضوه الجريح إلى فخذيه أثناء سيره؛ كيلا يُفضح أمره، فهو لم يُختن بعد بحسب علم الناس، وموعده العظيم بعد أسبوع ـ كما قرّروا ـ

لتطول أيّام فرحهم وليالي سمرهم؛ وممّا يُذهب الشكّ في أمره أنّه كان يحمل عصا قصيرة في أعلاها علامة تُوضح مضي يوم في عدّ تنازلي لإعلان يوم رجولته؛ ومذكّرًا الختّان «اَبْن مسعود»، يومًا بعد يوم، بعدد الأيّام التي أحصتها عصاه تلك، انتظارًا ليومه الكبير.

عصر ذلك اليوم عندما خرج على الناس، هبّ سحره في القلوب، فالعيون دلقت النظرات على الفارس المعتلي من ركب الطفولة والصبا حيث أمضى سنيه الأولى بين أيدي النساء اللاتي أخرجنه فارسًا في ذلك المساء بحلل زاهية لا يُتقن اختيارها غيرهنّ، والتي لا يُمكن أن يزدان بها في غير هذه الليالي المحدودة، فخرج مشغولاً بأيديهنّ، متباهيات به «عَتِيقَةْ»، إذ أُعتق من رقابتهنّ ورعايتهنّ، حيث صار قادرًا على مشاق الحياة وحمل الملمّات فيها عنهنّ، وهذا اليوم يُقدّمنه إلى القبيلة ليزيد من قوّتها ويُعزّز من سواعد شجعانها، فيرفع من حماس أنصارها وحلفائها، ويُسقط ادّعاء الغرماء، ويفرحن به لأنّه رمز كفاحهنّ وهو مأمنهنّ في يوم ضيم عظيم، ولا ريب أن يكون هذا يوم فخر القبيلة وكلّ محبّ لهذا البيت العريق في نبله وإحسانه، فيما الرجال يفرحون بمقدمه إلى صفّهم لأنّه أهل لنصر هم طالبوه.

بانتهاء الليلة الأولى من ليالي الحفل، أُسقط في أيدي المتربّصين حيث لم يجدوا وسيلة إلى وشاية تُوقع بالشيخ وعُصبته، وانتهت كلّ محاولاتهم سدى. لاسيّما حينما رأوا الشيخ يضع يده بيد النائب الأوّل في الإمارة، ويتضاحك معه في غمرة سعادة البقيّة من خاصّته والمقرّبين، أمّا «بِشَيبِشْ» فكان يُضمر قلقًا من رجل «بني هَايِجْ» الحاضر بحجّة مشاركتهم احتفاءهم بالـ «عَتِيقَةْ» الجديد، ويراه عيَن سخط ترصد الزلاّت، ولا يستطيع أن يطرده لمكانة المناسبة الرفيعة، وقد ثقفه في الليلة الثانية بين الصفوف الأماميّة التي تراصّت لتكون قريبة من ممشى الصبيّ أمام الجماهير، ومن ثمّ الاستمتاع بحفلة الرقص التي تمتدّ حتّى مغيب الشمس، فينفضّون إلى مخادعهم وحتّى اليوم التالي، وهكذا إلى

أن تنقضي أيام «الشُهْرَة»، ويحين اليوم العظيم وهو يوم الختان.

لقد راح «بِشَيبشْ» يترصّد مواقع ذلك الرجل وتنقّلاته حتّى عرف أيّ منقلب يأتيه ليلاً، إذ رآه البارحة ييمّم شطر «صَبْيَاءْ» بعد أن قضى الربع الأوّل من الليل في مسجد القرية، ولم يحن ظهر اليوم إلاّ وهو في قرية «عُصيْرَةْ» يتحيّن بداية الحفل الراقص، وبهذا جزم بأنّ الرجل يُخفي سرًّا خطيرًا، فليلة قبل البارحة بعد أن جلب أكياس الحبوب وتسليمها للخادم «بِخيت بَخيّة»، لحقه متخفّيًا وهو في طريقه إلى «صَبْيَاءْ»، وقد حرص أكثر على مراقبته، بعد أن سمعه في الليلة الأولى يقول لنفر من قومه يقفون قربه، عندما رأى الشيخ يشبك كفّه بكفّ نائب الأمير الأوّل، سمعه يقول: (يا اَبْريْرِي سبقنا!)، وكان يقصد في قوله الشيخ حيث سبقهم إلى مودّة الإمارة، وفسدت بذلك نكايتهم به.

لقد احتمل «بِشَيبشْ» الغيظ الذي تمدّد بداخله وهو يسمع ذلك الرجل يسترذل بكلمة «اَبْريْرِي» النابية التي تجعل الشيخ ابنًا من صلبه، وسمعه يتعجّب ويتساءل بخبث كيف استطاع الشيخ «عيسى اَبْن الخير» أن يجعل خدعته تنطلي على معاون الأمير وعلى العساكر وجميع الحاضرين، ويكون الشيخ مغمورًا لهذه الدرجة من الثقة المتناهية فيما يُقدّمه من عرض مرتّب بدقّة دون أيّ خطأ يكشفه. وفهم «بِشَيبشْ» من تساؤلاته تلك أنّه على علم بحادثة الصبيّ لا ريب، فقد أتقن تقديراته من ذلك الشجار الذي رآهما عليه قبل يومين، وعرف أنّ «حَمُود» لو كان سيُختن حتمًا لكان خبره لدى الناس منذ شهر على الأقل، وممّا كان يذكره الرجل على مسامع خاصّته أنّ أهل «عُصيْرَةْ» لم يُقدموا على هذا العرض إلاّ لوجود ما يحرصون على إخفائه عن الأعين الكبيرة. هذا و«بِشَيبشْ» بالمرصاد، ويعلم تمام العلم أنّ هذا الرجل وعصبته يعرفون أيّ قدر من الذلّ قد تُلحقه بصبي حين تُقلّل من شأنه أمام الرجال، والأدهى أنّ هذا الصبيّ هو سليل سادة وادي «اَلحُسَيْنِي».

انقضى مساؤهم البهيج الثاني، وذلك الرجل يُبكر في الخروج من

القرية كعادته، مخترقًا أحراش الخلاء من الجهة الشرقيّة للقرية، هذه المرّة قُبيل المغرب كما رآه، وملتفًّا على القرية من جهتها الجنوبيّة وحتّى جهتها الغربيّة حيث يحدّها وادي «اَحْمد عِكَامْ» ويستوي أمامه طريقًا سهلاً إلى «صَبْيَاءْ»، فتتبّع «بِشَيبشْ» مسالكه حتّى وجده يتجه إلى دار الإمارة ومسجدها.

في الليلة ذاتها، وبُعيد العِشاء، كان بمجلس الأمّ ثلّة من أهاليهم، أعمام وأخوال، عمّات وخالات، وبدأت الأمّ حديثهم، بممازحة حفيدها المختون، قائلة: (يا اَبو حَشْفَةْ كان شَا تحرقنا كلّنا قبل أمس). عاتبته لمشارفة إيقاعه بهم جميعًا في الجحيم، وداعبته بـ«أبو حَشْفَةْ» في إشارة واضحة لحشفته المثلومة نتيجة فعله الأرعن، وقد تناقلوا بينهم الاسم الجديد «أبو حَشْفَةْ»، لتكون كنيته الشهيرة حتّى يُودّع الحياة، ولن يُغادرهم على الإطلاق أنّ هذه الكنية لن تخرج من المعنى الذي تكتنفه وهو الحاجة الماسّة أو الرغبة الجامحة، فالـ «حَشْفةْ» هي اللّعنة التي ستدوم في قلب هذا الصبيّ كما رأت الأمّ من قبل، لذلك لم يغفل المتبصّرون في هذه الأمور الدقيقة عن هذه الكنيّة الجديدة لفتاهم «حَمُود»، وكأنّما سيرث من جدّه الشريف «مِشَارِي» قوّته الجنسيّة الخارقة التي اشتهر بها قبل عقود طويلة من الزمان.

بات الشيخ يُوضح، لوالدته وللجميع، ماهية الخوف العارم الذي شلّ كلّ أوصاله على سليله في هذه الدنيا ووريثه الوحيد، وأنّ بعض الناقصين ينتظرون أيّ زلّة منه ومن رجاله غير المرغوب فيهم لتمرّدهم على أوامر الإمارة والقائمين على إدارة شؤون المنطقة كافّة.

لم يكن يومًا يضع في حسبانه أنّه سيخضع لخوف شديد كما حصل له، فالجزع على ابنه أخذ منه صوابه، كما حدث له أوّل مرّة حين شاهد تلك القوافل الغريبة تمرّ ببلاده ورجاله يلوون رأيه في محاربتهم واللّحاق بهم. وأمس لم يتجدّد الخوف ذاته الذي كان عليه أيّام «اَلهَرْبَةْ»، بل كان هذه المرّة من خطرٍ مسّ شغاف قلبه وأقلق نياط

عروقه، فقد كاد أن يقع ابنه في فكّي العقاب المسنون بحقّ من يختن نفسه.

ولم يكن يخشى أُولئك الذين لا يعنون شيئًا في حسابه، فهو سيُحرق الأرض ومن عليها لو ألحقوا بابنه سوءًا، كما أنّ هذا سيُعزّز لديه سيرته الأولى مع الرفض التام لوجود تلك الفرق القادمة من الشمال لتحكم تراب أجداده وآبائه. كان يُكرّر لرجاله بين حين وآخر منذ أعوام خلت، ويُؤكّد لهم، عدم رضاه عن حالهم، ولم يُفلح في تأجيج نارهم القديمة ليُبقيهم على الدوام في حالة الرفض، ولكيلا يركنوا لصمت بيوتهم ومزارعهم، أو يخنعوا لزمنٍ ليس لهم، ولم يسبق لأحد من دمهم أن رضي بهذا حتّى في عهد «الأَدَارِسَةْ» الذي ولّى إلى الأبد.

وحدها أمّه تعرف شقوته من هذا الجرح الذي لا يجد أيّ مبرّر لوقوعه، فكيف بهم وهم أُولو بأس وقوّة يأتي عليهم زمان كهذا يبقون فيه مكتوفي الأيدي أمام قوم لا يعرفونهم ولا يمتّون لبلادهم بأيّ صلة؟ كيف له أن يتصالح مع هذا الوضع المذلّ ويكون في محل قلق على ابنه الوحيد؟ فلا يُعقل أنّ عصبته المشهورة ستصير إلى هذا الحدّ المشين، أو أنّها ستنزف كلّ مفاخرها وأمجادها أمام حكم جديد وسطوة غريبة عنهم.

كم يُؤلمه ذلك وكم يُحرقه صمته إرضاء لأمّه! ولكي يبقي من أخضر الحياة ما يُسعد به «حَمُود» وذرِّيّته التي ينتظرها بكلّ شغف، ولا يغيب عنه أنّه لو كان الأمر يتوقّف على حبّه للحياة لما كان بقي لحظة بعد أن صار الحكم لرجال يضحكون ملء أشداقهم ويعلكون لبانًا، وهذا ما يرفضه رجال «عُصيْرَةْ»، إذ يرون أنّ اللّبان يُحوّل الرجل إلى دابّة تتشهّى.

ـ (يا اَبو حَشْفَةْ.. تحتاج تِتْعَلـّى زيادة؟).

عادت الأمّ تُداعب «الختين» كما يفعل الرجال الكبار مع الفتيان المختونين حديثًا، وسألته إن كان يحتاج اعتلاء جديدًا، كي تُثير فيه

الدم لشهوة الغضب وتُغري بداخله نعرة العصبة، وهي تُشكّك بختانه، وأنّه ما زال ربيب أمّه غرًّا. فبدا لها من صمته غضبه، ثمّ همّ باستدبار مجلسهم رافضًا تصغيره بينهم، ووالده يسأله أن يُكمل مسامرتهم. عندها زادت الأمّ من تهكّمها به، حين تعجّبت بالمَثَل: (أووووْ.. شِراْ من زايد اَمْذِرَا!)، إذ لا تجد في شخصه قيمة عزيزة مُشتراة ممّا يزيد من البذور المستخلصة من حصادهم للحرث التالي، فما يبقى بعد البذر يكنزونه لنقده لقاء الهامّ والخاصّ جدًّا، فهو لا يستحقّ أن يعتذروا له، إذ بذلك المثل يستوي عندهم بقاؤه مع عدمه، ولم يتوقّف الأمر لديه على تقليلها من شأنه ممازحة، بل زاده حزنًا ضحك الجميع عليه، لذا غادر مجلسهم حردًا يخسف على نار صدره، فولج اَلعُشّة الجديدة التي دُمشقت له في ظهيرة يوم حادثته، من أشجار أثل خضراء رُكّزت أطرافها بمكان مطير ورُدمت بالطين من الداخل وغُشيت بشجر «المَرْخ» ونباتات «اَلعَلاَقِي» من الخارج، ثمّ لبّدت النساء جوف العُشّة بخليط الروث والطّين، ولم يغب عن «حَمُود» أن يتفقّد عورات النساء العاملات وهنّ يصعدن اَلقُعد المتراصّة ليُليّسن سقف العُشّة وهو من الأسفل يقيس فروجهنّ بعد أن صار يعرفها جيّدًا، ولم يعد يتعجّب من عدم تدلّي أعضاء لهنّ مثله، كما كان يفعل كلّما شاهد فرج «شَرِيفَةْ» إذا هي رضيعة أيّام «اَلهَرْبَةْ». وفي جانب تلك العُشّة الأيمن غُرست شتلة سدرة، بدت الليلة قويّة ونافرة للحياة، وقد استحسنت الأمّ حالة السدرة بعد أن سمعت وصفها من جاريتها «زَهْرَةْ».

عندما غادر عريس محفلهم حانقًا من سخرية جدّته، وفي تلميح بعجزه عن ترضية زوجه بالفراش، نقلت الأمّ مزاحها لابنها في حضور ثلّة من الرجال والنساء وبينهنّ «هَدِيّةْ»، قائلة: (أنا اَسأل زوجتك: تحصل معك شي يا عيسى وِلاّ لا؟).

علّق الشيخ دون تردّد بردّهم المعهود في مثل هذه المواقف التي

يُعرِّض فيها بفحولتهم أو شجاعتهم: (اَبْن عُصيْرَةْ...).

كما هي عادتهم عندما تُذكر «عُصيْرَةْ» أوقفته الأمّ قائلة: (على حدّكَ يا اَبْن عُصيْرَةْ...)، فهي لم تذكر ما يُشينه لكي ينتفض حماسًا باللازمة خاصّتهم. وعاد يقول محرجًا زوجه ومشيرًا إليها: (هي عندك اسأليها).

ولم تتورّع «هَدِيّةْ» عن المنافحة عن نفسها، عندما ردّت مبتسمة: (مَوّتْ ثلاث زوجات واَنا في الطريق لاحقتهن)، وكأنّها تُغري فيه كلّ ذكورته ولكي تُبقي لنفسها حقّ السرّ الخالد بينه وبين النساء اللاتي ركضت رغباته على صدورهنّ وقضين إلاّ هي، ما زالت بأوّل عتاد لها في الحياة والإشراق الذي قرأته الأمّ من قبل، واختارتها من دون نساء العشائر لتكون حوض كِبَرِه الذي يلمّ مرضه وعجزه.

ولم يزدحم جوّ الزوجين بما يُشير إلى ارتباكهما من التعريض بأمر فراشهما بين الموجودين، حيث لزما روح المداعبة والمرح في حدود لا يتمّ تجاوزها لأبعد من ذلك.

أثناء تلك المداعبات عاد الشيخ يُهمهم بحرقته، وقد لمست الأمّ منه حرجًا يتصعّد، ووجدت مركبه خشنًا، فقالت على الفور: (سمعت اَنّ معاون الأمير حضر...).

قال دون أن ينظر إليها وجحيمه تشرئبّ: (جاءْ ومعه رجال جدد...)، وبحركة تشي بمراوغته الواضحة في قطع الإجابة، دلّى جذعه منحنيًا من مجلسه باتجاه قدميه ليتأكّد من أنّ «بِشَيبشْ» تحت سريرها كما اعتادوا وجوده هناك عِشاء؛ وقبل أن يُمازحه، سألتهم الأمّ: (من هم الرجال الجدد يا عيسى؟).

فأجاب ابنها «سُبَيعْ»: (رجال مختلفين عن اِللّي راَيناهم في بلادنا، الواحد فيهم كاَنَّه مُقْرِي).

صمت الجميع، وكأنّ خبر الرجال الجدد الذين قدموا بهيئة قارئي القرآن، قد بثّ فيهم رعبًا منكرًا لم يكن بقدر الرعب الذي تلبسهم عند

حادثة «حَمُود»، فقد رأوهم بثياب عرفوها مؤخّرًا بمقدم القوّات لكنّها كانت ثيابًا أكثر بياضًا، ولهم لِحى أطول ومهذّبة، ويسير منهم طيبهم العجيب، وفي نظراتهم قراءة لكلّ شيء يُحيط بهم، كما أنّهم لم يتقدّموا أبدًا للمصافحة أو المباركة كما يجب في مناسبة كهذه، واكتفوا فقط برفع أصواتهم بالسلام عند الوصول، وركنوا إلى مكان لا ينأى بهم عن المراقبة التي يُجيدونها بإتقان كما لوحظ عليهم، ولم يظفروا بوقت أطول في الحفل حيث تعمّدوا الانطلاق قبل الغروب إلى البئر الأقرب استعدادًا لصلاة المغرب.

تعجّبت الأمّ من كون هيئتهم هيئة مقرئين، فسألت بإلحاح يُبين الصورة المزعجة التي تلوح في مخيّلاتهم جميعًا: (كيف عرفتم أنّهم رجال مُقْرِين؟)، فأجاب الشيخ بهدوء كمن يترقّب محاصرة أكبر ممّا هو عليه: (صلّوا في مسجدنا...).

ثمّ عرّج حديثهم على ذكر تفاصيل عنتهم كثيرًا في تلك اللحظة؛ أملاً في تحليل هذه الزيارة لمتديّنين لم يكن لهم مكان من قبل في بلادهم، حيث كانوا ـ أهل «عُصيْرَةْ» ـ يكتفون برجال علم يعبرون بهم وهم قادمون من مدينة «زَبِيد» اليمنيّة في طريقهم إلى مَكّة شمالاً، أو عائدون من الحجّ، أو نفر منهم يلتقونهم في مجلس «الأَدَارِسَةْ» الآفل نجمهم، ولم يكن دور هذا النفر يتعدّى الفصل في بعض النزاعات بين الناس.

وكان أئمّة المساجد يتوارثون الإمامة من الأقربين لهم ذوي الحظّ في التعليم على أيدي علماء «شافعيين» أو «زيديين» في زبِيد أو صنعاء، أمّا هؤلاء الرجال الجدد فكان أكبرهم ـ الذي أمّ بهم الصلاة عنوة ـ يقرأ في الصلاة بطريقة خلاف التي تعلّموها، ويُضمر البسملة، الآية الأولى من فاتحة القرآن، ويُطيل في الركوع والسجود، وقد أبدى الأغراب اشمئزازًا من بعض أهل القرية الذين يسبلون أياديهم في الصلاة، كما لُمس من المصلّين الأغراب بعض الغضب والرفض لما هم عليه، أهل

القرية، من أحاديث عن شؤون حياتهم، هذا حينما بدأ الجميع، وهم ما زالوا في المسجد، يتداولون أحاديث جانبيّة حول شؤون عملهم في يومهم ذاك، فاستغرب الناس وغادروا بتعجّبهم من أمر هؤلاء الضيوف وسلوك تجهّمهم الذي لم يكن الوحيد؛ بل سبقوه بما يدعو للغيظ عندما عيّنوا أحدهم إمامًا في صلاة المغرب، دون إذن، وبمسجد لم يسبق لأحد من العشائر أن تقدّم فيه للإمامة غير شيخ الشمل!

كانت الأمّ تستمع لكلّ ما يقوله ابنها عن تصرّفات تلك الفئة، وفي الوقت ذاته لم يكن يروق لها مداخلات المتواجدين، حيث كانت تقرأ في نبرة صوت ابنها ما يُخفيه من أمر المصلّين الأغراب، وتجد في الإضافات الجانبيّة ما يُذهب جوهر الرعب الماثل في تعاطيهم للأمر، وتناوله من جوانب كثيرة دون تركيز قد يُساعد على إدراك مصيبة تتحسّس وقوعها.

لقد أغرقوا في وصف الرجال ذوي الأردية الكاملة التي تتكوّن للفرد من قطعة واحدة بلون أبيض، وتتهدّل من الكتفين وحتّى فوق الكعبين ولها أكمام كبيرة تتدلّى بخيلاء يُحسنونه في ممشاهم وحركاتهم، ولهم لباس على الرأس بلونين أو أكثر فيما عرفوه لاحقًا بـ«الشِمَاغْ» أو «الغُتْرَةْ»، وينتعلون أحذية من جلد لم يروها من قبل إلاّ في صنعاء، وعادة ما تكون لذوي الجاه والرفعة، وبذلك اللباس كانوا محطّ الأنظار في تلك الليلة التي صارت منعطفًا آخر في تاريخ القرية بعد منعطف «اَلْهَرْبَةْ».

لزم الشيخ الصمت، بينما تتحرّى الأمّ رواح الجميع، ليكون الليل ثالثهما، و«بِشَيبشْ» رابعهم، كان تحت سريرها بهدوئه الجبّار، دونما حركة واحدة يُبدي بها موقفه من شأنهم الذي يتناولونه بآرائهم على مسمع منه ومرأى، ولا يُمكن أن يُداخل أحدهم شكّ في أنّ ذلك لا يعني «بِشَيبشْ»، بل هم يعلمون أنّ موقفه المؤيّد لصق أيّ رأي يُقرّرونه، لكنّه كما جرى عليه الحال، لا يسبق أو يلحق برأي إلاّ كان

رأيًا قاطعًا، وكأنّ عنده مفاتيح الغيب أنّى قال، ولأنّ حياتهم تسير على نحو يتوافق وطبيعة البشر العاديين بخلافه، فلم يترقّبوا مداخلاته، ومن دونه تقاسموا ما تقاسموه من حديث حول تلك الحادثة، ذلك قبل أن ينتقلوا من جديد إلى دعتهم وهنيهاتهم الحميمة لتجاذب الضحكات مع الأمّ المحرّضة الأولى إلى الصفو وتركيد ما يُعكّر ليلهم.

في رحابة تبدّد بعض رماد غُصّتهم ومرارتهم التي يظلّلها الليل الثقيل، وقمر الصيف البادي كمحارب لا يُنازله أحد في بلاطه العالي، بدأت «عَلِيّةْ هادي» بإظهار تميّزها؛ فهي وحدها قادرة على إضحاك الجميع من أقلّ الأشياء مرحًا، فراحت تحكي لهم عن أبيها «هادي جَمّال» وكيف أضحك الشريف «مِشَاري» عندما اكتشفه ذات مرّة وهو يسرق قصبًا من حقوله التي ما زالت سنابلها خضراء، وعندما نهره عن ذلك أعلن «هادي» توبته وأنّه لن يعود إلى هذا، لكنّه نكث توبته واكتشفه الشريف مرّة أُخرى يسرق القصب، فزجره وصرخ به مستنكرًا: (ما اَنت تبت يا هادي عن السرقة وحلفت اَنّك ما ترجع لها؟!)، فأجابه بمخابثة مداعبة: (يا شيخ اَنا والله تبت من سرقة القصب الكبير لكن سرقة القصب القصار ما تبت منها!).

ومحارب السماء الفريد ـ القمر ـ يتوارى خلف سحب تتهادى شرقًا، كأنّما يُبدي فزعه من ضحك الرجال وهم يتمعّنون في فكاهة «هادي جَمّال» التي جعلت الشريف يغفر له لروحه المرحة الحاضرة، كان ضحك النساء يأتي ردفًا لضحك الرجال كأنّما يرصّون طَرق فرحهم بيد واحدة. ثمّ وُضع طعام الجميع بالقرب من قَعَادَة الأمّ التي يُساعدها في تناول وجبة العَشَاء ابن أختها «بِشَيبِشْ» المكلوم منذ رحيل زوجته في عام «اَلهَرْبَةْ»، فموتها حفر في عظامه حزنًا جرف كلّ مباهج الحياة، لكنّه لا يُظهره لأحد وكأنّه يتجشّم عناء جبال من ألم ووعرة روحه الممزّقة، والجميع يتحاشى النظر في عينيه أو السؤال عن سرّ عذابهما، فقد كانت تلك امرأته البصر والبصيرة، ووحدها خالته العمياء تُمرّر كلّ

ليلة أصابعها القديمة من على قذاله الطويل، وكأنّها تتأكّد من جماله ومن بقاء فتوّته كما هي، ولتطمئن أنّه معافى، فمنذ زمن بُلّغت سرًا مفاده أنّ جنونًا سيسكنه في آخر عمره، وقد أفصحت عن ذلك فور علمها بأنّه قلع الشجيرات المحيطة بقبر زوجته؛ فكّت وثاق جمله «اَلبَارق» ليدلّه إلى مكانه، بعد إلحاح وتمضية عهود بين يديها أنّه لن يفعل شيئًا سوى الوقوف على قبرها.

يبيت «بِشَيبشْ» أسفل سرير الأمّ محتضنًا بندقيّته «مِعْتِقْ»، هذا اسمها تيمّنًا بواديهم الذي يعتق كلّ من يلوذ به هاربًا من قصاص يُطارده، فينصره «الحَسَانِيةْ» بالحماية المطلقة. ويقضي الليل يحكي لخالته جولات «مِعْتِقْ» في مواجهة المتربّصين بحماهم، تستمع إليه، ثمّ تحكي من جانبها عن زوجها وعن أخوالها الجنّ، وعن «اَبْن حُسَيْنَةْ»؛ نسبة لأمّه «حُسَيْنَةْ»، معشوقها القديم، وهو «سَابِقَةْ» إذ سبقت ولادته حادثة زواج أبيه بأمّه، وتُبرّر افتتان العشائر به لكون شجاعته فذّة ولا نظير لها في ذلك الوقت، فهو قد ورث جسارة والده الذي استطاع أن يغير على حياض قوم وينال من شرفهم باقتطاف رغبة حبيبته، وبذره زرعًا فيها، دون أن يلحقه أهل المرأة بضرر، كما أنّ أمّ الـ «سَابِقَةْ» تعيش في تقدير؛ كونها وهبت عاشقها ثمرة جسدها، وحملت منه رغمًا عن أهلها، لذا فالجميع يعتدّ بمن تسبق ولادته حالة زواج والديه؛ لأنّه لا بدّ أن يكون جسورًا ولا قبيل له في الرجولة والفروسيّة، وينسبه أهل الجبال إلى الشجرة سرّ البقاء والعطاء، والتي تهيج بالحياة والنماء، إذ يُسمونه «ولد الهَيْجَةْ»، ويُغدقون عليه كلّ المحاسن والمفاخر، ولا يتجرّأ شخص أيـًا كان أن يمسّ الـ «سَابِقَةْ» أو «ولد الهَيْجَةْ» بما يكرهان سماعه كأن يعرّض بنسبهما أو برجولتهما، وقد كانت الأمّ تبثّ ليليًا لـ «بِشَيبشْ» حكايتها البالية عن ذلك المعشوق الذي مات منذ سنوات بعيدة وعشقه ما فتئ يتمدّد في روحها على الدوام.

في المقابل لا ينسى «بِشَيبشْ» أن يشكو إليها شدّة القيد الموثق به،

وأنّه لا يستطيع معه اللّحاقَ بحملانها الضالّة في الليل، وهي تعلم أنّه يُريد الخلاص، إذ يُخيّل إليه أنّه يرى زوجته من فرجة الأمنية التي يتحدّث عنها دائمًا. . (مريم تناديني يا خالة)، زوجته يسمعها تُناديه كلّ غروب، والقيد أقوى من تحقيق أمنية، وخالته لا تصدّقه أنّ الحملان ستضلّ في الظلام، فيقضي طوال الليل يُخادعها بأنّ حملانها خرجت من الدار، وهو سيلحق بها ولن يهرب، فترفض مبتسمة، وهكذا حالهما حتّى يلي الظلامَ نورٌ تغدو فيه الحملان للمراعي، بينما تتوقّف حملان أمانيه عن العبور أمامه، فهي حملان لا تظهر في النهار كما أخبرته الخالة، وهذا الجنون لا يحمله ليلٌ آخر سوى ليلهما، ولا يُمكن لأحد أن يُقاطع حكاياتهما المبهرة بأساطيرها وخرافاتها.

ليس بعيدًا عن الرجال بقي النساء يتداولن حديثهنّ حول غدٍ تُقسَّم فيه مهام الرعي وجلب الماء للبهائم، وذلك لقلّة الأيادي العاملة بسبب انشغال أغلبهم بليالي حفلهم، وكنّ يُطالبن «عَلِيّةْ هادي» أن تهدأ عن مشاغبة بعضهنّ؛ ليُقرّرن بينهنّ أمر أعمالهنّ، ولم تهتمّ بهنّ حتّى علّقت إحداهنّ عليها: (نَاهِي. . يا عَلِيّةْ يظهر اَنّ ولد اَمْجَابر ما عاد يرضيك في ليله)، التفتتْ «عَلِيّةْ» من فورها ووجهها لدائرة الرجال وتحديدًا للأمّ التي انتظرت ردّها على أنّ زوجها لم يعد يُرضيها في الليل كما يجب، وقد عزّزت الفاتحة حديثها بـ«نَاهِي»، وذلك لتنهر بهذا الإله الأسطوري ـ الذي لا يُذكر إلاّ لزجر أو إيقاف المعني بالقول ـ لتبتر الحديث عن ذلك الحدّ، ولتزيد حلقة السخرية بـ«عَلِيّةْ» التي لم تتردّد، تسأل وتتعجّب، في مخاطبة الأمّ قائلة: (يا يمّه اَنت ذا الحين تسمعين؟ نساء ورجال يسمعون ويشهدون اَنّ ولد اَمْجَابر ما شِي، بحّ. . وما عاد اَحصل معه غير الجوع. . خلّيك شاهدة اَنّي ذا الحين مظلومة معه).

قهقه الرجال والنساء معًا، ليس على وضوحها في أمر فراشها مع زوجها وأنّها صارت الآن مظلومة في ذلك، بل لأنّهم يُريدون من علوّ ضحكهم إثارة الموضوع؛ ليروا قدر الحرج الذي يُمكن له أن يوقف

حديثًا كهذا، وما كان من زوجها إلاّ أن سارع للدفاع عن نفسه قائلاً، في مزاح ظاهر، وبباطنه يسعى لقلب الآية عليها: (يا ناس اشهدوا عليها.. جافة وعادها تِشَا في روحها).

زاد هرجهم ومرجهم حول (تِشا في روحها)، فـ «عَلِيّةْ» ما زالت تشاء حرثًا قويًّا كما لو أنّها ما زالت في مقتبل العمر، مع أنّها الآن تبدو أرضًا بوارًا، فانفرطوا في ضحك أقضّ السكون في مرابض الدواب وأعشاش العصافير في أشجار نبق وتين برّي تحفّ الدار الواسعة من كلّ جانب، إلى أن أنهت الأمّ همهماتهم المتداخلة بقولها: (نَاهِي يا اَهل الفضايح.. الليل سرى بكلامكم.. واَنتِ يا عَلِيّةْ استحي قليل.. عيالك يا كثرهم واَنْتِ عادك تِشين ولد اَمْجَابر ينهضك).

وبإقفال حديثهم بـ«ناهِي» الذي به انتهوا عن الحديث قطعًا، لم تتخلّف الأمّ عن انفلاتهم المعتاد في أمور الفراش واللّيل، بل نكّلت بالمتحذلقة «عَلِيّةْ» بالقدر الذي يُوازن بين مرحهم وجدّهم في ساعتهم التي يعبّرون فيها حقيقة عن صورة تلاحمهم في ألفة فريدة.

وحين بدأ القمر ينحدر باتجاه الغرب، جرف التعب مع الليل الجميع إلى منازلهم، وتأكّدت الأمّ من ذلك عندما قَدِمت جاريتها «زَهْرَةْ» حاملة إليها إناء الحليب لتحتسيه مع كسرة خبز معمول من حبوب خضراء، وجبتها الخفيفة التي تتناولها، قبل أن تنام بنيّة الصيام في اليوم التالي.

تسلّلت يد «بِشَيبشْ» من تحت سريرها لتُدني إليها الطاولة، هذا وهي تقول لابنها الشيخ: (يا عيسى كاَنّي حسّيت بسرّ في كلامك عن...)، فلم ينتظر «بِشَيبشْ» من المعني إجابة، إذ يعلم أيّ شقاء يلي كلّ حرف سيقوله الشيخ، فخرج عن صمته قائلاً: (يا صَادِقِيّةْ.. هناك شرّ كبير!)، وعلى أثر هذه المداخلة المدوّيّة من تحتهما، انتفضت الأمّ من سريرها لتجذب كتف ابنها، الذي في غير هداها تحسبه قريبًا، موقعة الطاولة وما عليها، فنهض ابنها فزعًا يُقيم من جسدها المهتزّ

ويقرّبها إليه، ويُهدّئ من روعها قائلاً: (لا تخافي يا صَادِقِيّةْ. . .)، كان يذكر اسمها مجرّدًا من صفة الأمّ، وهو بذلك يُلاطفها علّها تصيخ إلى صوته الحنون وإلى طمأنةٍ آثر إظهارها لتقرّ روحها الوجلة، لكن ما كان منها إلاّ أن أقسمت بأن تصوم يوم غد دون أن تضع في فمها لقمة تردّ بها مسغبة الصوم، فحمله قسمها على أن يضمّها إليه، ومع الفانوس الخافت المدلّى بباب العُشّة بدت على صدره الضخم كغصن قُطف قُبيل الغروب وقد غشته لمحة الحياة الذاهبة، كانت يداها تجرّ شعر ذقنه للأسفل وتشرخ روحيهما بسؤال تنسجه خشونةُ بكاء مرير: (يا عيسى بلادنا لا تضيع. . تكلّم. . بيّن لي. . عسى الاِمارة أرسلتهم؟)، لم تدع شعر ذقنه فزادت من قوّة قبضتها، رغم محاولات الفكاك، فلحقه ألم بالغ إلى حدّ جعله يُسلّم رأسه خفضًا ورفعًا مع حركة يديها القابضتين على شعر وجهه، حتّى خرج «بِشَيبشْ» من تحت سريرها محرّرًا من القيود التي تفرضها الأمّ كي لا تتخطّفه أهوال الليل وهو يهيم بحثًا عن زوجته الراحلة.

لم يقترب «بِشَيبشْ» منها مباشرة بل نأى عنهما ليُشعرها أنّه طليق، ولحظة بدايته في الحديث ارتخت كلّ أوصالها، وكأنّ ذلك الغصن المقطوف قُبيل الغروب فَقَدَ آخر قطرة حياة، إذ كادت تنهال من حضن الشيخ لولا ذراعاه المحيطتان بها، وعادت تصفع ابنها وتسأله خلاصًا، وتقول: (أمسْك لي بِشَيبشْ. . لو خرج ما عاد ألقاه بقيّة حياتي. . .)، وبدا نشيجها يعلو قليلاً إلى أن قطعه سعال سلبها قدراتها الضئيلة إلاّ من مواصلة صفع وجه ابنها، أو من إشارة إلى حيث تظنّ أنّ «بِشَيبشْ» يقف طليقًا وترجوه أن يعود إليها.

عندما وقف جانبًا يُهدّدها بخروجه في الليل، دونما أحد يُصاحبه، كان يُحدّثها باسمها مجرّدًا من صفة خالة، فهو وحده الذي لا يستجدي أيّ ملاطفة من النداء الصريح باسمها؛ بل كان يقصد عدم قلّة شأنه أمامها، وأنّه قادر على أن يفرض سلطة تُساوي سلطتها على الجميع،

وفي تلك اللحظة تحديدًا إذ يفعل ذلك ليُريها أيّ جسارة هو عليها، فزمام الأمر بيده ويُمكنه أن يُغادر القرية ويُنفّذ ما نواه من قبل، وفي يقينه أنّ الشيخ لن يردعه لأنّه ممزّق الحيل جرّاء ما حدث عند غروب شمس هذا اليوم.

وقف يقول لها: (يا صَادِقِيّةْ.. خلّي عيسى، واسمعي كلامي.. خلّي عيسى...)، وهو يُكرر سؤاله إليها أن تُخلي سبيل ابنها، كانت ترجوه ألاّ يسري من عندها، إلى أن كاد يشتدّ الشأن بينهم، فحسمته هي مداراة للموقف، وتجنّبًا لافتضاح أصواتهم التي قد تتناهى إلى من حولهم من أهاليهم ومن المدعوّين الذين يبيتون في الفناء الخلفي للدار.

عادت إلى سريرها بمساعدة ابنها، مؤثرة الاستماع إليه، وقد بدت خائرة القوى بجسدها المستفيض فزعًا، مع أنّ الشيخ لم يكفّ عن تهدئتها، وهو عاجز كشجرة تقطع جذعها فأس باترة، فما يعترك بداخله يقصره على عدم مقاطعة «بِشَيبشْ» أو أمره بالاقتراب من الأمّ كما ترغب، فبقي خصيم كلّ حرف من شأنه فعل شيء.

عاد «بِشَيبشْ» يقول: (يا صَادِقِيّةْ.. اسمعي كلامي، أنت عارفة اَنّ الزمن ما عاده لنا، ولا تعرفين ما يشَا رجال الاِمارة، لكن اَنا أعرف...)، لم يكمل ونظر في عيني الشيخ اللتين وقعتا على الأرض وفيهما من الرجاء المكسور ما يبكي عشائره ألف عام. وأحدث ذلك في روح «بِشَيبشْ» وخزًا تمكّن من روح الرجل الخشن فيه، إلاّ أنّه أنكر على نفسه بارقة الضعف، لذا عزم على إنهاء حديثه الذي بدأه، لما في ذلك من رأفة بهما من هذه المواجهة، فقال: (أعرف اَنّ الزمن تبدّل، ورجال القرآن سيحِلّون في بلادنا ولا مخرج لنا منهم بعد اليوم.. يزرعون في بلادنا كلّ خططهم، وشوكتهم تقوى من زرعهم الكثير، وأنا يا صَادِقِيّةْ أعدك بأنّي ما أخرج من عُصيْرَةْ اِلاّ برضاك.. وهم عندهم علم بأنّ حَمُود ختن نفسه، لكنّهم يعرفون أنّه ولد شيخ الشمل اللّي راح يبسط لهم بلاده واِلاّ...)، وغشاهم ثلاثتهم صيبُ الهلع ممّا

يحوك هؤلاء القوم الأغراب، فحبسوا أنفاسهم، وكلّما عاد الثلاثة بدخائلهم في هذا الشأن يتدبّرونه وقف طود شاهق من اليأس أمام تدبيراتهم، ولا مردّ لهم عن خنوع يحيقُ لا نسب له فيهم من قبل.

بعد وقت يسير تمزّقوا فيه ممّا سمعوا، عاد الشيخ إلى مكانه بعد أن تهاوت الأمّ في فراشها وهي تتحسّس بيدها المرتجفة أسفل سريرها للتأكّد من أنّ «بِشَيبشْ» عاد لوثاقه فلم تجده، فسألته بصوت أوّله آه: (لا تخرج ذا الحين)، فأجابها بصرامة الواعد: (وأحلف انّه ما تشرق امشمس اِلاّ وانا عندك. . .).

استوت جالسة وجحيم غُصّتها تلتهب، وقالت بحزن: (أنا الليلة خايفة، وأعرف انّك قادر تطحنهم تحت رجليك، لكن قوّتهم تزيد كلّ يوم، ولو لحقتهم انت بضرر الليلة، بكرة يكون عذرهم كبير).

كان ينظر للشيخ الذاهب بجراحاته في ظلمة الليل تحديقًا وصمتًا جبّارًا، وقد استشفّ من ذلك أنّه يُؤيّده فيما هو ماض فيه هذه الساعة؛ لأنّه لم يُعزّز كلام الأمّ بما يُمكن معه فهْم اعتراضه على الفكرة التي ينوي تنفيذها الآن.

طمأن الأمّ قائلاً: (يا صَادِقِيّةْ. . أنا بِشَيبشْ، وأحلف لك انّه ما يخرج الناس لمشاغلهم بكرة اِلاّ وانا عندك. . .)، وعندما همّ بسلك دروبه الخاصّة بعيدًا عن أيّ نظر دسيس، سأله الشيخ دون أن ينظر إليه: (ما تريد أرسل معك أحد؟). وكان ذلك السؤال مدعاة لزرع شرخ بكاء بصدري الأمّ و«هَدِيّةْ»، لكون هذا العرض في اعتقادهما لا يُقلّل من شجاعة البطل كما قد يتبادر للذهن؛ بل لأنّ الشيخ لأوّل مرّة يرونه عاجزًا، وهذا ما دفعه لأن يفكّر في إمكانيّة إرسال رجل آخر معه وهو ما لم يعرضه عليه طوال الزمن الآفل.

لم يُجبه «بِشَيبشْ» على ذلك لأنّه يعلم أيّ محمل حمل المرأتين على البكاء، إنّه احتمال للذلّ تريانه يفتق رجلهم الأوّل في تلك اللحظة، وعليه أن ينفض ذلك عن الجبين العريق للشيخ، فتركهم في

عَمَهِ الخوف يحصدون آمالاً في عودته التي وعد بها، وفي قراره أن يطعن أُولئك الأوغاد ـ كما نعتهم لنفسه ـ طعنة تصل إلى أقاصي مرجعهم.

تنفّست «هَدِيّةْ» الصعداء بعد أن توسّلت الله ألاّ يحدث ما يُزلزل ليل القرية، اقتربت باكية، وهي تحمل سُحور الأمّ، وتُطمئنها بأنّه حتمًا سيعود، فردّت عليها الأمّ بجزع تُوبّخها: (لا بارك الله في صنيعك الليلة. . .)، وبترت عتابها لمقاطعة ابنها لها قائلاً: (كانت تخاف عليك من. . .)، فزجرته على الفور بقولها الغاضب: (يا كاذب هي كانت تخاف على دقنك ووجهك مني. . .).

بقيت «هَدِيّةْ» بقربها دون أن تعرض عليها من جديد المساعدة في تناول سحورها، فهي تعلم أنّها لن تأكل شيئًا حتّى يقرّ أمانها بوجود «بِشَيبِشْ»، فقضوا ليلهم يسألون في صمت سؤالاً واحدًا: (ماذا سيفعل يا ترى؟. . .)، والأمّ تتحسّس القيود التي تستحسن أنعمها وعادة ما تربطه بقطع من ملابسها القديمة لتكون رطبة على ساقيه. كانت تُكرّر هامسة: (يرجع وأَربطه ذي المرّة بشِكَال. . .)، وحين يصل ابنها قولها، ينظر لدواعي غضبها التي وصلت بها أن تربطه بوثاق الدواب، بينما تجهّم وجهه يُبدّد أمام زوجته فرصة الابتسام على الوعيد الذي ينتظر «بِشَيبِشْ» حال إيابه.

بقوا قليلاً على حالهم ذاك، ثمّ قامت الزوجة إلى الصغيرة «شَرِيفَةْ»، ونهض الشيخ إلى عادة تفقّده الليلي، فراح يطّوف بالدار الكبيرة التي تحيط بها الأشجار، والزبير المقام من أخشاب الأثل المتراصّة مع حشائش «العُلّيق» وشجر «اَلمَرْخ» لتكون مانعًا حصينًا لسوء الخارج، وسار في فنائها الواسع وأمامه الكثير من العشش المختلفة المساحات والاتساع، أوّلها عُشّتا الأمّ وحفيدها «حَمُود» حيث تقعان في الطرف الأمامي من الدار وجوارهما عُشّة «بن شامي»، وقد وُجد الكثير من الضيوف نيامًا في العراء، أمّا النساء فخدورهنّ تقع في العُشش التي

صُفّت لهنّ في جانب يحفظ خصوصياتهنّ ولصق عريشي الجاريات، وقد وجّه بوضع فرجة صغيرة لذلك الجزء من الخلف، لتسهّل بذلك حركة أعمال البيت الخاصّة، ويكون الباب الكبير لدخول الضيوف، ولتكون على عين الأمّ كما أشارت عليه بذلك منذ زمن بعيد.

وجد أمن الدار مستتبًّا وكان في رفقته عامله المخلص «حِنِين جَغّام» يحمل الفانوس خافتًا ويتندّر له قائلاً: (الدنيا ظلمة كَأنّها طيز عبد)، فضحك الشيخ واستفزّه قائلاً: (كَأنّها طيز اَبوك...)، كتم ضحكه بصعوبة، وهو يشعر بحاجة لردّ الكيل بقدر الاستفزاز، فوجد نفسه تنال ما تُريد حين ردّ «حِنِين» ينتقم بحياء قائلاً: (نوركم يا سِيد يوضح لنا هذا الظلام...)، ابتسم الشيخ وهو يترك لخادمه حرِّيّة ليُناظره في التهكّم، إلى أن استأنس أريحيّة من ذلك، فأوقعه في غبطة متعمّدة؛ ليذهب بالحديث معه إلى نوازع أُخرى ابتغتها نفسه، فبادره يقول: (يا حِنِين ما اَنْتَ غريب عن بيتنا ولا عن اَهلنا، في يوم شَا اَوصّيك وصيّة هالله الله بها...)، تماوج ضوء الفانوس واشيًا بيد حامله المرتجّة، إذ راعه ما سمعه من كلام الشيخ، وانتحب في صمت ممضّ قابضًا على ساعد سيّده الذي يسبقه بخطوة، وهو يقول: (اَمسياد ما يموتون قبل عبيدهم يا عم عيسى!)، فالتفت إليه الشيخ بنظرة ناهرة؛ رافضًا أنّ الأسياد أطول عمرًا من العبيد، ولفح مسمعه بقوله: (يا حِنِين قد طلبت منك تترك عنك هذا الكلام، لو ربّي يفرّق بيننا في الجنّة والنار كان اَنا قد فرّقت بيننا في الدنيا ولا خلّيتك تمشي معي هكذا.. أنا طلبت منك تحفظ وصيّتي، ما طلبت منك تذكّرني اَنّي شيخ واَنت عبد، هذا كلام ما يقوله اِلاّ طامع في الدنيا.. ووصيّتي هي اَنّك تذبح في يوم مقبل جمل كبير وتسلخ جلده ولا اَحد يراك وتحتفظ لي بالجلد حتّى اَطلبه منك).

كاد الفانوس أن يسقط لولا قبضة الشيخ وانتباه متأخّر من خادمه الذي راح يرتعد ممّا يلمسه من وداع في قول سيّده، ولم يُكملا

حديثهما لأنّهما صارا على مقربة من المنام الخارجي للأمّ فصمتا، حتّى وصلا ملقِيين التحيّة، وجلسا بجوارها، دون أن تردّ على سلامهما، حيث كانت تمسّد القيود ذاتها وتُرهف حسّها بين لحظة وأخرى، وتأمر بالصمت علّها تجد ريحًا من «بِشَيبشْ»، وهكذا طوال ساعة أو يزيد، إلى أن نصبت جذعها الأعلى جالسة فوق قَعَادَتها، وكأنّها استشعرت شيئًا منه لم يكن كما توقّعت من الفرجة الأماميّة للبيت بل من مكان آخر، وإذا به حقًّا يأتيهم من الجهة الخلفيّة للدار بتؤدة متناهية، وانتفضت «هَدِيّةْ» بالبشرى وكأنّها تسأل من ذلك المغفرة على خطيئتها، قائلة: (بِشَيبشْ رجع يا يمّه)، فغادرهم الخادم «حِنِين» ملبيًّا لهم رغبة في ذهابه لم يُبدها أحدهم له.

وقف الشيخ يتفحّص القادم إلاّ أنّ الضوء الخافت لم يُسعفه بشيء، فظلّ في مكانه، وقد قامت الأمّ تستدير حول سريرها متلمّسة أطرافه، لتستقبله وفي الوقت ذاته تمنعه من النزول إلى حيث ينام، فسبقهم «بِشَيبشْ» قائلاً: (أنا من الليلة ما عاد لي مكان في هذا الوادي. . .)، ولم يُكمل إلاّ والأمّ تستحضر نسلها الرفيع والمتجاوز منازل الشرف، إذ صرخت بأعلى صوتها: (أنا بنت السباع زايدة على الشرف بباع)، وذلك جرّاء عزمه على الرحيل من الوادي، وعصف الشيخ بالبقيّة الباقية من سكون الليل عندما صرخ في وجهه يستعرض هو الآخر سلالته لهول ما فاجأهم به، ويتعجّب مستنكرًا ما يسمعه، قائلاً: (أنا ولد مِشَاري ابن جابر ابن خير الخير. . اَبْن عُصيْرَةْ. . بلادك ما تسعك يا بِشَيبشْ!!. . .)، وخلال دقائق يسيرة فاضت ظلمة الليل بالرجال من حولهم حاملين عِصيّهم وبنادقهم وشوك النوم مدبّب في عيونهم المستعرّة.

استبقت النسوة إلى مكان آخر يحملن الأمّ مغشيًّا عليها وفي رفقتهنّ الشيخة «حِجْلةْ» قائدة قوم «آل هَايِل» في «ساق الغراب»، واحتفظن بجزعهنّ من ذلك الخبر الذي أعاده على مسامعهن جميعًا،

وبقين بجوار الأمّ في عُشّة «هَدِيّةْ» مبتعدات عن الرجال الذين التفّوا حول «بِشَيبشْ» مع الشيخ يُطارحونه فيما قرّره دون رجعة، وما لمسوا منه شيئًا عظيمًا يُبرّر له هذا القرار الخطير، ولا يكاد جَلَدُهم ينكسر أمام عناده حتّى يعودوا في ملاسنته بغضب المحبّ، إلى أن حضرت مجلسهم الشيخة «حِجْلةْ»، واستأذنت الشيخ «عيسى الخير» في الحديث، فأومأ لها باحترام واعتزاز، فقالت: (هذا ولدكم وسمعتكم.. فإن كان خروجه لصالحكم فخلّوه.. وإن كان خروجه عليكم، فاربطوه مع الحمير، وترون سرّكم يا أهل وادي اَلحُسَيْنِي محفوظ ليوم الدّين، ولو واحد من آل هَايِل هو حاضر ذا الحين أو غايب ذكر ليلتكم هذه فترون رأسي مرسول لكم قبل ما تتسامعون بأنّ وعدي هذا اِنحلّ.. ولدكم هذا يحمل بين اَصابعه دم ونار.. غسلكم من كلّ عار كان أو يكون.. فخلّوه، ولا تغرب شمس اليوم اللّي يهجّ فيه اِلاّ وهو في ظلام البحور، فلا تحدّوه!).

لقد ألقمتهم عنتًا باهظًا، فلزموا أماكنهم دونما كلمة، ولم يغب عنهم سؤاله عن الخراب الذي تقوله أصابعه وأنفاسه، إلاّ أنّه كان يعنيهم رجوعه سالمًا فقط دونما التبصّر جيّدًا في تفاصيل قد تتشبّث به لتخبر عمّا يُخبّئه عنهم، لقد رأته تلك المرأة الضيفة وعلمت من أمره ما لم يستبطنوه، فبالها لم يكن مشغولاً به مثلهم لذا كانت مهيّأة لفرض أيّ ملاحظة عليه، كما أنّها لا تغفل عن أمر رجل يأتي من ظهر البيوت متسلّلاً وهو ليس محلّ ريبة، بل هو من أهل البيت ومن أعمدته، فواجهته قبل وصوله إليهم بالأسئلة عن هيئته المشحونة بآثار كارثة ما، وقد باشرته بالحديث نظرًا لمكانتها الجليلة لديه، فأقرّ لها بكلّ شيء، وكان يعلم أنّ كلّ ما سيقوله لها من عناء هو ذاته الذي تُعاني منه وقومها في بلادهم، وهم خير حليف لهم ضدّ هذه المرارات المستجدّة والمتلاحقة.

كما اعتقد «بِشَيبشْ» فقد فصل في قلقهم إلى غير رجعة، حيث

تدبّر قاضية تهزّ قرار من كان يكيد لشيخهم وأهله، وذلك بتلقينهم درسًا متقنًا لن ينسوه ما بقوا في حدود بلاده، ولن يغفل عن ذلك الدرس «بني هَايِجْ» الذين دفعوا لقاء أباطيلهم غاليًا جدًّا، هذا الغالي سيردعهم عن أيّ خيانة يدسّونها لقرية «عُصيْرَةْ» لاحقًا كما جرت حساباتهم الخاسرة دائمًا، وهو ما يُكرّره «بِشَيبشْ» في طيّة نفسه.

سيصبح الأمراء الجدد على مصلاهم هشيمًا لنار تركها تستعرّ فيه ولن يُوقف لهيبها ألف رجل، أمّا رسول «بني هَايِجْ» فلن يتعرّفوا عليه بين الحطام، حيث انهال على رأسه ببندقيّته، بعد أن أيقظه كيلا يأخذه على غرّة، وربط عنقه إلى البندقيّة وشدّها من طرفيها إلى سقف المسجد، وتركه يتدلّى كفتيل يشحذ ألسنة اللّهب من فوقه، واعتلى المسجد بعد أن سدّ الباب الوحيد بجريد الأثل اليابس، وأغرقه بالزيت من جميع الجهات وأضرم فيه النار.

كانت تلك هي الليلة الرابعة على متابعته للرجل، وقبلها كان يراه بُعيد الغروب يخرج من القرية باتجاه «صَبْيَاءْ»، ويدخل إلى منازل الرّجال الأغراب، ثمّ يأوي إلى مصلاهم الكبير، وليلة الجلل الأخيرة رآه على النحو ذاته، وقبل ساعة من انتصاف تلك الليلة، كان قد وصل إلى «صَبْيَاءْ» مرّة أُخرى، هذه المرّة عاد وظلّ منزويًا في أحد الأزقّة متوخّيًا الحذر من أيّ ضالّة ليليّة لا يتوقّعها، حتّى لاحظ أنّ رجال القرآن ـ كما سمّوهم ـ ينطلقون إلى المسجد فرادى ثمّ يعودون إلى معابر معروفة يقف في نواصيها بعض العساكر، وهكذا حتّى حانت اللحظة التي وجدها مواتية ليُلقّنهم ذلك الدرس.

كان اللّيل غزير الظلام وهو يتسلّل إلى فناء المسجد، بعد أن تأكّد من خلوّ نواصي تلك المعابر من الحرّاس، إذ كانت تفضي إلى منازل الأمير وأعوانه وإلى مهاجع «المقرئين»، ولم يكن في المسجد غير الرّجل المطلوب الذي صار في فترة وجيزة ذا أهمّيّة مريبة لدى الأغراب، وذا منزلة تُؤهّله ضيفًا عزيزًا لدى أُولئك القوم، ولأكثر من

ليلة، عرف أنّه يستطلع من أمور قوم «عُصيْرَةْ» ما يكون شَرَكًا لهم لدى هؤلاء القادمين من الشمال.

يُحدّث نفسه من قبل بذلك، ويُكرّر: (إذا أقدمت على قتله هنا تحديدًا فلن يُحزن ذلك أيّ شخصٍ في كلّ المِخْلاَف من البحر وحتّى الجبل، ولن يتألّم لميتة هذا الخسيس أو يُطالب بدمه أحد، طالما أنّه قُتل هنا، فوجوده بهذا المكان سيُثبت وضاعته وتواطؤه مع الإمارة)، وذلك المكان هو المسجد الذي لا يُصلّي فيه أحد من عشائر وادي «اَلحُسَيْنِي» رفضًا لعامريه الأغراب.

لم يكن «بِشَيبشْ» يفتّش عن عذر مقبول يدفعه لقتل الرجل؛ فهو لا يُنازع رغبة نفسه في القضاء عليه منذ أوّل يوم رآه فيه يدخل وادي «اَلحُسَيْنِي»، كما لو أنّه أحد الغرباء، لكنّه يتبع خطوات إقدامه تفكيرًا في مغبّة تصرّفه ونتائجه على قومه، إثر أيّ فعل يُقدّره حسنًا لصالحهم؛ فالفعل نفسه سيكون خطأ فادحًا لو ارتكبه قبل تلك الليلة بالذات.

وكان «بِشَيبشْ» لا يُخفي على نفسه أنّ كلمة «اَبْرِيْرِي» التي استرذل بها رجل «بني هَايِجْ» على الشيخ «عيسى» لحظة جعله ابنًا لذكره، هي كلمة بحجم الكوارث العظام، ولو أنّ الشيخ أو أحد رجاله سمعها عند تلك اللحظة لأحال أمسية فرحهم إلى ساحة وغى لا سبيل من خلاص بعدها؛ فهذه الكلمة ستنهي على وجه الخصوص حياة الصبيّ المحتفى برجولته، فلا يُتصوّر أن يسمع «حَمُود»، في حفل ترقيته إلى صفّ الرجال، أنّ والده وكبير القوم، ما هو إلاّ من صلب عابر، فهذا مدعاة لخراب طويل سيشمل كلّ «المِخْلاَف».

وهذه الاحتمالات المخيفة كان عقل «بِشَيبشْ» يتضمّنها بكامل تفاصيلها، لكنّه أدقّ القوم في تمحيص مثل هذه الأمور، وأحرص على معالجة كلّ الأخطار، فاستحسن الصمت على جحيم لم يكن لها وقود غير قلبه، إلى أن حلّت ليلة تقديم العرض الأكبر، الذي سبقه تقصّيه أمر الرجل والتأكّد من أنّه يذهب للمكان ذاته مرارًا، ثم قدح في الأمّ

غضبًا على ابنها عندما قال من تحت سريرها: (يا صَادِقِيّةْ هناك شرّ كبير!)؛ عنى بذلك أنّ الشيخ يُخفي سرًّا عن أمّه وعليها أن تعرفه بنفسها، وبذلك ستنشب مناوشة صغيرة بين الأمّ وابنها، ثم تنطلي الخدعة على «هَدِيّةْ» فتحلّه من القيود ليفكّ ذقن زوجها من يدي الأمّ، فيكون حُرًّا نائيًا عن مجلسهم، فيضع على نفسه عهدًا بالإياب للأمّ الجزعة من خروجه عند تلك الساعة، هكذا بكلّ دقّة دبّر الفصل الأوّل من سيرة الخلاص الذي يستشعر دربه طويلاً وشاقًّا.

كانت رائحة النار والدم بين أصابعه مزيجَ نصرٍ يقطر على جبين خالته المتعبة، وهو يغمس كفّيه بالماء ويُخرجهما، كلّ راحة كفّ تمسح ظهر الكفّ الأخرى قبل أن تمسّدا وجه الأمّ الغارقة في فخرها به، والمنزعج بالها، في الوقت ذاته، بأمر رحيله، إذ لاحت أمامها ليلة ولادته، حيث دفنت حبل سرّه في الوادي، ممّا يعني أنّ أوّل سيل عقب ولادته قد جرف معه ذلك الحبل، وهذا ما يُنازع حاجتهم في بقائه بينهم للأبد، فهو سيرحل باحثًا عن مستقرّ حبله السرّي، وكانت الأمّ تُخفي عنهم جميعًا حتميّة رحيل «بِشَيبشْ» منذ مجيئه للحياة، ويُمكن تأجيل هذا الرحيل لكن يستحيل منعه.

في الثلث الأخير من اللّيل كان قد انفضّ جمع الأهل بعد مداولات ذهبت مجملها للتأجيل حتّى يتّضح النهار القادم بعد أيام فرحهم الحالّة، وذهب الكلّ إلى شؤون ما تبقّى من الليل. وقد استطاع «بِشَيبشْ» أن يُقنع الأمّ بتناول وجبة سُحورها على أن يُشاركها الأكل، وشريطة أن يُذعن إلى أمرها فتُضمّ له قَعَادَة إلى قَعَادَتها لينام لصقها؛ عوضًا عن شدّه إلى الوثاق من تحتها.

بقي يحكي لها معركته بمرارة تتحسس وجودها في صوته المتهدّج، مع اتضاح كربه من نفور رأسه عن أصابعها كلّما مررتها بين شعرات قُذاله، وهذا ما لم تعتده منه في ليال خوال، كانت تخيط

حميمة لقلبه وهي تقول له: (كأنّك قضيت على ولد بني هَايِجْ بسبب صاحبةْ. . .)، وذهبت أصابعها لرفض منه، ليس لكونها مازحته بأنّه قتل الرجل بسبب امرأة عشيقة، فهذه محض مداعبة، ولكن لأنّه فعلاً منزوع الروح إلى أمر خفي لم يكشفه لأحد مطلقًا، لذا من فورها كبريقِ باتر سألته: (بِشَيبشْ.. أنت ترى الموت ذا الحين؟)، أجابها وكأنّه يتوخّى نصل سؤالها: (أنا الموت. . .)، وكان فادحًا في جرف الليل من صدره بآهة لم تذهب بعيدًا، إذ انقلبت الأمّ إليه تقبض على مكمن تلك الآهة بكلّ قوّتها، وتقترب من وجهه لتتحقق من أنفاسه وتدعوه لأمان روحها أكثر، ثمّ آوت لرابطة اليقين بينهما، حتّى بثّ إليها جرحه: (زايد على عشرين سنة ما حطّيت راسي للرقاد ومِعْتِقْ بعيد عنّي يا خالة. . .)، فأدركت الأمّ أنّ سبب همّه هو فقده لبندقيته «مِعْتِقْ»، لذا سارعت بمدّ يُمناها لفمه تكتم صرخة لو أطلقها لسمعها من في البحر ولعانقت الجبال.

لقد كان «بِشَيبشْ» صاحب صرخة قويّة، لا يأتي بها إلاّ لأمر يهمّ العباد، خاصّة عندما يبيت يتتبّع السيل من عروق الجبال فيسوق ركابه الهياج حتّى يصل به إلى وادي «اَلحُسَيْنِي»، فيُنادي الرجال في مخادع النساء أن يميلوا ميلة كاسحة ليُقيموا سدود بلادهم أمام السيل قبل أن يصل لربوع غيرهم من القبائل فينالهم العار، ويصرخ كلّما أمر شيخ بأمر جديد، أو كلّما حلّ قاهر ما بقومه، وقد أذنت الساعة لتلك الصرخة لولا كفّ الأمّ التي منعته، فقد علمت أنّ البندقيّة ستغيب ليس لليلة واحدة فقط بل لبقيّة حياته، فهو تركها صليبًا للرجل القاضي في المسجد الهشيم، ولن يمسّه ضرّ بعد ليلهم ذاك كهذا الضرّ الذي يتساوى في وقعه مع موت زوجته.

كان كلّما قبضت على فمه استنجد بجسدها، يغرس جذعه الخشن بجذعها المتهالك، إلى أن صار جزءًا منها، فيسري من مكانهما نشيج مهيب، يتهادى بمرارة قاسية، سأل الشيخ الله وهو يستعدّ لصلاة الفجر

ألاّ يصل لمسمع أحد غيره، وكان يعرف أيّ حسرة تلوك صدريهما على البندقيّة في تلك اللحظة من السحر، وأيّ ضيم سيحوكه الزمن القادم للجميع بسبب هذه الكارثة.

قديمًا كان الشريف «مِشاري» يذكّرهم بأنّ البنادق تموت مع أصحابها، ومن يعود لحياضه بلا بندقيّته فكأنّما عاد بلا ذَكَره، فيقضي الحياة إن رغبها ذليلاً، وكلّ بندقيّة مات صاحبها عنها؛ فإنّ لها الجبين الأعلى بالدّار، فتُعلّق في ناصية البيت إلى الأبد. يُعيد الشيخ قول أبيه الشريف الراحل، كلّما أرهف السمع لبكاء أمّه ومحضونها صاحب البندقيّة، وعندما آب من صلاته، كان المكلومان داخل العُشّة الكبيرة، وقد بدا عليهما تفكير آسر بدّده حين دخل عليهما بقوله: (ما بقيت لي حياة ولا ذكر في الدنيا يا بِشَيبشْ ومِعْتِقْ ما هو معلّق بهذي العُشّة.. والله ما اَموت اِلاّ وقِد حطّيته على صدري وعلّقته بيدي هذي)، ومدّ كفّين كفلقتي طين حُبْلَيين بالمطر، فارتوى قلباهما بهما، ولتسري في روحيهما الطمأنينة التي ما وجدوها يومًا من غير هاتين الكفّين اللتين أقسم الشيخ بأن تعلّقا البندقيّة العزيزة قبل موته.

وحينما مضى كدرهم عن فضاء فجرهم ذاك، أفصح الشيخ أمرًا، كان يُفكّر فيه، حين قال لهما: (بلا شكّ الجماعة اليوم نراهم في ميدان قُنَيْدَةْ يحضرون بقيّة هَوْدَنا وما اَدري ما هو يكون ردهم)، استوت الأمّ في جلستها حاثة «بِشَيبشْ» ليردّ على اعتقاد الشيخ في أنّ أولئك المقرئين سيكونون غدًا في ميدانهم يكملون معهم بقيّة حفل التهويد بفتاهم «حَمُود».

رغم أنّه لم يُحرّك ساكنًا في الفراش، اِلاّ أنّه علّق يقول: (بكرة ما اَظنّ اَنّهم يحضرون واِن حضروا هَوْدَنا فظنّي اَنّ ما اَحد منهم راح يتكلّم...)، بهزّات من رأسها أيّدت الأمّ وقالت: (لو تكلّموا كَاَنّهم يتّهمون أهل عُصيْرَةْ وهم بلا دليل)، وليُمحّص شكوكه أضاف الشيخ: (سكوتهم يعني اَنّ في نفوسهم حاجة!)، قال «بِشَيبشْ» وهو ينهض

جالسًا منذرًا بذلك انتباههما: (أظن أنّهم ما راح يتكلّمون لكن كلّما سكتوا كان هدفهم أبعد. . .).

صمتوا عند دخول «هَدِيّةْ» عليهم بوجبة الـ «صُفّيرةْ» التي تتكوّن من حلوى المشبّك والتمر والسمسم وقهوة القشر، وتركتها للرجلين، فالأمّ على صيام، وانطلقت عائدة بعد أن قرأت في وجوههم العلامات التي تُفرّق بها بين قبولهم بجلوسها معهم أو رفضهم، وهذا ما اعتادت عليه طوال شبابها المشرق.

استفهم الشيخ قائلاً: (بِشَيبشْ ما هو قصدك في قولك خطتهم؟)، وتلاقت يُمناهما في صحن المشبّك حين أجاب: (هَاذُولا قوم دولة ويُفكرون كراعي يرمي قبل غنمه)، وعادا، الأمّ والشيخ، ساهمي البال من جديد فيما قال، لكنّهما هذه المرّة لم يُثيرا سؤالاً جديدًا حول ما ذكره عن رجال الإمارة وتشبيههم براع يُفلت غنمه من رقابته لحظة فيرمي أمامها حصاة رادعة، وهذا في ظنّهم شأن كلّ من يُرتّب خططًا هدفها مستقبليّ ولا حاجة له بتحقيق الهدف عاجلاً، هو ذاته شأن الدولة التي يحوك رجالها خططها للغد البعيد، وهو يرى أنّ سكوت الإمارة عمّا فعله لا يُمكن أن يكون هوانًا من الرجال الأغراب، فهذا الاعتقاد لا يتطامن له أحد إلاّ من يُقلّل من أمر الدولة ككيان شامل له عتاده وقوّته، أمّا هو فيعرف أنّ قيادة الإمارة تركن إلى قوّة جبّارة؛ لذا فإنّه يؤكّد أنّ ذلك السكوت ما هو الاّ حجر سيضعه الأغراب أمام «عُصيْرَةْ» ذات يوم؛ لتعود ورجالها حيث تبتغي الإمارة، وهو تمامًا ما يفعله الراعي حينما يرمي أمام غنمه ليخيفه فيعود القطيع راجعًا إليه.

قطعت الأمّ شائكة فكرهم بعبارتها الشهيرة: (الرجال يموتون وما يبقى اِلاّ النساءْ. . .)، مازحها الشيخ: (والنساءْ اِيضًا رجال يا صَادِقِيّةْ اَنتِ اَوّلنا في اليوم الشقي واليوم السعيد)، قال «بِشَيبشْ»: (ما اَظنّ اَنّها معانا في اليوم السعيد. . .)، وراح يُخابثها في فجور تعرفه منذ صغره،

إذ يُكرّر دائمًا عليها أنّ سعادتها ولّت يوم ولّى من كان يعشقها، وقد فضّلت أن تبقي لروحها سؤدد الراضين بدور القيادة والزهد فيما بقي من مؤن الحياة، وقد أثار الشيخُ عليها «بِشَيبشْ» ليُوقظا ما تبقّى من عصافير كسالى لم تبثّ بعد زقزقاتها في الأرجاء، حيث سأله في ترقّب مبهج: (ما تقصد يا بِشَيبشْ؟ عسى يومها السعيد غير يومنا؟)، وعلى النحو الذي يُريده الشيخ، أكمل «بِشَيبشْ» يقول: (هي عارفة يا عيسى أنّ الميت ما عاد يرجع، ما تراها قاطعة أملها؟)، ويُعيد في خبثه حول العاشق ذاته الذي كابر ليموت دون أن تحياه زوجًا، والآن هي قاطعة الأمل في إيابه، فردّت عليهما خبثهما قائلة: (يا هيّن اَنت وهُوْ هذاك قِد مات وخلاص، وما اَظنّ اَنّه دُفن بواحد يشبه حقّ الواحد فيكم...)، وانكفأت الحروف بفمها وكأنّها تترك للخجل أن يُداعب مُحياها المتشبّث بتورّد قديم، بعد أن سخرت من ذَكَرَيْهما اللذين يقلاّن في صلابتهما عن ذَكَر الميت، فارتفع صوت مجلسهم بضحك ابنها الشيخ، ثمّ سألها وهو يبتعد قيد عصاها مرّتين كيلا تُؤذيه بضربة خاطفة: (يعني لو بَعث الله اَبْن حُسَيْنَةْ من قبره راح تتزوّجيه؟)، فرفعت عصاها باتجاهه لتنهره عن هذا السؤال، إلاّ أنّ «بِشَيبشْ» فجّر مقولة تركتها تصيح في وجهه إذ قال: (يا عيسى هذي عجوز حتّى الحِرْ ما عادوه معها وهي ذا الحين في رجا حق اَبْن حُسَيْنَةْ صاحبها...)، عندها صاحت للخلاص من فمه التّابي الذي وصفها بالعجوز التي لم تعد تملك حتّى الفرج وأنّها ما زالت تنتظر ذَكَر عشيقها الراحل، وقامت لتنال منه ما يُذهب غضبها وحرجها معًا، فاستدبرهما مهرولاً ومغمورًا في ضحكه العالي، ومع صخبهم المبكر كان قد تكالب ضوء الصباح العاجل بنهار آخر على بلادهم، واستبق كلّ من في الدار من أهل وضيوف تهلّلهم غبطة يسألون جميعًا عن سبب ذلك الضحك، فاطلعوا على ما يُمكن الإفشاء به من ممازحة «بِشَيبشْ» للأمّ في أمر انتظارها لعاشق قديم قضى. وأسرعت الجواري في إعداد طعام الإفطار من

«الحِقْنةْ» بعد أن عملن على استخلاص هذا اللبن الطازج المزكّى برائحة الزبدة منذ الفجر، و«اَلخُلاَصَةْ» من الطحين الحامض والسمن المصفّى منها والخبز الساخن والزبادي و«الرَدْجَةْ» فضالة الحليب المتخثّر طوال الليل، وشيء ممّا تبقّى من عَشاء البارحة كالـ «عَزْبَةْ» المكوّنة من الخبز المفتوت المرشوش بالسمن.



(٤)

لقد توقّفت كلّ نشاطاتهم اليوميّة منذ أربعة أيّام مضت، وهذا هو اليوم الخامس الذي ينقطع أغلب الرجال والنساء عن أعمالهم متفرّغين لأيّام شُهْرَة «خَتِين» القبيلة وعتيقها «حَمُود» فارسها القادم، وعليهم أن يقضوا أسبوعًا كاملاً بنهايته يتمّ الختان وينتهي كلّ شيء.

عصر ذلك اليوم كان الجميع في «قُنَيْدَةْ» ـ ميدان التجمّع ـ الواقع في منتصف القرية من الناحية الجنوبيّة، حيث مطلّها على الوادي والمزارع التي تموج على جانبيه بعرانيس الذرة ومزارع البقول، وعلى حافّة المطل خلف الصفوف كان بعض من النساء الرحَّل، العاملات في المزارع، يقفن لمشاهدة العروض وينشرن بين حين وآخر أغنياتهنّ في عريس الحفل ويطلقن الزغاريد بعد كل نوبة من لعلعات البنادق، كما أنّ نساء القرية الأخريات يقفن في مداخل بيوتهنّ يشاركن بحبور لا حدود له بقيادة الأمّ وجواريها.

كان الرجال يصطفّون في أداء رقصة «اَلعَرْضَةْ» كأنّهم نضد من سنابل «اَلدّخن» الذهبيّة بأردية زاهية الألوان، وقمصان مقلّمة وأخرى مشجّرة، أسفلها أُزر مشغولة بخيوط ملوّنة في تدرّج متموّج فوق كعوبهم، ومصبوغة منذ أسابيع بصلب أحمر لامع يخرجونه من لبّ السدرة، وتفوح منهم رائحة طيّبة، وقد رفعوا أطراف أُزرهم اليمنى قليلاً عن سيقانهم أثناء الرقصة، وحول الخصر حزام يتمنطق به كلّ

رجل منهم، معتدًّا بجمال شكل الحزام ولصقه أمشاط الرصاص الفضِّيّة النافذة بانتظام ما بين لحظة وأخرى.

كانوا قد خرجوا قبل ساعة من منزل الشيخ، في صفّ مهيب لرقصة «اَلدّمَةْ»، وقد جللوا الأرجاء بالحبور حين أطلقوا أصواتهم الجهورية، كما يفلعون في طريقهم إلى الحرب، يُرهبون العدو، مرددين لأهاليهم أنّ في «دَمّةْ» مسيرهم بطلهم الأسطوري «بُوقيش» الذي يقهر لوحده جيشًا من سباع، وإلى موقع النزال يطلبون الزواد من اللبن والخبز. والقاع من تحت أقدامهم يهتز، نشروا إلى ميدان «قُنَيْدَةْ» يُدمدمون:

(دمّتِي دَمّةْ بُوقيش
قاهِر اَمْجِعار في جيش
دمّتي دمة بُوقيش
واالا اَمزَبَارةْ بِحِقْنَةْ وعيش)

كانوا رُباعًا وخُماسًا يتكاتفون في خطوات شبه راكضة باتجاه الميدان، وأجسادهم نافرة للسماء، مظُهرين فتوّتهم ويثيرون حماسهم بتلك الأهزوجة العسكرية؛ ثمّ حين وصلوا انقلب عدد منهم إلى «اَلعَرْضَةْ» مهرولين جيئة وذهابًا؛ ليفيضوا قوّة على الأرض، يضربونها بباطن أقدامهم العارية، يطرقون أديمها، يُخبرونها أنّهم عليها وأنّهم لها ومنها. هكذا اعتادت الأرض قربهم على الدوام سواء في حرثهم أو حصادهم ورعيهم، وحتّى في رقصاتهم التي تُؤكّد ارتباطهم بباطنها الذي ما فتئ يهب الحياة ويُرغّب أفئدتهم إليها، وأكفّهم للسماء تتشبث ببنادق «اَلنّبُوتْ» و«الجنابي»، تملأ الفضاء وميضًا متتابعًا دون توقّف، كنجوم ليلة صيف صريحة اللّمعان، وتزداد طلقاتهم وهجًا كنيازك صغيرة بعد الغروب، إذ يُكملون ليلهم حتّى بعد العشاء بقليل؛ لينقلبوا إلى وجبة العشاء ويكملوا رقصات اللّيلَ إلى تمام السحر منه.

أمست للصفوف ثلاثة جوانب تتحلّق، والفتى «حَمُود» يختال

أمامها، وخرج رجل لا يعرفه أحد سوى الأمّ، وله طلعة نضرة آسرة أسكنت الحفل إلى شخصه، ما عدا نغم الطرق لبعض الدفوف ظلّ منبثًا في المكان. راح الجميع يستمع إليه، لحظة تقدّم بتهويدة عالية، بدأها بترنّم صوته الرخيم، ويُصْعِدها شيئًا فشيئًا درجَ سلّمه الموسيقي الخاصّ، مطلقًا عنان شاعريّته، وفيها يبدأ بـ«لابتي»، وهم أترابه، فيُريهم كيف أنّ أهل سروات «ساق الغراب» وأسفلها «تِهَامَة» في جسارتهم مجتمعين، يشبهون جملاً ضخمًا اقتناه، يزيد على الجمال، فإذا سار على هذا الجمل عصرًا من مدينة «الزُهْرَةْ» الواقعة شمال غرب اليمن، فلا يُمسي إلاّ في «سايلة حلي» النائية شمالاً بمسيرة خمسة أيّام، ويرى من فوق جمله ذاك جيوشًا تزحف إليه، فيُبصر من الشرق «قوم الذُّلول»، ومن الغرب بحرًا يُشاهد الأتراك والمصريين، وأنّ لهذا الجمل خطامًا لم يف بمقاسه حتّى سعف نخيل أكبر الأودية وادي «مُوْر» في اليمن ولا وادي «اَلشُقَيْق» شمال «المِخْلاَف»، حيث يبلغ طوله قدر المسافة بين عدن والمدينة المنوّرة، البالغة ما يزيد على خمسين شدّة قافلة، ولهذا الجمل من البأس الشديد والقوّة الخارقة ما يُقيم القيامة على الغزاة بضربة خفّ فقط. هكذا تناهى إلى الحاضرين غناؤه في بلادهم مزدهين بهذا البازل الأسطوري الذي تقوم القيامة بضربة من خفّه، وقد حشد المغنّي لابته ليُنشد عليهم بصوت شجي:

(يا لاَبتِي وانِّي قَنَيْت
اَلعُوْدَ بَازِلِي
يُنْشُرْ مِنْ الزُّهْرَةْ ويَمْسِي سَايِلَة حَلِي
زايدٍ على الجِمالِ
اِنْ نظرت على اَليَمَانِي
رَيْت ذَا في اَلشَرْق جَانِي
واِنْ نَظَرْت على اَلشِمَالِي
رَيْت ذَا في البحر جَانِي

وسِنَامُهْ لِلسْمَا
وخِطَامُهْ من عَدَن حتّى المدينةْ
ما تِوَانَى فَاتِلُهْ
طُفيْ وادي مُوْر ما سَدُّهْ فِدَامَةْ
زايدِ طُفيْ اَلشُقَيْق
وإنْ هَبَدْ بالخُفّ
فتقوم القيامةْ)

ولم يكمل زهوه البديع بتلك البلاد؛ حتّى ساقت الأمّ أسراب الحفل إلى منبعها الغنائي، عندما خرجت من صفّ النساء، وبدأت تُنادي هي الأخرى أترابها ورفاق عمرها، فتقصّ بحداء أخّاذ ما تراه في مقامها من ظهور دولة «المهدي المنتظر» بقوم وخيول سود، مثل ليل مظلم، وإن ضربت في «مِنَى» الواقعة شرق مَكّة، تهتزّ صنعاء من قوّتها، وتغش بسوادها سروات «ساق الغراب»، فتنكسر شوكة نسل كلّ جاحد بها، ولا تقوم له دعوى بعدها.

عندما خطت باتجاه صفّ الرجال، أسرع «اَلسّاحِليّ» يُكاتفها والرصاص يُومض من فوقهما، فأخذت ريادة المساء وهي تُنشد:

(لاَبِتي وانِّي تَرَايَا في مَقَامِي
دولة اَلمَهْدِي كما لَيْل اَلظَلاَمِي
قَوْمَها واَلخِيل سُود
يوم تضرب في مِنَى تهتز صنعاءْ
واَغْتَشَنْ ساقَ الغراب
واَنْثَنَى بَذْرَ اَمْجُحُود.. وما عاد لُهْ دِعِيّةْ)

وبذلك أوقدت حماسهم ونادت في «غُبْرِي الليل»، بصوت مكلّل بالحبور؛ لتقديم عرضه الفريد: (يا غُبْرِي.. هذي ليلتك)، ولم تُكمل نداءها له حتّى خرج يُهرول أمام الجميع بتناغم مع طرق الدفوف العالي، يعرض براعته وقدرته على رمي السلاح عاليًا والإمساك به،

والقفز من فوق شجيرات «اَلمَرْخ»؛ ليعلو قيد قامة معتدلة، ومع كلّ قفزة له تنفرط الزغاريد، وينوس من خلفه الغبار الذي يُنسب اسمه إليه لكونه ولد في يوم مغبر؛ وكان يزيد علوًّا مع صوته وحماسه؛ حتّى تُغيّبه هالة من الغبار من شدّة حفر قدميه للأرض لحظة القفز، ومع كلّ غبش يأخذه من عيونهم كان الرجال يصرخون: (آآآآآوو)، وكان صراخهم يُضرم لهيب النشوة في كلّ قرية يصلها على امتداد الوادي، وتتابع الرجال خروجًا من الصفّ وإيابًا إليه؛ فيخرج في كلّ نوبة جديدة رجل آخر يستعرض بمهارات أُخرى، وكان جميع من خرجوا للعرض ينتشون بمناداة بلاد الساحل التي تشتهر بكثرة خيراتها قائلين: (وااالا ولا الساحل.. هاآآآو)، نافين عن «الساحل» أيّ قرين، فالساحل مشهور بمحاصيله، وهو تحريضهم الوحيد على الفرح، وكلّما مارسوا فخرًا جديدًا كان حاضرًا بتلك اللازمة (وااالا ولا الساحل.. هاآآآو)، وبقوا على هرولتهم الراقصة حتّى أمرتهم الأمّ، بالالتفاف مجدّدًا، ليشكّلوا سربين متقابلين في رقصة «السيف»، واصطفّوا من جديد، يُثيرون أمسيتهم بالأهازيج والطرب المتواصلَيْن؛ حتّى تناهى إلى مسامع الأمّ طلقات تأتي من خلف الوادي، وشكّوا أنّ في هذه الطلقات ما يُرغب بعض الحضور عن حفلهم والانقلاب نحو مصدرها الذي كرّر هزيمها، ومغادرة المكان للحاق بالحفل المقام في الجانب الآخر لواديهم، ممّا يعني أنّ هناك من يستقطب فضول الحاضرين وبعض النّاس الذين يتوافدون عادة من قرى واقعة على الجانب الآخر من وادي «صَبْيَاءْ»، وكان في تتابع إطلاق النار دعوة مبطّنة لمقاطعة أمسية «عُصيْرَةْ» كيدًا لأهلها، هذا بحسب اعتقاد الأمّ، كما نقل لها الخاصّة، مع أنّ جميع المنتظمين في الرقص لم يُولوا لعلعات الرصاص أيّ اهتمام كما أنّ رصاصهم، هم ذاتهم، لم يتوقّف.

وفيما غمرة السعادة تحفّهم، وبصمت ودراية محنّكة، وجّهت الأمّ عددًا من الفتيات بالصعود إلى أعلى تلّ القرية، من خلف الحفل،

وتسليم ضفائرهنّ للريح، والتمايل طربًا مظهرات غنجهنّ للناظر البعيد، وشيئًا فشيئًا تقاطر الناس شيبًا وشبابًا من منافذ واديهم المؤدّية لقرى وادي «صَبْيَاءْ»؛ لينظروا لأمر هذا الحفل الذي تدفّق حتّى بالفتيات من أعلى تلال وادي «اَلْحُسَيْنِي»، وكان من شأن وصول تلك الجموع الجديدة أن قطعت الأمّ على من أراد أن يُفتر حفلهم مراده، وأشغلت لبّ الجميع بفتنة الفتيات، وكان لها ما أرادت تمامًا عندما توقّف الرصاص البعيد عن مراوغاته الخاسرة.

ما إن كلّل الليلُ القريةَ والوادي بظلّه الهائل، حتّى انقلب الفرح إلى حظّ نساء القرية جميعًا اللاتي جلبن من بيوتهنّ الحبوب في محفل «اَلْمَطْحَنْ» المصاحب لمناسبة الختان، إذ قَدِمن بأدوات ومؤن الطحين للمشاركة في أعباء البيت المضيف، وكانت «عَلِيّةْ هادي» تقود السواعد في هذا المحفل الخاصّ بالنساء. وحينما حلّ وقت رقصة «المَعْشَى» خرجت الفتيات لمشاركة الرجال فيها، ولا يتمّ إطلاق الرصاص في هذه الرقصة نزولاً عند رهافة الأبكار شريكات الشباب في الميدان وتسليمًا وتقديرًا لأرواحهنّ الرقيقة. كانت الفتيات قد وقفن أمام الصفّ واختارت كلّ واحدة منهنّ رجلاً تروق لها مكاتفته، فأشرق الصفّ بثيابهنّ وزينتهنّ البديعة. وإلى جواره عازف الناي «ولد بلال» بدأ «المُوَلّش» قائد الصف بالـ «توليشة»: (واااااااااااارَشَيْ)، تلك اللازمة التي يصدح بها عاليًا ليحرّك ساكن الأعماق، فيهمي صوته بالناي؛ ليسريا معًا على سلّم موسيقي يتهادى في المحيط نازعًا من الأرواح نايفة الفرح، ويوزّعا النغم الآسر على الصفّ المتموّج من أسفل إلى أعلى دون خطوة أماميّة أو خلفيّة، وذلك حينما يدنو الراقصون والراقصات للأسفل، ثمّ تنتصب الظهور صعودًا في رغبة جامحة للقفز بالجذع العلوي، مع بطء متعمّد يعطيهم صورة القصب المتغنّج بنسيم المساء، ودون أن يصدر من الأقدام صوت على الأرض.

كانت تعبق في المكان نباتات عطريّة تلوح من رؤوس الفتيات

والرجال تتخلّلها أنفاس الحبور والكبرياء، إذ يتّحد الجميع في اللحظة ذاتها بابتسامة لا يُمكن إظهارها في أيّ ظرف سعيد آخر، كأنّما هي ابتسامة خلود هذا الجمال الذي تتقاسمه أنامل الفتيات مع أصابع الرجال قبل كلّ شيء وهي تتشابك ظافرة بجسد واحد صقلوه بروح واحدة.

بعد الغروب قرّروا فجأة أنّ هذه الأمسية هي آخر ليلة لـ«الشُهْرَة»، فصباح غد سيتمّ ختان ابنهم، وكان هذا القرار مبيّتًا بالإجماع من الشيخ وخاصّته مع الأمّ و«بِشَيبشْ» الذي كان يغيب عنهم ساعة ويعود، لانشغاله بمتابعة أطراف القرية من الجهة السفليّة، معابرها ومنافذها إلى جهة «صَبْيَاءْ»، حيث يُخشى دخولها حربًا، بعد حادثة الحرق والقتل ليلة البارحة، رغم أنّه لم يصلهم حتّى نهاية أمسيتهم ما يشير إلى موقف الإمارة حيال تلك الحادثة، فالأمور تسير في صمت غريب، وتجري وفق ظنّ «بِشَيبشْ» عندما قال إنّهم يتحرّكون بخطّة بعيدة المدى، ولا يُمكن لأحد أن يستشرف مرادهم، أو يتنبّأ بأهدافهم من وراء هذا التعامل الغامض مع حدث جلل يمسّ قيادتهم في المنطقة، فلم تكن عمليّة حرق مسجدهم أو قتل شخص ينام فيه، بالأمر الهيّن. وهذا الموقف المتحفّظ للإمارة يُعزّز لديه قناعة بأنّ هناك أمرًا عظيمًا يُساس ضدّهم، سيظهر ذات يوم، هذا ما يقرّره «بِشَيبشْ» صامتًا مع الأمّ والشيخ.

في الليلة ذاتها، أمرت الأمّ ابنها «سُبَيعْ» بمرافقة الجميع وعدم مغادرة مجلسهم، فهي تعرف أيّ منقلب حميم يسري له، لم تُكاشفه به، إلاّ أنّها ألزمته البقاء بينهم لحاجتهم إليه، كما أنّ «بِشَيبشْ» كان قريبًا لا يفارقها. حين توقّفوا عن رقصة «المَعْشَى» منعتهم الأمّ من إضرام بقيّة أمسيتهم برقصة «اَلرّبِشْ» التي ينوون تقاسم فتنة أدائها إلى بداية الثلث الأخير من الليل، إذ أخبرتهم أنّ القمر لا يكتمل لاحتراقه هذه الليلة، وبذلك وجدوا ما ينشغلون به، رجالاً ونساء على السواء، بعد صلاة عشائهم، فالرجال خرجوا يحتطبون ويجمعون الأخشاب في وسط

ميدانهم «قُنَيْدَةْ»، ثمّ أوقدوا نارًا هائلة، جريًا على عادتهم كلّما خسف القمر، إيمانًا منهم بأنّ النار الكبيرة ستقود القمر إلى مداره الصحيح فلا يحترق، كما يظنّون في أمر احتجابه، والنساء وضعن على مطاحن الحبوب ماء ليلمع القمر فيه ويرى جسده المحترق، فيختار طريقًا أفضل للخلاص.

بات الرجال يلوبون على النار ويُكلّلون ألسنتها بالحشائش والأغصان الهشّة؛ لتزيد من علوّها، وتقترب أكثر من القمر، الذي بدا لهم يتنحّى عن الطريق التي أحرقته، أمّا النساء ففي أفنية البيوت واقفات على الكراسي، أيديهنّ وأعناقهنّ ممدودات إلى السماء، ينتحبن جمال القمر ومطاحنهنّ مبلّلات بالماء في انتظار لمعان بريقه فيها، ولم ينل الجميع خلاص القمر إلاّ حين هلّ من الليل أثقله، فانتهت حالة الخسوف وانقشعت الغمّة الطويلة، وانقلب الرجال إلى أهاليهم متعبين من ليال طويلة سابقة اكتملت بالليلة الأخيرة التي أتت بقدرة إلهيّة عجيبة، لا يرون مخرجًا منها سوى ما جروا على القيام به.

بُعيد الفجر أيقظوا «حَمُود» ليُجهّز نفسه ليوم الختان، وقد رتّبوا خداع الجميع بأناس اختاروهم للحضور، دون آخرين، كما أنّهم استغلّوا انشغال النّاس بشقاء الليل الفائت، فضلاً عن رحيل كلّ المدعوّين لليالي الشُهْرَة، ولم يشمل حضور حالة الختان صباحًا سوى الخاصّة الذين يعرفون أمر الصبيّ من قبل، وبعض النساء بعد استبعاد من كانت على محيض؛ خوفًا من أن يُدْمى ذَكَره كلّما حاضت في عادتها الشهريّة أو في نفاسها، لذا لا يُمكن لأيّ امرأة حائض حضور حالة الختان. وقد مازحه «الهبّاش» قبل أن يقترب منه الختّان ـ معرّضًا بخوفه من السكين ـ يُناديه قائلاً: (يا حَمُود.. قل: أُخْتن يا خَتّان.. أُخْتُن حتّى اَمْزبان.. أنت في مكانك.. وآنا بمكاني.. وفي حِرْ اَم اللّي يصل اَمثاني).

فرّت العصافير من أعشاشها إثر ضحك النساء والرجال معًا من ممازحة «الهبّاش» للصبي، حين داعبه في سخرية بأن يختنه الختّان حتّى العانة، لكن عليه أن يطلب من خاتنه الابتعاد أو سيكون الذَكَر في فرج أمّ المعتدي، فردّ «حَمُود» قائلاً بحزم: (يا الهبّاش آنا اَبْن عُصيْرَةْ.. ولا تفر بعماك.. ترى لك صايبة من هذا الزبان...)، وارتاح المعني بقوله حين عرف أنّه سيقتطع له «صَائبَة» من جلد عانته؛ عندما يأخذ السكّين من خاتنِه ويمزّق من حول عانته وفخذيه قطعًا ويُصوّبها في الريح محدّدًا جهتها، فتكون إمّا لخاله أو لعمّه.. وهكذا، فلا يهب صَائِبته إلاّ لعزيز، كما أنّه بذلك يُظهر مدى جلده وصبره على الألم، وقد استجاب «الهبّاش» لردّه الرجولي قائلاً: (على حدّك يا اَبْن عُصيْرَةْ.. أعرف والله اَنّك رجل.. وتراني في انتظار صايبتك...).

أمسك الختّان بالقضيب الجريح، وسحبه إليه بشدّة بالغة، و«حَمُود» قد انتصب كجذع شجرة عتيق، يرنو إلى السماء بنظرة حادّة لا يتزحزح من مكانه متمسّكًا بطرفي عصا غليظة مُدّت على كتفيه من خلف رقبته، وقد نثروا على قدميه الحافيتين رملاً لو تساقط فسيعرفون أنّه اهتزّ، ممّا يعني أنّه خائر مهزوم، وتأكيدًا لرجولته التي هي بذرة رجال أفذاذ سبقوا، وقف عمّه «سُبَيعْ» و«بِشَيبشْ» خلف الختّان في مقابلته يصوّبان بندقيّتيهما إليه، وقد أقسما له فجرًا أنّه لو رمش جفن منه فإنّ الرصاص سيُغادر ظهره مغبرًا بدمائه بعد أن يخترق صدره الصغير.

بسكّين كالوميض شرع الختّان في سلخ ما تبقّى من جلد قليل عند منبت ذَكَره وأسفله، فختانه لنفسه لم يُبقِ شيئًا كثيرًا من جلد عضوه، لذا انتهى منه سريعًا، وهو ما زال يثقب السماء الصافية بنظرته الحارقة، والنساء ينفضن الصباح بزغاريد حارّة ومتواصلة. واستعرض الشيخ أمامهم بافتنان وابتهاج مهرولاً، وعبرته مسكوبة فخرًا، ويُنادي باللازمة: (واااالا ولا الساحل.. هاآآآو)، ثمّ «انتدب» الابن الفارس الجديد، يعدّ درجات دمه، أبًا عن جد، قائلاً: (أنا اَبْن عُصيْرَةْ..

حَمُود ابن عيسى ابن مِشَاري ابن جابر ابن خير الخير. . هاآآآو)، فارتجّ المكان كما شعرت قلوب الحاضرين، فاليوم يُكتب ميلاده الآخر بعد أن كان غرًّا في رعاية الأمّهات، إذ صار رجلاً حقيقيًّا، يُنافح عن «عُصيْرَةْ» كلّ المكربات القادمة. وعندما أكمل اعتزازه بقريته ونسبه، أخذ سكّين الختّان، وبدأ يُمزّق من عانته قطعًا صغيرة هي «صَوائِب» لوالده ولعمّه ولـ «بِشَيبشْ»، ثمّ لـ «الهبّاش» كما وعده، وبعد ذلك هبّ صاحبا البندقيّتين المصوّبتين إلى صدره، مغمورين بفخر كبير لحمله ومعالجة جراحه الكثيرة، بشجر «السلع» وضماده من نباتات مختلفة: هذا بعد أنّ شرّف أهله ووادیه جميعًا، وأبكى برجولته والده، الذي لم يتوقّف عن العرض أمام الموجودين، حتّى حمل «حَمُود» من على الأرض جسدًا مقدودًا من حجر، لا ينعطف له مفصل أبدًا، ودماؤه تتقاطر من بين فخذيه؛ قاطعًا بشجاعته تلك كلّ شك في انهياره وتزحزحه خوفًا ورعبًا. ولو أنّه جَبُن في موقفه ذاك فإنّ عارًا فادحًا لا يُنسى سيسحقه وسينال من أهله قاطبة، وسيلتصق بهم الذلّ ما بقوا في الدنيا، ولن يُخفّف عنهم قتله، إلاّ أنّ يوم «عُلاه» صار علامة فارقة في مفاخرهم العظيمة. من فورهم حملوه وعالجوا جراحه المقزّزة بربط رأس ذَكَره بحبلَيْ «المَعَابِل» المشدودين إلى حبل خصره وبذلك يستقيم ذَكَره فلا يتدلّى ويحتكّ بفخذيه.

وحين أقبل «حَمُود» يسير على مهل باتّجاه مجلس جدّته، أسرعت «عَلِيّةْ هادي» تُحرّض النساء للتغني بـ«الختين»، وذلك على طريقتهنّ، إذ خلعن «اَلمَسَارْ» من على رؤوسهنّ أمامه ورحن ينشدن للأمّ وبصوت عالٍ:

(يا اَمّ اَلخِتَينْ. .
سَرّنَا ما سَركْ. .

يا اَمّ اَلخِتَينْ. .

قَطّعْنَا مَسّارِك)

وبهذا الفعل، حين يتقافزن أمام أمّ «الختين» ـ جدّته ـ ويرفعن عن رؤوسهنّ مناديلهنّ ويُمزّقنها، مبديات سرورهنّ لسرور الأمّ، فهنّ يُعلنّ فرحهنّ الغامر الذي لا يحدّه شيء، ولا يُوقفهنّ عن ذلك حتّى الخجل من أن يهبن جدائلهنّ للريح في لمحة بديعة أمام كافّة الحضور.

بعد ساعتهم تلك أذنوا للـ «مَطَالِيبْ» من حلفائهم في «ساق الغراب» بالمغادرة، أولئك الذين كان عليهم أن يعودوا ليلة البارحة كونها تسبق عمليّة الختان، إلاّ أنّهم لم يعرفوا بنهاية ليالي الشُهْرَة، فذلك الخبر كان في مستودع الأمّ ورجالها، ولم يطّلع عليه أحد، ولم يسأل أحد عن سبب هذه السرِّيَّة في هذا الأمر بالذات. عند الظهيرة كانت قائدة قوم «آل هَايِل» الشيخة «حِجْلَةْ» تُنشد، وبزهو الممدوح، أن يزيد الله في خير أهل «عُصيْرَةْ» العالين وأن يمدّهم بساعات نور، فما هو معدوم عند غيرهم، حاضر في عطائهم، ويتبختر ذلك المعدوم بوصفه اللاّمحدود فيهم. وأنّ عبق الفرد منهم يعبر بك كالبارود، ولم تنس أنّهم وحدهم يتميّزون بـ«صَلبْ» أُزَرهم بعد صبغها بالسائل الأحمر من لبّ شجر السدر لتحتفظ برائحتها الزكيّة مدى الزمن. كان قد خرج لوداعهم كلّ من في القرية، وراح أعيان «عُصيْرَةْ»، وفي مقدّمتهم «الهبّاش»، يشحذون أرواحهم لغبطة لا وصف لها حين كانوا يسمعونها تُردّد غناءها فيهم:

(كَثّر الله خيركم يا شَعب عالي
يا رقيبٍ في اَلسّمَا.. ما تِزالي
هَبْلَنَا ساعات نور..
في عُصيْرَةْ فَرّجْ اَلمَعْدُومْ وَصْفُهْ
والصبي لا مَرّ بَكْ بَارُودْ عُرْفُهْ
أَهْلَ حِيكَةْ مِصَلّبَاتْ)

ظُهر ذلك اليوم لم يُغادر «بِشَيبشْ» دار الشيخ، وبقي كمن عادت

له روحه بعد غرق وشيك، يتقلّب في فراش بجوار الأمّ التي تشعر بمواقد روحه الجامحة فقدًا لبندقيّته «مِعْتِقْ»، وقد عزفا عن كلّ من أتى للسلام على «حَمُود» والـ «تخطير» له، إذ يُطيّبوا خاطره بقليل من المال يدسّونه في رأسه المزدان بفلّ «عَزّان» ونباتات عطريّة، والسؤال لذَكَره أن يطيب من جرحه وينتصب، حين ردّد عليه المهنّئون: (شَبّ قَرْنَك)، ولم يُحاطا ـ الأمّ وبِشَيبش ـ علمًا بأيّ زائر أو ضيف غريب، ما عدا خطاب أرسله أمير «صَبْيَاءْ» قبل الظهر يطلب فيه أن يستمعوا لرجل يُدعى «محمد المصلح» يزورهم مساء يومهم ذاك.

الثلاثة ذاتهم، الأمّ و«بِشَيبشْ» والشيخ تداولوا هذا الأمر بينهم، واتّفقوا على أن يستقبلوا الرجل، علّهم يصلون معه إلى شيء مهمّ، يُبدّد عنهم هذا القلق الماثل بينهم منذ حادثة «صَبْيَاءْ»، فتعجّلوا ذلك النهار ليلمّ أوزار ظهيرته سريعًا، ويحلّ موعد اللّقاء.

وقد اتسع أُنسهم بتمام محفلهم حينما أقبل «علي هبّاش» يُهنّئ «حَمُود» الذي لم ينس تعريضه برجولته أمام الختّان، ولحظة إقباله عليه دندن «حَمُود» بأُهزوجة معروفة باسم «الهبّاش» الأوّل صراحة، وتُنزله للغجر وأشياء النساء من كحل وزينة، وتُعرّج على عمّته التي تنهب النوق في رحلة «الشتاء والصيف»، تلك القوافل المسافرة بين الشام واليمن، وبادئة باسمه كما يسمعها الجميع من «حَمُود»:

(علي عُلْعُلَةْ
كاسر اَمُكْحُلَةْ
عمّته سَرّاقَةْ
تسرق اَمناقهْ.. في طريق الاَردن...)

فزادوا فرحًا برضا «الهبّاش» وهو يبتسم لمقارعة «حَمُود» له، ومُسَلمًا بعدل هذه المماحكة الصغيرة بينهما.

(٥)

كان «محمّد المصلح» أو المقرئ ـ كما عرف ـ على موعده، حين استقبلوه في فناء الدار، وقد نأت الأمّ قليلاً بمجلسها عنهم، تقديرًا لثقافة الرجل الذي يرفض وجود النساء، حيث أُفهموا بذلك قبل دخوله عليهم عن طريق شاب يُرافقه، ومع هذا كانت الأمّ تستمع بشكل جيّد لكلّ أحاديثه التي لم تخرج عن المواعظ، كعادتهم منذ أن عرفوهم وسمعوا عنهم، وقد عرّض في أحاديثه بوجوب عزل النساء عن أعمال الحرث والرعي، والأفراح كما شدّد، وراح يُثير جمرة الغضب لدى الأمّ، التي لم تصمت عندما ألمح إلى صلة الشيطان بالنساء، فمن مجلسها قالت: (والله الشيطان وجه. . .)، ولم تُكمل قذفه بخسّة ما، وهو يصمت قليلاً كما هي طريقتهم عند المقاطعة، وعاد من جديد كمن لا يعتد بما قيل له أو بالمتحدّث، وقبل أن يتمكّن من حديثه مجدّدًا، قال له «بِشَيبشْ»: (يا نجّاب السوءْ. . معك هرج غير هذا أو شُلّ روحك من هذي القرية قبل ما تتساوى بالقاع. .).

وكان الشيخ صامتًا إلى تلك اللحظة، ولم يتدخّل بكلمة واحدة، إلاّ أنّه رفع يده في وجه «بِشَيبشْ» الذي لم يرَ في زائرهم سوى رسول خبيث للإمارة، فمنعه من مواصلة التقريع، تاركًا لـ «محمد المصلح» متّسعًا من الوقت ليُكمل ما يقول، إلاّ أنّ «المصلح» شعر بأنّهم قوم لا ينفع معهم هذا الأسلوب، وآثر إنهاء حديثه بقوله: (يا شيخ الخير. .

هذا أنتم قد آمنتم ورجعتم لبلادكم ولا أحد مسّكم بشر. . فخلونا نعلمكم ممّا علمنا الله واسمـ. . .)، فجّرت الأمّ قولها في وجهه حين امتشقت قامتها المهيبة وصرخت: (أحنا نعرف الايمان قبلكم يا تبّاعة الإمارة. . شَا تكذب هَا هِنا باسم الله يا خاين. . .)، وقبل أن تمضي بعيدًا في إهانة الرجل، وهي تعده تبيعًا وكاذبًا باسم الله، أوقفها ابنها الشيخ وهو مزلزل الجأش ممّا سمعه من هذا الضيف، حيث شرعت الإمارة مؤخّرًا بإشاعة أنّ النّاس آمنوا فاستقرّوا في ديارهم مسلمين للإمارة الحديثة، وكان بعض النّاس يتناقلون بجهل أنّهم (آمنوا)، أي كسبوا الأمان، وعادوا لسيرتهم الأولى في ممارسة الحياة التي كانوا عليها دون تغيّر يُذكر، لكنّ الرجال القائمين بالدّين، الأغراب، يرون أنّ عقيدة أهل «المِخْلاَف» خاصّة، و«ساق الغراب» عامّة، خلصت من البدع والشرك، فصاروا مؤمنين على طريقة مرجعهم الأَوْلى بالاتّباع. وكانت الأمّ تحرص على تجنّب هذا الأمر والانزلاق في شوائكه المبتكرة من هؤلاء القوم القادمين، وقد رمت ذات مرّة ابنها «سُبَيْعْ» بعصاها عندما قال في مجلسها بشكل عفوي: (آمنّا واستقرّينا)، وكانت تعرف أنّها زلّة يُقلّد فيها صاحبته التي تنتمي إلى واد آخر انتشرت فيه هذه الكلمة دون التمعّن في باطنها الذي لا يظنّون به إلاّ كلّ خبث دسيس.

كان الشاب ذو الهيئة المريحة والمحبّبة للنفس يقف خلف الرجل، ويُحاول جاهدًا أن يتزمّت في محياه، رغم ابتسامة تخطف شفتيه من كفّه الموارب، كلّما سفهوا بـ«محمد المصلح»؛ وكان منظره محلّ تعجّب لدى الجارية الخاصّة التي تنقل للأمّ كلّ حذافير اللقاء. وزادت «زَهْرَةْ» في وصفها له بشكل دقيق، هذا والأمّ تقترب شيئًا فشيئًا من مجلسهم، وهي تُرهف السمع لكلّ ما تذكره جاريتها، وخاصّة ما تقوله عن الشاب، وتستحسن المزيد من ذلك، وقد قطع عنها البهجة بما تسمع عندما سأل الرجل المقرئ متعجّبًا: (يا شيخ الخير. . ما أَعتقد نساء

يقرّرون عنكم؟!..)، وأوقفته عند حدّه حين قالت: (قرآنك اللّي تعلّمنا به.. حافظينه.. ويُمكن تحصل أنّ المرأة قادت رجل يقول حتّى لربي: لا.. وتعرف أنتَ معنى لا.. تعني أَنّ ما أحد يسمع لكم.. والله لو ما انّت في بيت شيوخ ليحصل لك شيء يُسوّد وجهك...)، واحتدم الموقف حينما لمَّحت إلى أنّ حوّاء قادت في الجنّة تمرّدًا على الله ـ كما فهم محمّد المصلح من كلامها ـ، وهي الآن تُعلن في وجهه أنّها أهل للقيادة، وأنّها قادرة على إهانته لولا أنّ تواجده في بيت الشيخ يمنعها من ذلك، ولم يغب عن الجارية أن تنقل لها ابتسامة رفيق المقرئ، فظهر عليها تراجع في حدّتها كلّما جال بخاطرها ذلك الشاب، وكأنّها منحازة لروحه بقوّة خفيّة، وكان هذا التقهقر الخفي مدعاة للكثير من التساؤلات عند «بِشَيبشْ»، فهو الوحيد مَنْ يلحظ هذه التفاصيل الدقيقة ويتتبّع حصولها، وكانت هي تعلم أنّ هناك عينًا واحدة فقط ترقب وتلمس هذه الخلجات المتشبّثة بطيّتها دون خلاص.

أخيرًا أيقن ذلك الرجل أنّه مخذول في قرارة نفسه قبل أن يكون مخذولاً في نظر إمامهم؛ كون أدوات درسه أقلّ بكثير من عنت هؤلاء القوم ـ كما أقنع نفسه ـ ورأى أنّ الزمن كفيل بمعالجة هذا مع تفكيك إتقانهم للعنت، ولم يرفع راية الاستسلام، وتقدّم رفيقه الشاب خارجًا، والشيخ يودّعهم داعيًا لهم بالتوفيق، ومرحّبًا بهم متى عادوا، ويحمّلهم السلام إلى الأمير. بهذا الصنيع في تأبين خطواتهما يُؤكّد الشيخ رأي والده الشريف «مِشَاري» في فنّ السياسة، الذي يراه أنّه فنّ لا يتعدّى كونه تبديل القناعة من الرغبة في بصق وجه العدو إلى مصافحة أو حتّى احتضان ذلك العدو!

زادت التوجّسات حقًّا، حيث كانوا يتوقّعون رجلاً يُكاشفهم في حادثة الحريق والقتل، لكنّ الأمير قلب كافّة التوقّعات، وأوصل إليهم رسالة أُخرى أكثر عمقًا وخطورة، وفكّر «بِشَيبشْ» في أنّ هذا القادم لم يكن إلاّ حقيقة سياستهم في المنطقة، أنّ هؤلاء الغزاة لم تعد تُعجزهم

قوّة، فهم ذوو بأس شديد، وذوو دعم يأتي من جهات كثيرة، كما أنّ مسألة إحراق المسجد لا تعني لهم خسارة كبيرة مثله مثل مقتل ذلك الرجل الذي سيُعدّ مجرّد رقم في قائمة القاضين، وكلّ هذه الخسارات لا تُعتبر شيئًا في سير الدول حين تقوم أو تقضّ عروشها.

(٦)

أدرك «بِشَيبشْ» أنّ الإمارة لا يعنيها ما حدث مؤخّرًا في «صَبْيَاءْ»، وأنّها ماضية في مسعى آخر طويل الأمد، وتنتهج معاملة واضحة للعيان، وهي توطين رؤى جديدة لنمط الحياة تتوافق ومعطيات هؤلاء القادمين، وقد كشف بذلك لخالته قائلاً: (يا صَادِقِيّةْ. . القوم ما عاد منهم حرب اِلاّ إذا صلّيت غير صلاتهم، ودعيت ربّ غير ربّهم!)، وبهذا القول اختصر كلّ اللّعنة القائمة عليهم، فانفرطت الأمّ في ضحكة طويلة زعزعت كلّ الحاضرين من الخاصّة، حيث تذكّرت جهلهم لكلّ هذه الأحداث وتواليها عليهم، ثمّ قالت: (قِد قلت لكم وأَنتم هاجّين بنا للجبال. . أنّ حكومتهم كبيرة. . فلا تحاربون. . قرّوا. . أبيتم اِلاّ تتركون بلادكم. . وعاد هناك زمن مقبل يا بِشَيبشْ يهبون مال للي يصلّي صلاتهم ويصلّي لربهم!. . وترى خصومتنا ما تقوم مع الأمير. . .)، وتأكيدًا لما جاء على لسان الأمّ أكمل «بِشَيبشْ» قائلاً: (خصومتنا تكون مع اللّي يرون اَنفسهم يشترون ويبيعون في الله كَاَنّه ملكهم، وكلّما عارضت حتّى للحقّ قاتلوك ببنادق الأمير!)، ووضّح للشيخ ورجاله حقيقة وسبب التربّص بواديهم الذي رفض على الإطلاق الخضوع لهذا التعامل، فاستعرض لهم ما استخدموه من سبل لاختراقهم دون جدوى، واستدلّ على مطامعهم، بما أعلنه صراحة ذلك الرجل عن سياستهم أمامهم، وتهكّم «بِشَيبشْ» بما يدّعونه أنّهم رحمة أُخرى عقب

النبي، وأنّ غيرهم ثلّة من المارقين على الله وشرعته التي يصونونها، وهم الآن في رسالة حديثة يضمنون لتلك الشرعة البقاء كما تعاهدوا، وعلى طريقة مرجعهم الذي علا صيته منذ زمن بعيد.

انقضى يومهم بلقاء رجل الدّين ورفيقه الشاب الذي لم يغب عن بال الأمّ، حيث باتت تُحدّث نفسها به، وكيف تعرف عنه أكثر!! وقد تعجّب «بِشَيبشْ» من سكوتها الليلة، فهي ليست على عادتها، وما كادت تمضي أكثر في مذهب التخيّل حتّى أيقظها من تلك الغفلة المخيفة حين سألها أن تُحدّثه عن «اَمْحِسينيُوهْ» ـ اَبْن حُسَيْنَةْ ـ العشيق القديم، فنزعها من رائحة ذلك الشاب وعاد بها إلى زمن خلا قبل أربعة عقود أو تزيد، إذ كانت شابّة تمتطي من عمرها فتنة ربيعه، وتحمل البندقيّة في حروبهم مع «اَلعَبَاسِيَةْ»، وتلتقيه وهو يرعى ماشيته مع أمّه التي تسبقه على دابّتها، جارًّا من خلفه بندقيّته، مثيرًا الضحك لكلّ من يلقاه، لقد كانوا لا يعدّونه إلاّ مخنّثًا يقتفي آثار أمّه؛ لأنّه كلّما سأله أحدهم شيئًا أجاب: (شَا اشاور ولدتي)، وكان هذا الردّ يعني أنّه ليس كفؤًا لحمل بندقيّة ورعاية ماشية يصل عددها إلى خمسمائة رأس، فحين يطلب استشارة والدته أوّلاً، وهو على ذلك النحو، بإزار يسحب تحت قدميه ويجرّ خلفه بندقيّة تطقطق فوهتها بحصى الطريق، يبدو كما لو كان منالاً سهلاً لكلّ من يلقاه ولا يعرفه، إلاّ أنّه لا يكاد الطامع يُفكّر بنهبه حتّى يقذفه «اَبْن حُسَيْنَةْ» صريعًا مضرّجًا بدمائه ويُكمل سيره خلف أمّه، هكذا علت سمعته وتجاوزت كلّ أودية «المِخْلاَف»، وصار «اَبْن حُسَيْنَةْ» عَلَمًا فذًّا، وشجاعًا لا يُضاهى، فهو الـ «سَابِقَةْ» الذي يُعيد مجد والده، ويُعلن قدر أمّه الرفيع.

حكتْ لـ «بِشَيبشْ» أوّل مرّة تلتقيه، وقد كانت قبل ذلك تسمع حكاياته من فم والدها «اَلنّمَارِي»، وأعجبت به عندما استطاع النيل ببندقيّته من عشرين رجلاً في مساء واحد، وهو لا يقتل الغزال غدرًا بل ينبّهه أوّلاً ثمّ يُلاحقه، ولا يُمكن للغزال أن يتوقّف إلاّ و«اَبْن حُسَيْنَةْ»

ممسكًا بقرنيه، أو حاشرًا رصاصة بين عينيه، كما يستطيع وحده النيل من إبرة يُعلّقونها بين أغصان شجرة؛ لقوّة نظره ودقّة تصويبه.

وتحكي الأمّ أنّها في أمسية قديمة ـ هي أمسية متجدّدة في قلبها دومًا ـ كانت تُفكّر في «اَبْن حُسَيْنَةْ» الذي يرعى لحظتها في درب جدّها الشريف «نَهَارِي»، وهي تحمي طرفًا من واديهم، وحين رأت طيرًا يحوم على رأسها، أسرعت تُناديه بصفته المعتاد على التحليق، أن يحمل في جناحه عطر كلامها إلى ذلك الراعي ويُخبره بأنّها بنت لـ «اَلنّمَارِي»، فإن كان شاريها، فوالدها بيّاع، وضحكت الأمّ عندما ساورها شعور مفعم ببقايا أنثى تتشهّى ربيع سنوات خلت.

قهقه «بِشَيبشْ» أسفل سريرها وهو يتلمّس عذوبتها، وسألها أن تُنشد قصيدتها تلك، وابتسامة سابقة منها، اعتلى صوتها سكون الليل وغَنّتْ بفرحٍ واضح:

(يا طَير في اَلسّمَا بالنّفرْ ضَارِي
تعال نكتب في جناحَكْ عِطَارِي
وصلنَا للمنجع في درب اَلنّهَارِي
قُلّه اَنّها بَكْرَة لاَنّمَارِي
بايعها جلاّب اِن كنتَ شَارِي)

وصل نشيدها الشيخ واهتزّ مرقده بضحكة راضية، وغشاه امتنان لهذه الأمّ التي في حلكة حزنهم تستطيع أن تُسعدهم، وآثر أن يتركهما هذه الليلة في خلوتهما العذبة ومن فوقهما القمر طليقًا مكتظًّا بالنور كأنّه ممتنّ لهم، إذ ساعدوه البارحة على إيجاد دربه الكوني الطويل.

عندما توقّفت عن محادثة ذلك الطائر كان طلق ناري يعبر فؤاده، فعلمت على الفور أنّه لا يُمكن أن يُصيبه على ذلك النحو سوى «اَمْحِسينِيُوهْ»، وصدق حدسها حين انبلج جسده من بين شجر «الأراك» التي تفصلها عن درب الشريف «نَهَارِي».

كانت تلك الليلة بداية إيقاد الجوى في فؤادها، بعد أن تيقّنت أنّه

سمعها لا محالة وأدرك مغزى نشيدها، لكنّه كان جبّارًا، كما عُرف عنه في أمور العشق، وبقيت سنة بكاملها تترقّب كلمة واحدة منه، إلاّ أنّ الكثير من سلوكيّات الحبّ لا تستدعي بيانًا واضحًا، هذا ما تُعزّي نفسها به، وحتّى حلّ قرار زواجها بالشريف «مِشَاري» ابن عمّها، مع أنّ الجميع يعلم بشفِّ قلبها إلى «السّابِقَةْ»، وقد اشتهرت قصّتها مع ذلك الطائر وقصيدتها التي تكرّرت على ألسن بنات الوادي في ذلك الزمن.

عندما انتهت عاد «بِشَيبشْ» يسألها عن زوجها الشريف «مِشَاري» وقصيدة «عَرّادْ» فيه بعد قتله غِيلة بيد أحد «اَمشُرُوقْ» ـ نسبة لشروق الشمس عليهم قبل وادي اَلحُسَيْنِي ـ واختصرت الأمر بأنّ الشريف «مِشَاري» كان يُشكّل لأهل الجبال هاجسًا ليل نهار، حيث اشتُهر بالغزل، وكان له في كلّ دمنة فتاة يعشقها، أو زوجة تنتظره، وذات مرّة نزل الوادي يشرب، فغدره رجل جبلي يُدعى «مِبْهِل»، وأوضحت له أنّ خسّة الغدر هي التي جعلت أهل «عُصيْرَةْ» يهبّون في ذلك اليوم بدمار شامل لحق الجبال من منابتها وحتّى رؤوسها، وزلزلَ «تِهَامَةْ» على مَنْ فيها من الرعاع الهاربين، وقد بدا لهم أنّ النهار أشرق على الجبال ببنادق «الحَسَانِيةْ» لا بالشمس، فبدأت تُنشد في الشريف «مِشَاري» قصيدة شاعرهم «عَرّادْ» الذي يُقسم فيها بالله أنّ مَنْ سكنوا اليابسة والماء، سواء عجم أو فصحاء، وسعوا في صلح بينهم وبين «اَمشُرُوقْ» فلن يُوقفوا القتال طائعين للوضاعة؛ لأنّ فقيدهم ليس من الرعاع الذين يُشبهونهم بصغار البقر، ليقتله سارق معدم كـ «مِبْهِل» الذي لن يطير هربًا، فلا أجنحة له، كما أنّ السماء بعيدة عليه، وسيبقى مطاردًا حتّى لو ورث الأطفال الرضّع هذه الحرب، بعد أن تحصد كلّ الرجال.

وعندما سمع أهل الجبال هذه القصيدة تناقلوا بينهم أنّ الشريف «مِشَاري» كان يلوط بـ«عَرّادْ» وإلاّ لما رَفع شأنه بقصيدة إلى ذلك القدر!

ضحكا مرّة أُخرى معًا على تعليق غرمائهم القدامى في الجبل، وألحّ عليها أن تقول القصيدة، فشرعت تُلقي قصيدة «عَرّادْ» في زوجها،

وكان ابنها من مكانه يُرهف السمع:

(يا مِشَاري حلفت لك بالله واَقْسَمْتَ عَشْرَاَ

لو يِسَاعِي من سَكَنْ حَزّا وبَحْرَا

مِنْ عَجَمْ واِلاّ فِصِيحْ

مَا نِطَاوعْ في اَلفَسَالَةْ

مَا اَنْتَ مِنْ بَعْضَ اَلعِجَالَةْ

يِذْبَحَكْ سَرّاقَ جُوعْ

يا مِبْهِل اِن جِيتْ تِنْفرْ مَا مَعَاك جِنَاحْ

واَمّا اَلسّما بعيدْ

لا بُدّ لَكْ مِنْ حَرْبَنَا

لو تِخَالَفْنَا على اَطْفَالَ اَلرِضَاعَةْ)

عندما أكملت القصيدة، جرّت من صدرها آهتها القديمة: (إِيييييهأ. . .)، تتلمّظ منها ذاكرة مشروخة، كأنّما تُريده أن ينكأ لها جرحًا باليًا فتبيت على لذّته، تُناوش روحها ذكرى قديمة فيه، وتستحسن وخزه العذب، وكان لها ما تُريد، عندما حلّفها «بِشَيبشْ» بالله أن تكشف له عن سرّ هذه الآهة القديمة، التي طالما شرخت أفئدتهم بها، وخاصّة حينما يقودها هو بمخابثاته الصغيرة إلى الحديث عن زوجها المقتول غدرًا، وعن معشوقها القاضي.

كرّر «بِشَيبشْ» طلبه أن تُخبره بلا حرج، (ما الذي تغيّر؟)، تساءل، وهي التي دائمًا تُكاشفه بكلّ صغيرة وكبيرة، ولا تُخفي عنه شيئًا، كما أنّ أمرًا مهمًّا عنّ لها، وهو أمر رحيله الذي لن يتراجع عنه كما تعلم، ولن يُوجد في الأرض شخص يحمل سرّها غيره، فاقتنعت بهذا المبرّر، وبدأت تتلمّس كأس الماء بعد أن أدناها منها، فشربت حتّى ارتوت ارتواء من سيُقدم على تجربة أُولى وغير آمنة، ثمّ خفضت من صوتها لتُلامس مصداقيّة حفاظه على السرّ، وفي الوقت ذاته تُذهب عن ابنها فرصة السماع الذي ما عاد يستطيع مواصلة تتبّعهما، وقالت: (هذا كلام

عمري ما كشفته لاَحد يا بِشَيبشْ.. وترى لي من الزمن باسل، لكن ترى داخلي ثلاث نساءْ.. شيخةٌ، وزوجةٌ، وعاشقةٌ.. أمّا الشيخة فهي من ولادتي وحتّى ذا الحين باقية، وأمّا العاشقة فلها زمان وهي ساكتة عن نشيدها، وأمّا الزوجة فهي حالة متعسّرة وما تُحكى...).

وعادت إلى سكّين آهاتها، تجرح بنصالها ليلهما، وقد أشعلت حرائق الأسئلة في صدر المصغي لها بكلّ حذافير انتباهه، توقّفت كمن يُحصي ما تبقّى له من أنفاس، ليُعيد توازنه قبل خطوة الإقدام الحاسمة؛ ولم يكن «بِشَيبشْ» ببخيل عليها في أن يمدّها بالتعزيزات المناسبة لتُكمل الحكاية، التي ما ذكرتها في حياتها لأحد، فراح يرصّ من قلبها، ويُذكّرها بأنّه ابن أختها العزيز، ساعدها الذي لا يخونها، وسلاحها الذي لا يُخيبها في النوازل الممحلات. وفي جانب بعيد يرى أيّ ظفر سيُحقّقه إذا ما أفشت، له وحده، سرّها العظيم، فهذا يعني أنّهما سيتقاسمان سيادة وادي «اَلحُسَيْنِي» أبدًا، ولا يُمكن أن يكون لأيّ شخص الحقّ في إدارة هذا الوادي من دونهما أو بإشرافهما، وهو إذا تساوى معها في ذلك، فإنّها ستكون ملزمة بأن تقرّ بسلطته الخفيّة والمطلقة على الجميع، وهذا ما كانت تتقلّده طوال حياتها. ولم يكن ابنها الشيخ الذي يُمثّل السلطة الأدبيّة في الخارج وبين أعيان واديهم، لم يكن إلاّ أداة تنفيذ لكلّ قراراتها، أمّا هو فعينها التي لا تطرف عن كلّ صغيرة أو كبيرة تحتاج إلى معالجة حذرة، ثمّ إنّه لو استطاع التمكّن جيّدًا من أعماقها، لكان له أن يرحل دون أن تشي بمكانه مهما كانت الظروف التي ستحيق بها من بعده، وستظلّ هي على يقين آسر بأنّه ظلّها الدائم والوفير متى ألحّت عليها خصاصة، وفي أيّ زمان ومكان تعيشهما.

واصل دفعها إلى جرف غصّتها، قاضيًا على مقابض خشيتها، وكان يلمس أيّ جهد تبذله لتتحدّث، وليس لتبتّ في أمر المكاشفة، فهي قد قضت في ذلك، وفجأة اقتربت جاريتها «زَهْرَةْ» على غرّة من

أحدهما؛ لتحضر في اللحظة التي تحتاج إليها سيّدتها، وما كادت تقترب الجارية قيد خطوة، حتّى مدّت الأمّ يدها إليها، لتضمّها الجارية بشدّة بين كفّيها الكبيرتين، ولم تُقدم على أكثر من ذلك. راع «بِشَيبشْ» هذا المنظر، إذ ظلت الجارية تُمسّد كفّ الأمّ البيضاء، وهي تدنو منها إلى أن جلست في حضنها، وكأنّها مدد لإقامة انكسارها ذاك، ولا غنى عنها لحظتها. لم يدم حضور الجارية طويلاً حتّى سرت من يديها الضخمتين شحنة حماس، في كفّ الأمّ، أعادتها إلى صواب سيرتها معه، ثمّ غادرت «زَهْرَةْ»؛ لتعود الأمّ في سرد ما بدأته، بعد أن مدّت إلى «بِشَيبشْ» يدها الدافئة، وضمّها في مؤازرة واجبة عندئذ.

همست الأمّ إليه: (بِشَيبشْ.. كان حتّى الطير في سما ربّي، وحتّى اللّي في ظلام البحور يتمنّاني.. ملوك.. وأمراء.. وسلاطين.. سمعوا بابنة اَلنّماري، صَادِقِيّةْ.. فكنت في قصايدهم، وفي حكاويهم، ما يخرج زيني من ألسنتهم.. وقلبي ما شَلّ اِلاّ رجل واحد، ورجل ثاني شَلّ قلبي، حبيت اَبْن حُسينه، فحملته في قلبي، لكن ولد عمّي مِشَاري تزوّجني فحمل قلبي وفيه صاحبي، وراحت الدنيا فراح الجميع، صاحبي بقي باَطراف الوادي راعي، حتّى وجدوه فجر يوم غارق في دمه، وعلى صدره ذيب جائم ميت، وقالوا اَنّ اَبْن حُسينه تمسّك برقبة الذيب، وهو يدفعه عنه، حتّى فارقوا الحياة سوى، اَمّا زوجي...)، صمتت لتتحسّس قلبها جيّدًا، وكأنّما تتحسّس بندقيّتها، التي لا تحمل غير رصاصة واحدة عليها أن تُصيب الهدف، وتسألها أن تنصرها، وإلاّ ستكون القاضية، فإمّا أن تتحدّث بشجاعتها المعهودة، وإمّا أن تنكسر أمامه، وهذا ما لم يحصل لهما من قبل، كما أنّ كليهما لا يُحبّذانه.

على غير عادتها اقتربت الجارية من وثاق «بِشَيبشْ» وحلّته، وبهذا الفعل أدرك أنّ الدور آل عليه؛ ليُهذّب شيئًا من الحال الماثلة، فرفع جذعه قليلاً من أسفل سريرها، وقرّب يدها من قذاله الطويل، ورغّبها

في شدّه والعبث بخصلاته، وكان له أن عادت إلى عتاد روحها القوي، فأكملت تقول: (أمّا زوجي.. الشريف مِشَاري كان له في كلّ بلاد صبيّة يتعشّق فيها، أو زوجة يبيت معها في السنة مرّة أو مرّتين...).

توقّفت لتُرخي أصابعها الممتلئة بماء الحياة، وكأنّها أصابع فتاة منعّمة، وقد اشتُهرت بقوامها وتفاصيل أطرافها الفاتنة، وأسْرَت في خصلات شعره نعومتها المهيضة برغم عمرها المتقدّم مقارنة بالأنوثة التي تتبدّى في كثير من المواقف، كلّما تذكّرها «بِشَيبشْ» وهي تُشعل مواقد الشباب في الرجال الكبار بالقبيلة، وزادت أناملها في حركتها، وهي لم تعتد بقاءها كلّ هذا الوقت من قبل، حين تتأكّد من علامات جماله، ولم تغب عنه خيوط الرغبة التي تتمدّد بداخلها في ساعتهما تلك، حيث كانت واضحة الأثر، من خلال كرّها وفرّها في الحكاية، إلى أن كشفت أخيرًا، تقول: (تصدق يا بِشَيبشْ انّي عشت زوجة لمِشَاري زايد عن خمسةَ عْشَرْ سنة ما كَمّل حاجته بي اِلاّ مرّتين في السنة.. وكلّ مرّة ما يكمّل اِلاّ الليلة الثانية، كان اِذا لمس الواحدة فينا يصل فَاحِمُه السما، والقرية كلّها تعرف انّ الشريف مِشَاري بايت مع زوجته، ويغيب نجم الزُّهْرَةْ وهو ما خَلّص، فيخرج من البيت، وما يرجع اِلاّ الليلة الثانية، يكمّل جمرته، وما تُشرق الدنيا اِلاّ وهو في بلاد غير وادي اَلحُسَيْنِي...). بدت كأنّها لم تُكمل، فقد شرعت عيناها في ملامسة ضوء بعيد من عمق ظلامها، كأنّما تُفتّش عن بقايا فحيح قديم، لا يصلها في هذه الساعة، وقد خلّت قُذال «بِشَيبشْ»، وشبكت أصابع يديها، ثمّ استبقت إلى فكرة أُخرى؛ علّها بذلك تُبدّد جلال اللحظة التي ما ظنّت أن تعيشها بهذا الوضوح مع شخص آخر، غيرها هي ذاتها، وقالت: (كان الناس ينتظرونه في السنة مرّة أو مرّتين أو يسافرون يدورون عنه.. يحكم بينهم في كثير مِنَ اَشغالهم، وكان ما يعرفون بدخوله الوادي اِلاّ إذا سمعوا فَاحِمُه، وما تنتهي صلاة فجرهم اِلاّ وهم قيام في الباب...)، ويضحكان، تضحك هي لأنّها تتذكّر خجلها من

قومها الذين يستدلّون على وجود شيخهم في القرية بسماع لهاثه وفحيحه حين مضاجعته لها في الليلة الفائتة، و«بِشَيبشْ» يضحك لأنّه عرف أخيرًا عنها ما لا يُمكن التصريح به في يوم من الأيّام، فبات جذلاً بهذا الخبر المهمّ، ولم يعر كثير اهتمام لما ذكرته عن ليلة دخل فيها الموالون من جبل «اَمدُقمْ» قرية «عُصيْرَةْ»، قبل نحو أربعة عقود من الزمن، يحملون جثّة الشريف «مِشَاري»؛ للتفاوض معها في دفن الجثّة عندهم، ولتنزع روحها عن ذكر زوجها، تحوّلت إلى حكاية ولادته، فذكرت أنّه ـ بِشَيبشْ ـ وُلد في تلك الليلة وعلى إثر ولادته ماتت أمّه، وقد رأت ضرورة الحفاظ عليه، فالموالون يُقرّرون أنّ كلّ من يُولد في ليلتهم سيأخذونه لرعايته، لأنّه سيكون مساويًا لهم في القوّة الخارقة؛ وحين علموا بقدرتهم أنّ امرأة من أهل القرية قد وضعت حملها ذكرًا، من فورهم سألوها من يكون؟، فأجابتهم: (أختي ولدت قبل قليل.. واَقسم لكم اَنّه ما يلحقكم منه ضرر اِذا كبر...)، وليتأكّدوا من ذلك أقدمت على دفن حبل سرّه في الوادي، وبذلك سوف يُغادر القرية مهاجرًا إذا اشتدّ عوده، ولن يقاوم دخولهم متى عادوا مرّة أُخرى، وقد أدركوا وفاءها في العهد، كونها بالفعل دفنت السرّ في الوادي، فذلك يعني أنّ السيل سيجرفه، وسيعيش «بِشَيبشْ» يهيم في الآفاق بحثًا عن سرّه المغمور في البحار البعيدة، وهذا ما لم تُحدّث به أحدًا على الإطلاق، وصارت تتلمّس اقتراب رحيله عنهم للأبد.

(٧)

في النهار السابق لخروج «بِشَيبشْ» من القرية استدعته الأمّ إلى عُشّتها وقالت له: (تراني اَنا هَاهِنا.. شَا انتظرك حتّى ترجع)، ثمّ مدّت إليه عشرين قطعة «فرَانسَةْ»، وذهبت بعينيها المظلمتين في اتجاه وجهه متلمّسة أنفاسه حتّى وجدتها حارّة، وقد تعمّدت حضور اليتيمة «شَرِيفَةْ» مجلسها في تلك اللحظة، ورأى في وجه الصغيرة خشية نبتت رغم حضور «هَدِيّةْ» التي ألحّت على وداعها منه حال أخبرتها الأمّ بموعد رحيله، وما كان منه إلاّ أن حرّض زوجة الشيخ على أن تأخذ حيطتها وحذرها في رعايتها، وهمّ بتركها دون أن يضمّها إلى صدره الذي لم يُكتب لها في عمرها الصغير أيّ إغفاءة عليه من قبل، إلاّ أنّ روحه ذرفت شفقة لم يعهد أن شعر بها، عندما أبصر في وجهها حياة تتدفّق وكائنًا يترقّب تمام النّور وحده، ثمّ وجد روحه تنحني، رغمًا عنه، طائعة للمحة الإشفاق الخاطفة، فحمل الطفلة إلى صدره و«هَدِيّةْ» تهمس بذلك للأمّ التي ظهرت ضروسها الأخيرة معبّرة عن ظفر حقّقته، بابتسامة واسعة.

كان قد قبّل الصغيرة وتمتم لها: (يا شَرِيفَةْ لا تدوري لي إِذا كِبرتِ...)، ثمّ وضعها على طرف من فراش الأمّ وترك قدميها الصغيرتين تتدلّيان؛ ليجلس على الأرض أمامهما ويمسحهما، ثمّ يلعقهما، جريًا على عادة كلّ راحل لا يُريد أن يفقده ولده، معتقدين أنّ لعق أقدام الأطفال يُلهيهم عن تذكّر والدهم، ولا يشعرون بفقده حين

غيابه، وكثيرًا ما يُقدمون على ذلك حين يهمّون بالسفر لأداء الحج. ثمّ نظر إلى «هَدِيّةْ» مرّة أُخرى وأوصى بالطفلة خيرًا يسيرًا كمن يشفع في شيء خسارته لا تترك كمدًا عظيمًا بالقلب، ثمّ انطلق عائدًا بصمته لبيته، وقُبيل الفجر، بعد أن تحلّل من قيده في سرير الأمّ، كان على مشارف وادي «نَخْلاَنْ» باتجاه الشمال يحثّ خطاه لفتح مزاليج المبهم من بلاد الشمال البعيدة والمخيفة في آن واحد.

بعد العصر كان كلّ مَنْ في قرية «عُصيْرَةْ» يذرف ما يستطيع من أساه على أوّل راحل للشمال منذ حلول قوّات وأمراء جدد في بلادهم، ويخرج من واديهم قاصدًا ترك الدمنة إلى الأبد، ودواعي رحيله باقية في سرّ العارفين وحدهم.

نوى الشيخ أن يُرسل ابنه «حَمُود» بصحبة بعض الرجال ليلحقوا به آسفين ومضعضعي النفوس عليه، لكنّ الأمّ منعتهم من ذلك، وشدّدتْ على عدم عصيانها، فهو بحسب زعمها يحتاج لمثل هذا الرحيل لينجو من مشاق الذكريات المزعجة، وليبتعد قليلاً عن حالة الناحية بعد استتباب الوضع فيها للأمراء الجدد، فهو لم يتصالح مع الوضع الحالي، كما أنّه لن يغيب كثيرًا ـ كما ذكرت ـ لأنّها تعرف أيّ منقلب سيهتدي إليه قلبه قريبًا وسيعود لا شكّ، هذا ما كرّرته عليهم ليتراجعوا عن فكرة اللّحاق به.

باتت القرية مهوى السائلين من قرى وادي «اَلحُسَيْنِي» وما قاربها، فأمسى منزل الشيخ والأمّ يعجّ بالمتذمّرين من ذلك الخبر، حيث لم يسبق لأيّ من عرقهم الخروجْ من بلادهم هكذا، كما أنّ الصدام الذي صار بينه وبين «حَمُود» لم يكن كفيلاً بالعزم على مقاطعة بلاده وأهله، هذا في معرض الاحتمالات المتعدّدة التي تناولها الناس، وكان البعض يرى سخافة السبب الذي حمله على فعلته تلك، إلاّ أنّه لم يخلد ببال أحدهم الربط بين أحداث حريق مسجد الإمارة ومقتل رجل «بني هَايِجْ» من جهة، وبين خروجه من القرية من جهة أُخرى، ولزموا الصمت في

رضًا مزعوم امتثالاً لما قرّرته الأمّ، بعدما جرّت آهاتها الشهيرة، قاصدة أن تصيخ أسماعهم لها، وهي تعني مبكيها فيما تبقّى لها من العمر، قائلة: (إِيييييييها.. بِشَيبشْ عرف قبلكم كلّكم اَنّ الزمان ما عادُهْ لكم!)، ألجمهم تمامًا قولها إنّ الزمن لم يعد يخصّهم، وأنّ الراحل قد عرف هذا من قبل فشقّ عليه البقاء، ولابدّ أنّه الآن يصنع لنفسه وطنًا آمنًا لا يطّلع على تضاريسه أحد أيًا كان.

في تلك الليلة انفلق وجعهم عن وجع آخر عندما توكّأ «الهبّاش» على ظلمتي الليل وعينيه إلى أن وصل إلى مجلس الشيخ وأمّه، وقد أيقن الجميع أنّه لم يقطع بعتمة عينيه حلكة الطريق إلاّ وأمره جلل، فاستقرّوا عن كل منغّص متهيئين لما سيسمعونه منه، كان كلّ من في المجلس متحفزًا لسماعه عندما بدأ يقول: (يا شيخ.. يا صَادِقِيّةْ.. أنا ما عاد لي مكان بينكم.. فربّي يخفّف عَلَيَّ من هذا العار ويختارني.. وَانا جيتكم وقد كتبت للشيخ كلّ اَملاكي.. سامحوني يا شيخ.. أنا ما اَتخلّى عنك، ولكنّ الموت يذلّ الرجال.. أعرف اَنّي عاجز بعماي، ولكن اَنا متأكّد من اَنّك واثق بي.. وذا الحين قبولك بكل أرض لي وكل مالي يبين لي اَنّك راضي عنّي، واَنّك موافق على موتي.. وأنا داخل على الله ثمّ عليك أن تاَذن لي بالموت!)، لم يتحدّث أحد بكلمة واحدة، وحتّى الشيخ لم يرفض طلبه، تناول منه كتاب نقل ملكيّة الأراضي ولفافة أموال أغلبها قطع ذهبيّة وريالات «فَرَانْسَة»، وبذلك الصمت الجليل وهبه الموافقة على أن يموت بالرغم من حاجتهم لشخص مهيب مثله في زمن مخيف يحيونه.

بات الشيخ تحت وابل من نصال الألم، تطعنه كلّما لاح له وجها «بِشَيبشْ» و«الهبّاش» يُغادران حصنه القديم، فهما من عتاد قلبه الذي لا يُقهر، ومن خاصّته التي لا تُضيم ولا تُضام، وها هو في ليلة واحدة يُشرخ بفقدهما شرخًا تمامًا في قلبه. وفي وحدة محرقة، راح يسأل ربّه متعجّبًا إليه: (يا ربّ اَكثرت عليّ.. اَكثرت عليّ هذه المرّة.. لِمَهْ يا ربّ؟!).

لم يُكمل جزعه وحيدًا، فمن لدن مخدعه آنست أمّه ضرّ قلبه، فاقتحمته بشذاها المعروف عنها، إذ لا تتخلّى عن وريقات «الريحان» على أذنها وتحت منديل رأسها، تلك الورقات التي دائمًا بعبقها تكشف للشيخ إقبال الأمّ إلى مخدعه قبل وصولها، وعند تلك اللّحظة كان له أن يسوّي من وجهه المبلّل بعبرات كبيرة، فيمسح أوداجه التي ستلمسها حتمًا، ورحّب بها قائلاً: (يا مرحبا بصَادِقِيّةْ. . .)، وابتسم بقدر حجمه، واستسلم لأصابعها، تمسح ما تبقّى في مقلتيه، وتعصر بفؤاده آخر قطرة للحزن، فتمسّ صلابته، ويعود لحكمة الشيوخ التي غابت عنه لساعة.

بعد يومين واروا «الهبّاش» التراب، شرق قرية «عُصيْرَةْ»، وفي قبر وجدوه محفورًا جاهزًا، وتحديدًا في التلّ الذي دفنوا عليه «بنت الخَبْتي»، وتوافدت القبائل لتقديم العزاء، فاحتشدت الجموع من حول الشيخ ثلاثة أيّام لا تُفارقه، وهو يُحارب الكرب من كل صوب، وفي أوّل ليلة من ليالي العزاء عبرت من فوق رؤوسهم طلقات يقذفها بندق من بعيد، وكأنّ صاحبه يُسجّل حضور كمده بينهم، كما حضرت «السُّلعِيَةْ» بأنينها المتواصل والحارق لكلّ قلب يصله، فهي ببكائها لليال ثلاث متّصلة، تُعزّز مكانة الراحل، إلاّ أنّها وصوت ذلك الرصاص بقيا على قدحهما للحزن دون أن يُثار حولهما سؤال أحد، وما كان للشيخ أيضًا أن يهتمّ بذلك، لانشغاله بالتفكير فيما هو قادم من عذابات صارت تُفرط في حضورها الممضّ عليه كما يشعر ويعترض في صمت.

ولم يخب ظنّ الشيخ في أنّ الزمن المتبقّي له سيشهد ضراوة الفقد والوحدة عليه، فبعد شهر انقضى على موت «الهبّاش» دُعي عاجلاً لفراش «بن شامي» الذي سأله أن يصفح عنه وأن يأذن له بالموت، بعد أن سلّمه كلّ أملاكه، وأوصاه بأن يدفنه جوار «بنت الخَبْتي» ومعه بندقيّته «شَارِقْ»، حتى يُحارب بها «النبّاش» الذي توعّده قديمًا أن ينبش قبره ويأخذه إلى بلاده البعيدة، وكذلك سيفعل بكلّ من يأتي من نسله،

فلبّى الشيخ مطلبه، كما أمر سبعة من رجاله الأشدّاء بحراسة قبر «بن شامي» لمدّة سبع ليالٍ بأيّامها؛ لمنع «النبّاش» من تحقيق رغبته في الجثمان. وقد أسموا ذلك التل «شَارِقْ» تيمّنًا ببندقيّة «بن شامي» التي ينزع اسمها هذا أرواحهم إلى استشراف يوم عظيم قادم لا محالة، فهو «يوم شَارِقْ» ـ كما تراه الأمّ ـ أيّ يوم موقد بجحيم حرب ضروس، فرغم ضوء النهار، فإنّ ذلك اليوم لا يُبدي شروقه إلاّ بالرصاص والدماء البرّاقة، وهذا ما اعتادوا عليه في تسمية أيّام معاركهم الكثيرة.

وكذلك فعل «اَلسّاحِليّ»، عندما قبض على ساعد الشيخ بعد سنة على وفاة «بن شامي» يُنبّهه أنّ الموت يسأله إذنًا منه ليُغادر الدنيا، وقد كان «اَلسّاحِليّ» يبكي خجلاً من أن يترك الشيخ وحيدًا، وكان يُردّد أنّه أسف على تبكيره بالموت قبله، فسأله الصفح أيضًا، وكتب له حقّ التصرف في جميع ما يملك، وأن يردع بكامل أمواله نوازل الدهر على «عُصيْرَةْ»، ثمّ غادر بعبرة واحدة من عيني ابنته «هَدِيّةْ» التي دسّت في أذنه ما كان يأمله قبل سنوات: (ترى يا يبه كلّ شيء عاده في مكانه..)، فتهلّل وجهه بابتسامة النصر، عندما فهم من قولها أنّها حفظت بيته كما أوصاها ليلة زواجها، فما زالت بكارتها على رباطها؛ وما نُشر للنساء من دم بالشرشف في اليوم التالي على الزواج، كان دم الجارية «زَهْرَةْ» التي جرحت قدمها عمدًا؛ وذلك حفاظًا من الأمّ على ماء وجه ابنها الشيخ الذي قضى يومه التالي هائمًا بحرقته في الخلاء، ثمّ شهدوا حياتهم لمدّة تُقارب عقدًا من الزمان دون أن يطّلع على هذا السرّ أحد، ما عدا الأمّ والجارية والشيخ، وأخيرًا «اَلسّاحِليّ» وهو يتشبّث بنَفَسه الأخير فرحًا بما سمعه من ابنته، قبل قضاء النحب والمعزّز مسبقًا بموافقة الشيخ، وكالصحاب القاضين أيضًا دفنوه على تل «شَارِقْ» الذي باتت سماؤه مضاءة برصاص متصل والناي يتخطّف الأرواح إلى لحن الوداع يُرافقه رجع نحيب بعيد.



(٨)

بعد زمن خلا على مفارقة «بِشَيبشْ» القرية، كان جنديّان من جنود الإمارة يقفان بباب الشيخ، والأمّ تتلقّف شأنهما في ذلك الصباح، كانت تعلم أنّهما يحملان خطابًا من الأمير لابنها الذي سيضعه حتمًا تحت فراش نومه، كما فعل من قبل بعشرات الخطابات، وكلّها تتضمّن دعوته لحضور مناسبة ما حسب قوله لها، وأشارت له ليلاً أنّ خطابات الأمير زادت منذ حادثة المسجد والقتيل، وبذلك لمّحت إلى أنّ هناك أمرًا آخر تنطوي عليه تلك الدعوات، وقد أخبرها ابنها بأنّهم شيّدوا مسجدًا جديدًا، ويرغبون حضوره على رأس أهالي «عُصيْرَةْ» للصلاة فيه يوم الجمعة، وأنّ هذه المرّة يجده عازمًا على الذهاب إلى الأمير للنظر في أمر هذه المراسلات الكثيرة، وكما هي عادته، لن يذهب للإمارة مباشرة، ولا حتّى في الموعد المحدّد وهو صباح الجمعة، بل سيذهب كما اعتاد إلى سوق «صَبْيَاءْ» يوم الثلاثاء، ثمّ وهو في طريق العودة إلى «عُصيْرَةْ» سيمرّ على الأمير، وهذا ما تعوّد على فعله منذ أن استقرّ الأمر تمامًا للإمارة في «صَبْيَاءْ»، فمطلقًا لم يذهب ملبّيًا طلب الإمارة مباشرة، بل يُؤخّر الاستجابة حتّى تحلّ له حاجة ملحّة فيذهب على مضض لقضائها، وفي كلّ ثلاثاء يغدو ضحى إلى سوق «صَبْيَاءْ»، يكون الأمير قد علم بخبر وجوده، فينزل يتتبّعه في السوق أو في أيّ منزل يزوره الشيخ، إلى أن يجده ويصحبه معه إلى مقرّه؛ ليقضي معه جميع

الشؤون المعلّقة، ودائمًا يخرج من قريته برفقة كبار قومه وبنادقهم التي لا يُسلّمونها بباب الإمارة، حيث نزل حاكم المنطقة ـ أمير «جازان»، عند رغبته هذه كشرط لحضوره كلّما احتاجوه، فتركت الحكومة لأهل «عُصيْرَةْ» وحدهم أن يحملوا أسلحتهم بمجالس الحكم، وهذا ما يُميّزهم عند أيّ أمير يُعيّن خلفًا لسابقه؛ ليتوخّى الحذر منهم.

تشهد قرية «عُصيْرَةْ» يوم الاثنين مساءً إقبال أُناس مسوقين من قرى الوادي الشرقيّة ومن «ساق الغراب»، والذين ينزلون للمبيت في القرية، ثمّ يُبكرون في الذهاب صبيحة الثلاثاء إلى سوق «صَبْيَاءْ»، وكانوا في يوم سوقهم ذاك على موعدهم، فسبقوا الشيخ وخاصّته، وهم بهذا التبكير الدائم يُشكّلون عينًا أُولى حارسة وحريصة على قراءة شوائب الطريق، قبل أن يعبرها الشيخ ورفاقه، الذين وصلوا ضحى، وما كادوا يتجوّلون داخل السوق حتّى قابلهم الأمير مرحّبًا بهم، ودعاهم إلى مجلسه في الإمارة، وقد سأله الشيخ أن يسبقهم، بعد أن وعده بأنّه لن يخرج عائدًا إلى قريته إلاّ وهو محقّق رغبته، فلهم حاجة يُنهونها أوّلاً.

وقد استشفّ الشيخ من أسلوب الأمير هذه المرّة أنّه ينوي مكاشفات كثيرة، فهو لم يكن كما عهده مداهنًا في حديثه، فقد كان هذه المرّة يُكابر على نيّات شرّيرة تكاد تفلت منه بين كلمة وأخرى، إلاّ أنّه لم ولن يُقدم على شيء من شأنه إيقاد الشرر ببنادق أهل «عُصيْرَةْ» وخاصّة في حضور أحلاف كبيرة العدد في يوم سوقهم.

(٩)

في ليلة واحدة، أتت تمحق نهار ذلك الثلاثاء، السماء دكّت أوجه الأرض بالماء، وقتلوا «سُبَيعْ» بعد أن قضى وطرًا من عشقه في امرأة مغرمة به، ومثّلوا به على جرف الوادي، حين بتروا شيئه وخصيتيه وقلّدوا عنقه بها، ثمّ أدلوه معلقًا كذبيحة من حافة الوادي الجنوبيّة، وعلى آثارهم ظلّت يد الله هاطلة بنازل شديد لا قبيل لقوّة الرجال به، فمزّق الأرض من جباه سروات «ساق الغراب» وسفوحها شرقًا وحتّى راحات «تِهَامَةْ» غربًا، ولم يستقرّ لليل ظلامٌ على القرى والأودية، إلاّ وقد أغرقت المياه كلّ قائم على الأرض من شجر وحجر. في تلك الليلة وقبل صليل المياه بالكائنات وجذوع الأشجار التي تجرفها معها، هبّ وادي «اَلْحُسَيْنِي» بمن فيه قاطبة، على صراخ الأمّ التي نادت بابنها «سُبَيعْ» تسأله عن سبب مسراه إلى عشيقة والخيانة تتربّص به، وعن تقليله من رجولة ذوي تلك العشيقة الفتيين إذ يأمل مغافلتهم، وهم في الوقت ذاته محتزبون بأسلحتهم يتربّصون بخطاه، هذا حين صاحت من عشتها:

(يا سُبَيعْ ما سَرّاكْ؟..
تلحق عَشِيقَةْ.. والخيانة في رَجَاكْ..
يا سُبَيعْ ما سَرّاَكْ؟..
ترتجي غفلة عَتِيقَةْ..
واَلمَحَازِب راصدةْ لَكْ على خُطَاكْ!)

عندما سمعها تُنشد ذلك في ابنها الأصغر، أدرك الشيخ أنّ أخاه قد قُتل لا محالة، وأيقن أنّ هذه المرّة لم ينجُ رغم صولات العشق التي كان يشتهر بها، فحتمًا هذه المرّة لحق به ذوو تلك العشيقة، لكن ما حكاية الخيانة هنا التي أشارت إليها الأمّ؟.. ولم يثر أسئلته الكثيرة في تلك اللحظة، وانشغل بمعالجة حالة استنفار الرجال الذين تشقّ أنفاسهم الحارّة ليلهم المطير، وكانوا في حالة غضب جامح لا تُريهم إلاّ نافذة واحدة على دمار ماحق سيخسفون به كلّ من كان سببًا في مقتل «سُبَيعْ»، أو كان ذا قربى بالفاعلين، رغم أنّهم لا يعرفون حتّى لحظتهم تلك غرماءهم في هذا الجرم. ولم يكن أحد غير الأمّ و«بِشَيبشْ» الغائب، يعرف معشوقة «سُبَيعْ» التي يتردّد على اقتحام مخدعها ليلاً، في ناحية بعيدة يصلها بعد أن يقطع الثلث الأوّل من الليل، وكانت زيارات «سُبَيعْ» لصاحبته تشكّل خطرًا كبيرًا عليه، إذ كان يتحتّم عليه التوغّل بين مخادع إخوتها السبعة المسلّحين ووالدها، حتّى يُلامس حضنها، وهذه المغامرات كانت محلّ فخره بأبيه، فهو الشجاع مثله حينما يُواعد صاحبته رغمًا عن أهلها، مجتازًا كامل التحصينات التي يُحيطونها بها. وهذه العمليّة تعدّ تحريضًا أكبر له كمتيّم بالغ معشوقته، فكلّما غامر بنفسه إلى تهلكة مماثلة، أثبت لصاحبته رجولته وأنّه يستحقّ الظفر بها، وكثيرًا ما ذهب «سُبَيعْ» إلى إيقاد ليلها، إلاّ أنّ «بِشَيبشْ» كان متعهّدًا بحمايته دون علمه، وكثيرًا ما بات «بِشَيبشْ» يُدجّج أمان طريقه ذهابًا وإيابًا، فيتتبّعه في بطون الأودية، وفي ثنايا الظلام، حتّى يقضي قلبه من الهوى حاجة بالغة، فيتبعه «بِشَيبشْ» في إيابه إلى أن يصل إلى جوار الأمّ المطمئنة إلى مغامراته والمحكومة بعين حارسه الأمين.

صادف مقتله، بحسب رواية الأمّ لأخيه الشيخ، أنّه سرى وحيدًا، فهو لا يعلم طوال سنوات خلت أنّ هناك من يحمي ظهره، وما كان لحارسه أن يدعه يسري في ليلة مطيرة؛ لأنّه لن يكون متفرّغًا لحمايته، كما لم يسبق للعاشقين أن التقيا في ليل مطير مطلقًا، فالعاشق في

الليالي المطيرة ينشغل مع أهل «عُصيْرَةْ» باستقبال السيل الذي يقوده دائمًا «بِشَيبشْ» من عروق الجبال، فيقضي ليله بعيدًا عنها في مزاوجة السيل بأراضيهم العارية، وتوطين المياه فيها وحراستها أيّامًا طويلة، كما أنّ هذه الليلة لم تُظهر في بدايتها أيّ إشارة إلى احتمال ذلك النزف الأبيض للسماء والنازل كجيوش جبّارة ومدمّرة في آن، وهما ـ «سُبَيعْ» وعشيقته ـ داخل العُشّة الوحيدة، وأهل البيت من الرجال ينامون بالخارج، فلم يُسعفهما الوقت لتدارك انتباه الآخرين الذين استيقظوا على هزيم السماء، ثمّ تضافرت عليهما الظروف السيّئة بعد ذلك، كما تداول الناس حكاية ليلة «مِعِينَة سُبَيعْ» كما أسموها مقرنين بين الإعانة السماويّة المتمثّلة بالمطر وبين مقتل «سُبَيعْ».

لم تكفّ الأمّ عن الإنشاد في ابنها المقتول، وخيوط الماء تُواصل تدليها من ضلالة الليل، والرجال يحشدون في صدورهم نار نقمتهم، وشيخهم صامت ينظر فيما هو فاعل، فأوّل ليلة يجد نفسه محتاجًا لـ «بِشَيبشْ» بحقّ، وعاجزًا تمامًا عن فعل شيء بدونه، فلو كان موجودًا لما راوحت في رأسه الأفكار وأيّها أصلح لما هم في شَركه تلك الساعة، ففي زمن خلا لا يكاد يُطلق توجيهاته، حتّى يكون رجله الأوّل «بِشَيبشْ» قائمًا بالعمل الحسن، كما أنّهم في هذا الليل المبتلّ لا يعلمون أيّ شائكة سيلقونها ويُمكن معالجتها والنفاذ منها إلى ولدهم الميت؛ لأنّهم لا يعرفون مكانه بالتحديد، فكلّ ما قالته الأمّ هو أنّه مصلوب في حافة الوادي المعبوب بالماء، وكانوا يظنّون كلّ الظنّ أنّ فقيدهم قد ابتلعه السيل، ولا أمل في العثور على جثّته.

بقوا على حالهم يُقلّبون موقد الضغينة على غير هدى، حتّى أعلنت الأمّ أنّ «سُبَيعْ» مازال هناك، وعليهم البحث عنه في ناحية الوادي الشماليّة من جانب القرية، حيث يجدونه محمّلاً على خشبة «دُوْم»، فاستبقوا جميعهم يخرقون وحل ليلهم ذاك، وشاغلهم أن يجدوا قتيلهم، لذلك لم يخلد ببال أحدهم كثرة ذلك النوع من الخشب

الذي يحمله السيل معه من منابت الجبال والجروف الصخريّة والشعاب، ممّا سيصعّب مهمّتهم، فانتشروا على حافة الوادي بمحاذاة القرية، ينخرطون في بحث دقيق، حتّى تمكّنوا من بغيتهم، إذ وجدوه محمّلاً على خشبتي «دُوْم» كبيرتين مربوطتين بعناية إلى بعضهما، وكأنّهما ضُمّتا عن قصد لحماية جثمانه، وقد استوى في رقاده الأبدي مغسولاً بالكامل، وكأنّ يدًا حانية قد مسحته، ونظّفته من كلّ شوائب الوحل والدماء، إلاّ أنّ آثار جراح تتّضح رغم العتمة الممعنة، إذ كانت الدماء تنزّ من بعضها، وظهر كأنّ تلك اليد حاولت إخفاء مواقع الرصاص والخناجر في جسده، حيث وجدوا ملابس لا تخصّه موزّعة عليه؛ أملاً في التخفيف من فجيعة منظره، (ربما، من يدري؟)، هكذا تساءلوا متعجّبين، وقد سَهُل حمله على أكتافهم دون أن يلمسوه، وفق توجيه الأمّ، وكانت تلمع في وجهه قطرات المطر الذي صار يكفّ عن انثياله الكثيف تدريجيًا.

وهم في انتظار الجثّة أمرت الأمّ بإطفاء الفوانيس داخل العشش كافّة، وأبقت فانوسًا واحدًا في عُشّتها تحمله الجارية «زَهْرَةْ»، فقد كانت حريصة على ألاّ يُشاهدوا صنيعَ القتلة بجسد ابنها، وبعد أن وصلت الجثّة وحالما تحقّقوا من وجهه، كأنّهم يأملون غيره، وجّهتهم الأمّ بإدخاله إلي عُشّتها، بعد أن طردت «أبو حَشْفَةْ» الذي كان يتلصّص في الجوار، كما أخبرتها «زَهْرَةْ».

حول الجثّة الممزّقة غشاهم سكون لا يُتقنه غيرهم، والتزم كلّ من في الخارج وقارًا يليق بجناح الحرس الخاصّ إذ يقفون بأسمالهم المبلّلة، وبنادقهم تُرهقها قطرات المطر، والرصاص في بطونها يتحرّى كلمة واحدة من عاصم أمرهم، شيخ الشمل، فهم يستطيرون من دواخلهم قسمًا بأن يتنادى الخلق في كلّ «المِخْلاَف» مصبحين على القتلة ومن يُناصرهم مزقًا لطيور السماء.

بعد أن اطّلع الخاصّة مع الأمّ على فقيدهم، ورأوا أنّ شيئه

وخصيتيه لحقها عبث حقير، لكنّ شخصًا ما خاطهما في مكانهما الطبيعي، وجّهت الأمّ بدفنه دون أيّ مظاهر حزن، وتقبّل العزاء فيه دون إعلان في القبائل، وعليهم في المقام الأوّل أن يهتمّوا بالمياه التي تلوب في أراضيهم دون قرار، فقد لا يجدون مثيلها عند هطول أمطار الموسم، فهذا المطر الصيفي سينفعهم كثيرًا، وأشعرتهم من خلال هذا القول أنّ الأرض أَولى من البكاء على فقيدهم، وأن «سُبَيعْ» يعرف قدره بينهم، مع إيمانهم بقداسة موته في هذه الليلة بالذات، فأيّ شخص مرضيٍّ عنه من الله يهطل المطر إثر موته، ليكون دليلاً على فرح السماء بلقائه.

مرّة أُخرى وجدوا قبرًا معدًّا لميّتهم في تل «شَارِقْ»، وقد أخبرتهم الأمّ بذلك، حيث تكرّرت هذه الواقعة عندما جاؤوا يدفنون «الهبّاش» و«بن شامي» و«اَلسّاحِليّ»، ففي كلّ مرّة يجدون قبر متوفّاهم محفورًا، فلزموا الصمت، وواروا القتيل التراب المبلّل بالماء، وكان وجود المطر في قعر القبر يُعزّز أيضًا لديهم أنّ مكانة الفقيد عند الله رفيعة، فتلك أُولى بوادر الجنّة.

فور عودتهم مجدّدًا صرخت فيهم الأمّ أنّ السيل يجول في بلادهم، دون أن يجد واحدًا منهم يُسكنه «مَحَاوِيهْ»، حيث يُحضن الماء ويستقرّ، فيذهب سدى، وتتلقّفه القبائل الأخرى، إذ حين يغشى الماء أراضيهم سيلاً، يخوضون معه معارك طاحنة ليُبقوه في بلادهم ولمدّة أيّام، لا يُبارحون فيها معاقله أبدًا، ولا يعودون إلى بيوتهم، فيظلّون يحرسون الماء، ودائمًا يكون هذا العمل بقيادة «بِشَيبشْ» الغائب عن هذه الليلة المجلجلة بمصابهم الكبير.

سروا يخفّون في خطواتهم بعد أن استودعوا بيوتهم البنادق وحملوا بدلاً منها الفؤوس واَلـ «مِسَاح»، ونزلوا إلى بواطن أراضيهم الغارقة، يشقّون عن الحبيسة موانع الماء، ويُقيمون السدود حيث يلزم، ويحفرون هنا، ويردمون هناك، حتّى تحقّق مرادهم، ورابطوا على

حدودها فرقة فرقة، بعد أن قسّموا مهمّات الحراسة وفق مسيرة الوادي، من قرى «اَلْجُرُوزْ» شرقًا ـ حيث تنتشر شقوق الجبال والتي تُيسّر سير المياه إلى السهول من تحتها ـ وحتّى وادي «أحمد عِكَام» غربًا حيث تخوم «صَبْيَاءْ»، وقد تناقلوا بينهم أنّ العمل أُنجز على أحسن وجه، وكما لو أنّ «بِشَيبشْ» بينهم، فكلّما همّوا بمعالجة جزء ما من الأرض وجدوه كما يبغون، وكثيرًا ما اجتمعوا على إصلاحات تظهر لهم أنّها سُوِّيت للتو، وكأنّما تساعدهم أياد خفيّة تبادر إلى إصلاح ما يغفلون عنه. كما سمعوا بأنّ طعنات لحقت برجل دسيس كاد يشقّ للمياه معبرًا في بلادهم، ذلك في ظلّ إهمالهم لثغر ما، ولو تمكّن ذلك الرجل من مراده لفقدوا السيطرة تمامًا على بقيّة السدود، ولتمكّن أعداؤهم من تسريب المياه إليهم، إلاّ أنّ قدرًا في اللحظة الأخيرة أوقف ذلك الرجل، وهذا ما أثار ذهولهم!. وعندما اطّلعت الأمّ على حكاية الأيادي الخفيّة أمرتهم بأن يكتموا هذا وألاّ يتحدّثوا به إلى أحد.

في اليوم الرابع وهم مازالوا يذودون عن بلادهم أيّ متربّص بمياهها، كان رسول الإمارة يقف بباب الشيخ، وقد خرجت له الأمّ تسأله عن حاجته بعد أن عرضت عليه الدخول فرفض، وأخبرها بأنّ الإمارة تتحرّى من الشيخ إجابة حول امتناع رجاله عن إتاحة الفرصة أمام الآخرين وتمكينهم من الاستفادة من المياه المحصورة لديهم منذ أيّام، كما سلّمها خطابًا مفاده أنّ شكوى رفعت ضدّهم سيُقضى فيها حين يمثل الشيخ أو أحد وكلائه أمام قاضي «صَبْيَاءْ».

في الليلة ذاتها كان رسول الشيخ يحثّ الخطى باتجاه «بني هَايِجْ» وفي طويته رسالة لا يطّلع عليها أحد أبدًا. عند ضحى اليوم التالي كان جمع من أعيان «بني هَايِجْ» وعلى رأسهم شيخهم يدخلون «عُصيْرَةْ»، متّجهين إلى الشيخ الذي خرج ليستقبلهم ويُدنيهم بفرحه وسهله إلى مجلسه، وقد اشتعلت سماء «عُصيْرَةْ» في لحظات برصاص يُعلن ترحيبًا عظيمًا بقوم ما حلّوا ضيوفًا عليهم منذ أكثر من ستّين عامًا مضت، وها

هم اليوم برسالة صغيرة يدخلون وادي «اَلحُسَيْنِي» بنوايا السلام والصلح، ويُقبلون آمنين على قائد شمل «اَلحسَانِيةْ» بحفاوة منقطعة النظير.

بقي الأعيان من الطرفين في الخارج، وانضمّت الأمّ إلى الشيخين وهما يعقدان اتفاقيّة بموجبها يتنازل كلّ طرف عمّا ساء في حقّه من قبل، ويسلّم فيها شيخ «عُصيْرَةْ» الأرض موضوع النزاع الطويل، ويسلّم شيخ «بَني هَايِجْ» البندقيّة «مِعْتِقْ» دون أن يطلع أحد على أيّ شيء من هذا، كما تعهّد الشيخ بأن تكون لهذه الأرض العائدة لـ «بَني هَايِجْ» حصّة من المياه قدرها يوم كامل بليلة كاملة.

لم تغب الشمس خلف بلاد وادي «اَلحُسَيْنِي» حتّى غادرها «بني هَايِجْ»، بعد أن ظفروا بعد ستّة عقود من الزمن أو يزيد بمطلبهم، وسيُباشرون من الغد تسلّم الأرض غارقة بالمياه، كما وعدهم الشيخ الذي بات يحضن بندقيّة «بِشَيبشْ»، ويُقبّلها وهي مازالت تحمل آثار حريق مسّها، وشرخت روحه لمحة بكاء حين تذكّر الراحل وأنّ هذه البندقيّة كانت مصدر أمان واديهم جميعًا، وأمان أخيه «سُبَيعْ» الذي مات إثر غيابها عن حمايته، ثمّ علّقها في مجلسه شهورًا طويلة، قبل أن تأخذها الأمّ وتضعها في عهدة جاريتها «زَهْرَةْ»؛ لتخرج بها إلى مكان خفي.

عند صباح اليوم التالي على تسلّم البندقيّة، ومع استواء الشمس فوق ستائر البيوت المكوّنة من الحشائش والخشب، دخل القرية رجل برفقة فتاة بدت ابنته، وقد توجّه مباشرة إلى بيت الشيخ، فاستقبلتهما الجارية «زَهْرَةْ» ورأت عليهما من الوعثاء ما جعلها تُعجّل بالنداء على الشيخ، وفي اللحظة ذاتها قرّبتهما إلى جوار الأمّ التي كانت تُرهف السمع للقادمين، وهي جالسة في ظلّ عُشّتها، وقد ظهر أنّهما قطعا طريقًا شاقّة، عرف مضيفهما فيما بعد، أنّهما اضطرا لقطع طريق أبعد؛ لأنّ مياه السيل أقفلت كلّ المنافذ أمامهما، فمنذ ثلاثة أيّام وهما يسيران باتجاه «عُصيْرَةْ».

كان الرجل يسأل الشيخ أن يأذن له بالحديث والفتاة بجواره صامتة، والشيخ يعرض عليه أن يرتاح ولاحقًا سيسمع منه، إلاّ أنّه ألحّ قائلاً: (يا شيخ عيسى اَنت ما تعرفني.. واَنا وبنتي هاجر هذي مشينا اَيّام حتّى نصلك، وداخلين عليك...)، وبقوله ذاك أدركت الأمّ أنّ الفتاة هي عشيقة ابنها «سُبَيعْ» وأنّ هذا الرجل والدها لا ريب، ووالد لسبعة شباب قتلوا ابنها، لكنّها لم تُثر من جانبها شيئًا، وبقيت على إنصاتها، وهي تراهُ يطلب الأمان في حياض ابنها الشيخ الذي ردّ عليه قائلاً: (أنت في وادي اَلحُسَيْنِي.. ومعتوق من كلّ دم يلحقك... تكلّم)، فاستجاب يقول بتردّد يغلبه الخوف: (يا شيخ بنتي هذي صاحبة اَخوك المرحوم.. وليلة المعينة اكتشفت اَنّها تدسّه في عُشّتها، لأنّي طلبت منها تنشق الفانوس أكثر من مرّة، ولا ردّت عليّ، فناديت اَخوتها، ولمّا اَقبلوا نَشّدتْ من داخل العُشّة:

(جُنْبِيّة شَوْقِي تُسمى اَلمُرُوحِي

يضربها مِنْ دون رُوحي ورُوحه

منْ حِيْ يحيا ومن مات يموتِ...).

أخبرهم بأنّ ليلة المطر كشف أمر ابنته مع «سُبَيعْ»، وعندما أدركهما رفضت إشعال الفانوس، فنادى إخوتها أنّها تؤوي في سريرها رجلاً، ومن فورها سألت صاحبها في شِعْرها أن يخرج خنجره «اَلمُرُوحِي»، وعليه من دونهما أن يضرب به الجميع، والدها وإخوتها السبعة دون تفريق، فمن يحيا فليحيا، ومن يمت فليمت، وأنّها بهذا القول بيّنت لوالدها أنّها عاشقة، وليست لعوبًا كما طعن الظنّ إخوتها الجاهزين بجمر غضبهم، وأكمل أنّه عندما سمع أبياتها الشعريّة، تأكّد من أنّها صادقة في عشقها، وإلاّ لو كانت كاذبة لتنصّلت فورًا من «سُبَيعْ»، وصرخت بأنّه دخيل سوء. لذا في اللّحظة ذاتها أمر أبناءه بأن يضعوا بنادقهم، وأن يخفّوا بطلب لعقاد الأنكحة، وفي ساعتهم تلك، ليعقد قرانهما، إلاّ أنّ «سُبَيعْ» عندما عرّف بنفسه ترك لدى الرجل

طمأنينة أكبر، ووافقه على أن يُؤجّل أمر زواجهما، إلى أن يحضر في يوم غد، مع أهله كافة، وعلى رأسهم أخوه الشيخ الذي كان يستمع للرجل باهتمام بالغ، والأمّ تتمعّن في درايتها المسبقة والخفيّة على الإطلاق، ثمّ حكى لهما أنّ أولاده، وبحجّة الليل المطير والسيل الذي يسمعون هديره قادمًا من الشرق، أصرّوا على مؤانسة «سُبَيعْ» لنصف الطريق، وحتّى يصل إلى أطراف بلاده، وحين تأخّروا أدرك وابنته أنّهم مقدمون على فعل ما لا قِبل لهم به أمام أهل «عُصيْرَةْ»، وبالفعل فقبل أن يخرج على آثارهم إذا هم يقبلون عليه بوجوه ظافرة، وما كاد الفزع ينزعه وابنته من مجلسهما حتّى أعلنوا بفخر أنّهم مزّقوه طعنًا بخناجرهم ورصاصهم، ومثّلوا به، وبشيئه وخصيتيه، ليكون عبرة، وهم أُولو منزلة لم تُكتب لعصبة من قبل، إذ فعلوا برجل من وادي «اَلحُسَيْنِي» ما لم يُقدم عليه أحد قبلهم، كما لم يسبق لأحد أن تجرّأ ورتّب نيّة على فعل ذلك، وليتنادى غدًا رجال «المِخْلاَف» قاطبة بهم وبرجولتهم، وأنّهم نالوا من قبائل وادي «اَلحُسَيْنِي» جميعًا منالاً لا يستطيعه أشدّهم بأسًا.

وحين أكمل الحكاية، وهو يبكي كطفل أحرقه سؤال لا إجابة له، خرّ عند أقدام الأمّ والشيخ، يسألهما أن يغفرا له ولابنته، وأن يغفرا لأولاده السبعة نظرًا لصغر سنّهم وجهلهم، فهم لا يفقهون شيئًا، ولا يُدركون مغبّة فعلهم الشنيع، أمّا هو فيعرف أيّ بطش سينالهم جميعًا، وكان نشيجه يملأ دار الشيخ، ولا يتقدّم أيّ شخص لاستطلاع الأمر، إذ بقي العبيد والجواري متشاغلين بأعمالهم، وبقيت «هَدِيّةْ» في عُشّتها مع الصبيّة «شَرِيفَةْ»، وظلّ المعاونون في الخارج لا يتحرّكون، حتّى جذب الشيخ من بين قدميه تلابيب قميصه، ورفع الرجل أمامه، ثمّ قال له محتدًّا: (يا رجل اَنت في بيت شيخ. . وهذا البكا ما يليق بي ولا بعُصيْرَةْ. . أوعدك اَنّي ما اَلمس واحد فيهم، وكلّ رجالي ملزمين بهذا الوعد. . وترى لك مقام عندي حتّى يطيب خاطرك اَنت وبنتك. . .).

(١٠)

مضت سنوات على رحيل «بِشَيبشْ»، تُقدّر في قلوب المكلومين عليه بعدد فصول الربيع التي طوتها ابنته «شَرِيفَةْ» في عمر راح يتفتّق عن ورد جسدها، وأمام عيون ما فتئت تترقّب نضوج تلك الأنوثة وترعاها، وتأمّلها أن تكون قرّة لا مثيل لها بينهم، ولا حتّى في ذاكرتهم. هذا ما تبثّه الجارية الخاصّة إلى سيّدتها الأمّ، عن فتاتهم وهي حكاية الوادي بجنّة وجنتيها، وصراحة عينيها، ونجم فمها، وأنهار روحها، فلا يُمدح حُسنًا إلاّ وجهها، ولا يقصّون بدعة إلاّ محياها، حتّى غشت القلوب أسرى، وقرّت في الآذان سيرة فاتنة، وعلى الألسن استقرّت ذكرًا أخّاذًا، وقد ظلّت رفيقة للأمّ على الدوام، بعد أن انشغلت أمّها «هَدِيّةْ» بتعليل الشيخ.

منذ أن صار عمرها يزيد على الثلاث عشرة سنة وهي تربو في حجر «زَهْرَةْ»، وتنشد من تعاليمها أدقّ التفاصيل عن حياة النساء، وتستفهم عن صنيع الرجال في قلوبهنّ، وتُفتّش في كلّ مرّة عن ضوء أشدّ إبهارًا على عتمة تلك العلاقة.

كثيرًا ما كانت معلّمتها الجارية تفتح أمامها النوافذ، كلّما عنّ لها شيء تراه عصيًّا، وتستقبل بريق الإجابات والمكاشفات بسعادة بالغة، فأدركت، منذ انطلاقة ريعانها، أنّ كلّ سؤال جديد هو منفذ أكبر إلى الأمام، وهكذا حتّى صارت الحياة لديها تكمن في البحث الجاد، فلا

تتداركها المخاوف بمخالبها، ولا يكتنفها اليأس، إلاّ إذا شعرت أنّها بلا سؤال آخر، يختلف عن سواه، يُبرّر لها قضاء يوم جديد، وهي بهذا اليقين تُؤجّج حماس بقائها، وتُؤسّس من جديد لمملكة الأمّ الكبرى، فلا يليق بهذا الشرف غيرها، ولا يُتوّج بهذا المجد إلاّ من كان على خطوها ذاهبًا ومستمرًّا.

رَبَتْ في عجالة كأنّما القدر يشي لهم بشيء قبل أوانه، فكُتب لها أن تكون في الخامسة عشرة من عمرها سريعًا، كما أسرّت الجارية بذلك للأم، وهي تُعلن أنّها أثمرت من أطرافها، فقد أصبحت ذات يوم تُخبر الجارية بأنّ مكنونها الأحمر تبدّى بين فخذيها، وعليها أن تُخفيه برداء يُماثله في اللون، وهكذا أينعت قبل أوانها؛ لتُخفيها عيونهم الراضية، وتُدير وحدها فيما بعد شأنها الخاص، حين تتكرّر عادتها الشهريّة، حسبما أُفهمت من الجارية المعلّمة.

في مساء وزرعهم «شَوَاكْ» إذ يبزغ طلع الثمار كشوك من الأرض، كانت تتفقّد خلاءهم جميعًا، وهي مهمّة دُرّبت فيها على حزم صارم مع العاملين، هذا في ظلّ تذمّر الأمّ من حفيدها «أبو حَشْفَةْ» الصابئ عن آثار أهله في العمل، وأثناء تجوالها في تلك الليلة، وعلى غير عادتها، كانت تحيد ببصرها عن مزارعهم شرقًا، فترنو بشكل متكرّر، وغير مبرّر، إلى جبل «عَكْوَةْ» الواقع بين بلادها وبين أحباط سروات «ساق الغراب» وتُتمتم لروحها بنشوة خالصة: (هذا عرشي.. وبلادي تحتي...)، وما كان لها أن تُكمل سكّ تاج ملكها المتخيّل حتّى أرخت أسارير روحها لصفير عذب، لا يخفى مصدره على أيّ فتاة وُجدت بذلك المساء، حيث كُنّ يعرفن صاحبه.

حقًّا هو ذاك الراعي الأوحد لواديهم، ورفيق «المُقْرِي»، الذي دخل القرية منذ سنوات وهو في صحبته، ولا يعرفون له نسبًا، ورفضوا أن يُنادوه «صالح» كما أخبرهم «المُقْرِي»، ففي تلك التسمية فرية على مكانته كما أوضحت الأمّ، وأمرتهم بأن يكون اسمه «ولد الهَيْجَةْ»؛

حيث نما إلى علمها أنّ «المُقْرِي» وجده رضيعًا تحت شجرة بمكان ما في الجبال، وذلك أثناء جولات لرجال من الإمارة لنشر دعوتهم، وقد صار في وادي «اَلحُسَيْنِي» ينزل منزلة الشرفاء بينهم، ويقرّ في مستودع مكين بقلب الأمّ التي ترى فيه جلال صاحبها القديم «اَبْن حُسَيْنَةْ».

ـ (هو ولد الهَيْجَةْ. . .)، هكذا أكّدت لنفسها، ولأوّل مرّة يُلامس منها أشجار صدرها، فيسلكها نسيمًا خفيفًا، يُناوش فيها أغصانًا غضّة، ويتسلّل إلى معابر مهجها من جهة، ومن جهة أُخرى كان جبل «عَكْوَةْ» اليمانيّ الجليل يركم نشوتها، وتُناجيه مرّة أُخرى: (هذا عرشي. . وبلادي تحتي. . .)، وتُضيف: (هذا الصفير ناي روحي. . هذا نافذتي إلى عرشي. . إلى عَكْوَةْ. . .).

في تلك الليلة همست الجارية للأمّ كعادتها بكلّ ما رأته من فتاتهم، وما راعها من تصرّف غريب، حين توقّف على حدود حقولهم راعي مواشيهم، يُناصبها النظر، ويُطارحها السؤال الصامت، وهي تشيح بوجهها إلى ناحية الجبال، والفتيات يحففن به من كلّ جانب، ويصهلن بأصوات عذبة، في ظاهرها ينشرن الذعر بين مواشيه لينشغل بالرعي، وفي باطنها تدعوه كلّ فتاة للنظر إليها.

وعلمت الأمّ أنّ «شَرِيفَةْ» بدأت تميل إلى جبل «عَكْوَةْ»، ففي الصباح التالي على ليلة ولادتها، وباتجاه واديهم تسللت «زَهْرَةْ» تحمل الحبل السرّي لـ «شَرِيفَةْ»، فدفنت جزءًا منه على ذلك الجبل، والجزء الآخر دفنته بدار الشيخ، في قرية «عُصيْرَةْ»، وهي الآن تنجذب إلى مآل آخر، وهو ذلك الجبل، دون أن تعلم أيّ نيّات حاكت لها هذا المصير منذ أن انبثقت عيناها على ضوء الحياة، وستُواصل بها ألف عام كما باتت تظنّ في فراشها، وتُقرّر أنّ مملكتها لن تذوي كممالك خلت وانقضت صروحها، كـ «الأَدَارِسَةْ» الخالين، بل ستأتي ببنيان قلّما وُجد بين الأمم، سيكون صرحًا مخلّدًا، وستُعيد أباطرة «عُصيْرَةْ» من جديد.

ولتُوقد الأمّ ذاكرة «بِشَيبشْ» في القلوب، كانت قد رتّبت عند حلول ذلك المساء متّكآت لنساء القرية وتتقدّمهنّ «شَرِيفَةْ»، في حفل «الدَرّهَةْ»، إذ النساء على عادتهنّ كلّما غاب عنهنّ عزيز، يُقمن محفلاً كبيرًا يرجين بالنشيد إياب الراحل. كان صوت «عَلِيّةْ» العذب يعرج للسماء، فيسري لحنه في عروق القرية، مشهرًا ضوء الزمن الماضي على جباه الرجال، وينزع من أرواحهم نشيجًا تتقطّع له الأنفاس. كانت لا تتوقّف عن غناء «اَلوِدَاعِيّةْ»، والنساء من خلفها يُردّدن ما لزم لاستقامة نضد مقطوعتها الغنائيّة التي تبدأ واصفة «بِشَيبشْ» بلآلئ «هَجْرِي»، وهي أفخر أنواع الحبوب، كما لو أنّها لآلئ تجري تحت المياه في مضاجع الأودية، ثمّ تشبيه خالته «صَادِقِيّةْ» بسيف الإمام «علي بن أبي طالب» المساغ بعناية فائقة. وتتسقّط من ريح الشمال حال الراحل ـ بِشَيبشْ ـ، وتُعدّد صفاته الحميدة، ابتداءً برائحة المسك في «اللبّاب» الذي يُزيّن رأسه، ثمّ لا تغدو بعيدًا إذا ذكرت جانبه المؤمن، فهو ـ كما تذكر الأغنية ـ درّة المسجد والمحسن لجاره. وكانت تتصعّد بدموعها إلى السماء، وتُنادي «اَلقِلِيصْ» إذ يعبر السماء برقًا، ليُودّعه لهم. ومرّة تستنهض الريح اليمانيّ أن يهبّ حاملاً سلامهنّ وطلبهنّ له بالرواح، ثمّ تستعطفه بأغلى ممتلكاتهم وهي الحقول التي يُسمّونها بأسماء مختلفة، كـ «جُعْدُل» و«مُرّةْ»، والتي تفيض بطلع زروعها البديع، ولو رآها كأنّها غرة فاتنة على العين، وكلّ البيادر ستضيق بالسنابل الذهبية في تلك الحقول. كانت «شَرِيفَةْ» تُكرّر في روحها تلك الأغنية، وتُتابع سلم موسيقاها في صوت «عَلِيّةْ» فتُتمتم معها بالكلمات في علوّ وهبوط، على ما تبتغيه من حسن لهذا المغنى الآسر، فكانت تُردّد:

(ودّعواْ يا لُولُوْ هَجْرِي لُولُوْ تحت الغَيْل تجري
في مضاجع الاَوْديةْ. . .
صَادِقِيّةْ سيف الاِمَامِي

سايغُهْ عادُه اعْتَنَى

. . .

ودّعُوا لي بِشَيبشْ مِسْك في لِبَابُه

ودّعُوهْ دُرّةَ المَسْجد. .

ما يخاصم جارهْ

ودّعُهْ يا قِلِيص عَقّ اَلسَمَا

وهُبّ يا رياح اليمانيّ هُبّ رُدّ لي السلامي

قُلّه هَيّا الرَّوَاحْ

لو تِرى جُعْدُلْ ومُرّةْ زرعها في العين غُرّةْ

كُلّ مِجْرَنْ شَا يضيق)

قضت «شَرِيفَةْ» ليلها تُغنّي تلك الأهزوجة، وتُسهب في خلجاتها ألف فكرة وفكرة، وتخيط على مهل عذوبة في عرشها المتخيّل، وهي تُعيد صورة جبل «عَكْوَةْ» المهيب. باتت تقصّ على نفسها حكايات أجدادها الذين عرفتهم من لسان الأمّ، ومن لسان الجارية عدّة مرّات، فلا بدّ أن تُعلي شأن مَنْ خَلوْا من هذه الأرض، وأن تُحيي نُصبهم في قلبيْ الأمّ و«هَدِيّةْ»، ستكتب مرّة أُخرى حياة والدها «بِشَيبشْ»، وستعيد إلى لياليهم مجد «الهبّاش» وفتوّة «بن شامي» ووقار «اَلسّاحِليّ» ومرح «غُبْرِي» وقصائد «عَرّادْ» وفحيح الشريف «مِشَاري»، ووله «سُبَيعْ» بالفتيات. ستُعيد إلى أزقّة قريتها جمر النساء ووقعه في أفئدة الرجال الذين صاروا إلى خنوع قاتل.

تحسّست بواطن قوّتها المشرقة، وقدرتها على أن تُعيد مهابة واديهم التي غابت منذ زمن أتت فيه طيور تنبّأت بها «حَسْنَةْ»، طيور تنقر «ساق الغراب»، هذه الساق التي شبّهوا لون جبالهم بلونها، وغفلوا عن هشاشة ساق الغراب الشبيهة، فكان لتلك الطيور أن هشّمتها فعلاً، فخلخلت جلاميد بلادهم وحصونها الشرقيّة، ودخلت من كلّ صوب

تقذف جحيمها حيث حامت، وقد أخبرتها الجارية نقلاً عن قائدة «آل هَايِل» أنّ تلك الطيور عندما نقرت جبهتهم الشرقيّة، كان لها ما كان، ففتكت بساقهم في مساء واحد، عندما قضت على ألف رجل منهم في ساعة واحدة وفي مكان واحد.

وتحسم «شَرِيفَةْ» في قرارها أنّ تلك الجبال قد ردعت حُمر «التُرْك» وقوم «باشا المصري»، حين كانوا حلفًا واحدًا لا تكيد له الأقوام الأخرى، ولما تفرّقوا في آخر دهورهم، ودُسّت بينهم نيّات لا تعنيهم، استطاعت القوى أن تحيق بجبالهم، فانفرطت تقرض معابرها، وتجيش أضدادها؛ لتفكّ وثاقها، وتزعزع عروتهم المتينة، حتّى زُلزلت «ساق الغراب» فشرخت إلى نصفين، وقهروا إلى الأرذلين، وحمل ذلك كلّ رجل من أهلها على مغادرة لا رجعة فيها، فإمّا الرحيل كما فعل والدها، وإمّا الحصول على إذن بالموت كما فعل الكثير من خاصّة الشيخ ظلّها الظليل.

بالرّغم من أنّهم شذّبوا مهمّات المرأة في العمل اليومي، نزولاً عند توجيهات «المُقْرِي» في ذلك ونكوصًا عن قيمهم الأولى، إلاّ أنّها منذ عامها الأوّل في إدارة العمل في الأراضي بقيت «شَرِيفَةْ» تحرص على عمل النساء في المزارع، وخاصّة في الصريم، إذ تُوكل مهمّة قطف السنابل إليهنّ بقيادة «عَلِيّةْ هادي» التي تتقدّمهنّ في هذه المهمّة؛ لأنّ ما تختاره من سنابل يكون مميّزًا بالحجم والجودة بقصد ادّخاره؛ ليكون بذور موسم الزراعة في العام التالي، ولا يُمكن أن يمسّ أحدهم هذه السنابل مهما تخطّفتهم حاجة الجوع إليها إلاّ ما تبقّى بعد عمليّة البذر، سيشترون به الخاصّ والهامّ جدًّا ولا يذهب إلى حاجة أقلّ. وبصفتها مشرفة عامّة على عمل الحصاد، كانت «شَرِيفَةْ» تقضي نصف يومها بجوار أمّها «هَدِيّةْ» في رعاية الشيخ، ومحادثة الأمّ، حتّى يحين العصر، فتُيمّم وجهتها مع «زَهْرَةْ» إلى المزارع لتقف على مراحل العمل، من جمع للسنابل، أو حزم القصب في مجموعات ترسل لضفاف القرية

العالي، وقُبيل الغروب «تُوجّب» تُطعم العاملين والعاملات، إذ تُسلّمهم أجرهم اليومي وهو عبارة عن «وَجْبَةْ» مرضية من السنابل.

وفي آخر موسم للحصاد أدركه الشيخ أدارت فيه «شَرِيفَةْ» العمل بنفسها، كانت قد بدأت بداية تُحقّق لها النجاح، سواء من حيث تسوية الأرض بأداة «اَلسّحْب» لدحوها أمام السيل الذي تحدّر على خير وجه في الحقول الممهّدة بسواعد المعاونين، ممّا سهل عليها ارتواء كافة أراضي الوادي، وطرقت جميع السبل الجيّدة في العمل، من حيث متابعة أجهزة الحرث التي وزّعت نوباتها على كافّة مزارع الوادي أوّلاً، فعلى عادتهم وفي انخراط كامل سارعت جميع السواعد لإنهاء كلّ مزرعة على حدة، وهكذا خلال أسابيع قليلة كانت كافّة أراضي الوادي مشوكة برؤوس الثمر الذي راح ينمو، وقد سُرّت الأمّ عندما نقلت إليها «زَهْرَةْ» أنّ الزروع صارت كلّها «تِغَاشِي» في وقت واحد، وذلك يعني أنّ فتاتهم أتقنت مواقيت البذر دون أيّ مساعدة، ولن تُواجه صعوبة في تتابع مراحل النبات الذي صار يغشى وجه الأرض، فـ «شَرِيفَةْ» لو أخّرت حرث حقل عن البقيّة لأكثر من يومين لخسرت الكثير، إلاّ أنّها كانت ملمّة بأدق تفاصيل العمل.

وممّا زاد قلب الأمّ فخرًا بفتاتهم، ذلك الحرص الذي أبدته «شَرِيفَةْ» على الاهتمام بثيران الحرث؛ حتّى بعد انتهاء دورها في الأرض؛ استعدادًا لعمل أكثر تعقيدًا، حيث قالت للأم: (أخاف مطر الشتا...)، فلو حلّ مطر شتوي على سروات «ساق الغراب» ونزل بسيل كبير على بلادها المثمرة، فسوف يقلع وجه الأرض عن جذور الزرع الذي لم يصل طوله نصف القامة بعد، عندها يلزم إعادة الثيران للعمل من جديد، وهذا ما تعارفوا عليه بعمل «اَلشّتيّةْ»، إذ يحرثون بين سطور الثمار؛ لقلب قطع الطين الموحلة على الجذور الرطبة وإعادتها إلى باطن الأرض كما كانت، وهو عمل شاقّ لا تأمن نجاحه بالدقّة المطلوبة، بالرغم من وجود الثيران المدرّبة جيّدًا على هذه المهمّة

بالذات. وقد بقيت تُناشد الجميع أن يهتمّوا بدواب العمل، وأن يتفقّدوا أجهزة الحراثة.. ومع هذا لم يحدث شيء من مخاوف «شَرِيفَةْ»، وظلّ الثمر ينمو، وبدأ يظهر إلى أن صار يَقْسِمُ ساقًا في الطول، ثمّ استوى إلى الركبة، وهي تراقب مراحل ارتفاعه؛ حتّى صار «وِزْرَةْ» إذ يناصب شدّة الإزار على الخصر، هذا عند منتصف الشهر الثاني من النمو، وهي في كلّ مساء تركض إلى الأمّ تحكي لها شهوة زروعها إلى حياة متّقدة، وهكذا إلى أن حلّت مرحلة «اَلجَضمْ» حيث العرانيس تتفتّق من تيجان القصب، ثمّ تكتمل السنبلة عند مرحلة اَلـ «صفوْ»، إذ صَفِيت حبوبها التي تُندّي بما يشبه الحليب إذا فُلقت الحبّة الواحدة منها، وهذا ما يعرفونه بمرحلة اَلـ «خَرِيطْ»، وبعد أيّام رأتها تتحوّل إلى «اَلنجِيفْ» وفيه تكون السنبلة نصف مستوية، وهكذا إلى أن سُرّت «شَرِيفَةْ» وهي ترى شهوة الحبوب تشتدّ إلى النضوج حين صارت «خضيرْ»، وهنا أعلنت بداية مهام الحماية، حيث تحلّ أسراب العصافير، وعدد من الحشرات الطائرة؛ لتكون شريكة في المكان وحتّى نهاية الحصاد.

مع بداية تلك المرحلة كانت في المساء تستحسن شيئًا من السنابل لـ «تِخَضّرْ» به الجميع، حيث تُرسلها للبيوت، فيصنعون منه الـ «ثِرِيثْ» بطحن حبّات السنابل الخضراء وخبزها، ثمّ يُفتّتون الخبز الحالي مع الحليب، وعادة تُشرف على تقديمه للرجال بعد صلاة المغرب في المسجد، فيكون زادهم الغني ليلاً. وكثيرًا ما وجدت «أبو حَشْفَةْ» يجمع ما يُريد من تلك السنابل وينأى إلى أحراش «الأثل» مستدرجًا إحدى الفتيات الجديدات على العمل، فيُقدّمه للفتاة مسلوقًا بعد استخلاص حبوب السنابل، أو بالـ «شويطْ» إذا ما استوى شواء السنبلة. وكانت لا تردعه عن ذلك، لكنّها تركن إلى تحذير الفتاة التي تُرافقه، وهكذا بدا لـ «أبو حَشْفَةْ» أنّ الجميع يتجنّبه، حتّى البنات الحديثات عهد بالعمل، وبنهاية ذلك الموسم كان قد أدرك تمام حصاره، ولا بدّ له من التودّد لربّة العمل الأولى «شَرِيفَةْ» التي تتفهّم

عجزه وانقلابه إلى سياسة المعشر الحسن معها، فعمدت إلى ابتزازه بالمال، إذ كانت ترى فيه خائنًا لم يكن لها أن تأمنه على شيء إلاّ إذا منّته بالمال والعطايا، وسياستها هذه مع «حَمُود» تأتي تحقيقًا للمثل الذي قالته لها الأمّ: (حُطّ الرّيال في طيز الذيب يسرح لك بالغنم!)، إذ تبيّن أنّها طالما أنعمت حتّى على الذئب بالهبات والمقابل من المال، فإنّ باستطاعتها أن تطمئنّ إلى هذا الذئب الأجير في رعايته لماشيتها؛ لأنّه سيحميها بكلّ أمانة، ولن يؤذي شاةً واحدة البتّة!، وهذا ما اعتمدته «شَرِيفَةْ» في تعاملها مع «حَمُود»، وفي جميع الأحوال كانت تُوكل إليه مهمّات أقلّ لا يُؤثّر توقّفها على سير العمل، لكن يلزمه تنفيذها بالتمام دون نقصان أو تخاذل.

كانت «شَرِيفَةْ» قد جهّزت عمّالاً خاصّين للذود عن المزارع، فكلّ عامل يحمل إمّا «مِضْفَةْ» يهزم بطينها هجوم العصافير على السنابل، أو يحمل «مفقعْ» ليُصدر به صوتًا عاليًا يبثّ الرّعب في الأرجاء، وتظلّ «شَرِيفَةْ» تُناوب بين المعاونين الأدوار، وتُنسّق ورديّاتهم قبل الظهر وبعده، فلا يُغادر واحد منهم إلى أيّ شغل عمّا عيّنته فيه، وقد كانت في تلك الفترة قد أوقفت كلّ المناسبات لينخرط الجميع في العمل.

عند حلول «الخريف»، موسم حصادهم ـ كما يُسمّونه ـ، كانت الحقول تضيق بزروع الذرة، وظهرت أعناق بعض السنابل منحنية لامتلائها بالحبوب؛ وعندما تقف «شَرِيفَةْ» على رابية القرية وتُشاهد أوراق القصب تتمايل في الهواء كبيارق خفّاقة، تنتشي روحها عالية بالاعتزاز، ثمّ تجد حقول بلادها بحرًا من الخضرة أمواجه تصطفق بلآلئ حمراء وبيضاء هي حصادها البديع لهذا الموسم، ناقلة بشكل يومي تلك الصورة المدهشة إلى الأمّ وأهلها جميعًا؛ إلى أن حلّت المرحلة الأخيرة وهي «النّصِيدْ» إذ يقصّ الرجال القصب من أعلى جذوره، مفضّلين بقاء أصول منابته فارّة من الأرض لخلافة طلع جديد، ثمّ طرحوه أرضًا تحت الشمس لمدّة يومين في صفوف متتابعة، ثمّ يأتي

دور النساء فيما بعد لقطف السنابل، وكلّ ذلك يُتمّم جادّة حصادهم الأكبر الذي يُذكّر «زَهْرَةْ»، وكلّ العارفين، بموسم حصادهم أثناء فترة «اَلْهَرْبَة». وبعد مرحلة «اَمْجّادَةْ» هذه، وإثر طلع أصول القصب الباقية في الأرض، يأتي حصاد أقلّ في مرحلة «اَلخَلفْ»، ويعقبه محصول «العُقْبَى» الأدنى نتاجًا، ثمّ تليها مرحلة «الجنِيّةْ» وفيها يخرج القصب شبيهًا لقامةِ الجنيّة ـ التي يتخيّلونها قصيرة جدًّا ـ وهي آخر مرحلة وحبوبها قليلة مقارنة بكمّيّات المراحل السابقة، وبذلك يحصدون أربع مرّات من حرث واحد في كل موسم.

في اليوم الأخير من مرحلة «اَمْجّادَةْ» الحصاد تفاجأت «شَرِيفَةْ» بحضور الشيخ العليل، حيث شقّ عليه أن تحتفل وحيدة بنهاية الحصاد الأكبر، وهو طريح فراشه، ولم تتعجّب هي من مجيء الأمّ في ركبه؛ فأمّها «هَدِيّةْ»، ولأوّل مرّة منذ بداية الصريم، قد رافقتها صباحًا إلى المزارع، وكأنّها تعلم بمقدم الشيخ في رفقة أمّه مساء، فسبقتهما كعين راضية على أدائها؛ ولتُخفّف عنها قدر تلك المفاجأة العزيزة جدًّا على قلبها.

لحظة وصوله كانت النساء مبثوثات في الحقل كالفراش تُشاغبهنّ أناشيد «عَلِيّةْ هادي» ليتعفّفن عن الكسل ويتحلّيْن بالجِدّة والهمّة في العمل، فأُعجب بأدائهنّ المتواتر في جزّ السنابل من أعناقها، وكانت زوجته «هَدِيّةْ» لا تقلّ حماسًا عنهنّ، فغافلها يُنشد فيها غزلاً حين شبّه جمالها بحبوب بلاد «هَجْرِيْ» الفاخرة وهي مسطّرة في حقولها، وتُقطف بحرص سنابلها من أعناقها عاملات يُجِدن الصريم، ويسألها أن تُخفي ما بينهما من عشق منظّم، حتّى يلتقيا رأسًا برأس.

شهق جميع النساء في الحقل، وهنّ يسمعن الشيخ يُنشد في زوجته:

(يا حَبّ هَجْرِيْ في رِدَاحَكْ مِسَطّرْ
ولكَ صَوَارِمْ يِضْرِبَنّك مِنْ الرُوسْ

خَلّى الكَلامْ بَيْني وبَيْنك مِسَطّرْ

حتّى نِتْلاَقَى ونِتْكَلّمْ مِنْ الرُوُسْ)

اضطرب الجميع، نساءً ورجالاً، هيبة من صوته المباغت، وركضت «شَرِيفَةْ» تستقبله بعناق لا تهبه لغيره أبدًا، وهو يتحسّس رأسها الدافق بجديلتين ملوّحتين بالشمس وقد استرسلتا من تحت منديلها الأخضر الشفّاف، وكرّر يقول لها مقبّلاً كفّها: (اَنْتِ آخر اَصْحابي. . .)، ثمّ تبسم لقصيدة «عَلِيّةْ هادي» التي أعفت زوجته من الردّ على غزله، حيث أنشدت أنّهما حبيبان وليس للناس شأن بهما، إلاّ أنّ هذا المكان مقرّ عملهما يشقيان به، تُذكّره بذلك أملاً في تأجيل جذوة العشق، فمردّهما سرير نومهما. ثار في ذلك المساء أنس رحب قلّل من الرهبة التي أحاطت بالجميع لحظة رأوا الأمّ وابنها يُشرفان عليهم، وقد تسلّلت إليهم بهجة بنشيد «عَلِيّةْ» القائل:

(حبيبي واَنْتَ سِيدي. .

ولا للنّاس حَاجَةْ

أنتَ تِشْقَى واَنَا اَشْقَى

ومَلقَانَا اَمْقَعَادَةْ)

تضمّن ردّ «عَلِيّةْ» معنى لمطارحات الفراش، إلاّ أنّ «شَرِيفَةْ» لم تترك لأطراف الحديث أن تذهب بعيدًا، وكأنّها تخشى من أشواك خجل تُصيب قلبيْ الشيخ وزوجته ـ أمّها ـ عند تلك اللّحظة، فنادت في النساء أن يعدن لعملهنّ، ثمّ عجّلت بإعداد مكان يليق بالشيخ وأمّه. وقد أرسلت في طلب «أبو حَشْفَةْ» ليُزوّدهم بالماء، إلاّ أنّها بدّلت رجاءها فيه حين رأته يرفع ساعده أمام عاملها، في دلالة عن ذَكَرِه الذي سيركّزه في وجه العامل إن بقي أمامه!

كان الشيخ قد اطلع على تلك الحركة من «أبو حَشْفَةْ»، فشعر بأسف لم يُظهره لأحد، وحين سألت الأمّ عنه، أسرعت «شَرِيفَةْ»، دون أن تُطلعها على فعلته القبيحة، مبيّنة لها أنّه قريب في الناحية الأخرى من

الحقل، كعادته يُطارد حشرات الخريف، فيصنع من بعضها نفاثات دائريّة. وأضافت أنّه لا يترك اللّهو في نهاية الموسم بحشرة «اَلزّنبُّوح» ذات الرداء الأسود اللامع وتُفرد أجنحتها عن لون أصفر زاه يُغطّي ظهرها، وكان قد قبض على واحدة من تلك الحشرات التي تتكاثر عادة في أيّام الحصاد، وكسر أحد مفاصل قوائمها مدخلاً فيه شريحة طويلة ودقيقة من السعف، ثمّ أطلقها تدور من حوله، مصدرة زنًّا عاليًا، وهو يغنّي مع زنّها المتواصل أهزوجة شعبيّة بصورة محادثة بينه وبين الحشرة، فيسأل «اَلزّنبُّوح» ما الذي أنزلها من «ساق الغراب» إلى سهل «تِهَامَةْ»؟ فتُجيبه أنّها نزلت لتحصل على وجبتها من الحصاد الأخضر، لكنّها وقعت في شَرَك القابضين. كان «أبو حَشْفَةْ» يرفع صوته منشدًا بالأُهزوجة:

(زَنبُّوح يا بو لُبَانَةْ:
مَا نَزّلَكْ تِهَامَةْ؟
قال نِزِلتَ اَتْخَضّرْ..
لِزْمُوْنِي اَملَزَامَةْ!).

وقع في قلب أبيه شيء من الحسرة، وهو يراه على تلك الملاهي الصغيرة، وسهم قليلاً فيما سيؤول إليه ابنه من بعده، ثمّ سرعان ما مال إلى الشأن الأهمّ وهو المشاركة في يوم إنجاز «شَرِيفَةْ» الكبير.

عادوا إلى عملهم جادّين، وبإشراف مباشر من الشيخ والأمّ، فوُضعت السنابل المتبقّية على البيدر، ودُرست بعصي الـ «حَنْيَةْ» التي قدّت من الخشب مفلطحة ملساء، تسهّل بها عمليّة الدرس، كما تمّ فعله بكامل سنابل الحقول من قبل، ثمّ جُمعت الحبوب وأخرج الشيخ منها مقدار الزكاة والعَشاء العام الذي يُدعى إليه الناس كافّة، للابتهاج بنهاية حصادهم، ثمّ وجّه «شَرِيفَةْ» بإخراج أجر الدارسين، فناولتهم ضعف ما اتفقت معهم عليه، ثمّ صُرّت في «اَلعِجَارْ» الحبوب المتبقّية، وحُملت على الجمال تلك الأكياس الكبيرة؛ لنقلها إلى القرية، في

موكب مهيب تحفّه النساء بالزغاريد، ويتقدّمه الشيخ والأمّ، والفخر يتوّج قلوبهم جميعًا بفتاتهم «شَرِيفَةْ» التي تكرّ مرّة لتتفقّد القافلة، ومرّة تتقدّم لمحاذاة مركوبتيْ الأمّ والشيخ. وكانت الأكياس موزّعة بواقع كيسين على كلّ جمل ما عدا الناقة «مِسْلِيَةْ» التي تتميّز بقوّة منقطعة النظير بين الجمال باستثناء جمل «اَلبَارق» الذي غاب عن هذا المحفل لسنوات كثيرة، فقد كانت تحمل أربعة أكياس وتتقدّم القافلة لمعرفتها الدقيقة بالطريق، وعندما وصلت إلى مرتفع لا بدّ من عبوره تقهقرت وتوقّفت تمامًا عن السير، وكان الجميع بمن فيهم الشيخ و«شَرِيفَةْ» يسألون عن سبب تمنّعها من التقدّم، فتسابقوا يدفعونها إلى الأمام إلاّ أنّها بقيت صلبة في مكانها، وعندما علمت الأمّ بالخبر نهرتهم عن إرغامها على التحرّك، فبقوا يُراقبونها حتّى عكفت قوائمها الأماميّة وراحت تصعد المرتفع حبوًا، وفهم الجميع لحظتها سبب رفضها السير على قوائمها الأربع، إذ كان المرتفع يحتفظ ببعض الوحل ممّا سيُعرّضها لحادث انزلاق خطير قد يتسبّب بكسور في قوائمها؛ نظرًا للوزن الثقيل الذي لا تنوء عن حمله رغم الاهتزاز الذي يظهر في عضلات قوائمها مع كلّ خطوة، ويُعيد الشيخ ذلك الاهتزاز إلى تقدّم عمرها الذي يقارب الأربعين عامًا. لقد أدهشت الجميع بمنظر حبوها والجمال من خلفها يُقلّدونها في حركتها الذكيّة حين تقاطرت جميعها تحبو خلفها دون تردّد، إلى أن عبرت القافلة ذلك المرتفع بسلام.

عادت «شَرِيفَةْ» تتفقّد مؤخرة القافلة وتعود وهي تُوقد في الرجال والنساء بلازمة الشكر والحمد لله على عطاء الأرض الذي بكثرته يُحيل لهم البحر عذبًا والجبال كسرات خبز، في دلالة على غِناهم الكبير. كانت «شَرِيفَةْ» تبدأ بشطر الحمد، والبقيّة يُنهون اللازمة بشطر الغِنى:

(الحمد لله حمد مُشْتَكَر
البحر عَذْب والجبال كِسَر)

وقاطعتهم الأمّ متوّجة يومهم ذاك، بالتغنّي في حاصدهم، إذ

شبّهت هذه الليلة بالقدر السعيد، لأنّها ليلة خالدة؛ إذ يشمل فضل سحبها كامل «المِخْلاَف» وما تُقابله من سروات «ساق الغراب» ـ جبال «العَبَادِل» جنوبًا، وحتّى أقاصي جبال «اَمْعارِضَةْ» شمالاً ـ، وستكون تلك السحب في وادي «اَلحُسَيْنِي» سقاية كل جائع وامرأة عائلة، وأنّ وادي «ضَمَدْ» نهاية السحب «المُخْوِلَة» بالمطر، فهو ظلٌّ بالإحسان على المحتاجين والمعوزين.

عندما اشرأب صوتها في المكان بالغناء:

(ليلةْ سعيدةْ وليلةْ قَدْرِيةْ

من العَبَادلْ لَشَامِي اَمْعرضيَةْ

على اَلحُسَيْنِي مَسقى كلّ طاوي ومُعْوِلَةْ

وفي ضَمَدْ ظلّ محسن وحَدّ اَمُخْولَةْ)

عندها استطال عنق ابنها الشيخ ليُقارعها الفرح ذاته، فناداها أن تتغنى بـ«شَرِيفَةْ» والناقة «مِسْلِيَةْ»، إحقاقًا لمكانهما، وذلك بترنيمة يُزيد في وصف حبوب حصادهم بحبوب وادي «بَيش» الذهبيّة أو ما يجلبه جابي الزكاة من وادي «مُوْر» الشهير بخيراته، وحين سمعته يُناديها ومنشدًا:

(يا صادقيّة قولي..

هي ليلة شَرِيفَةْ ومسْلِيَةْ

من ذهب بَيش وجابي اَمُّوْريّةْ)

ابتسمت الأمّ وردّت عليه تُمازحه: (غلبتني يا عيسى.. كفّيت ووفّيت)، فضحك الجميع واعشوشبت فيهم غبطة بمنالهم الكريم، وراحوا يُردّدون غناء شيخهم: (هي ليلة شَرِيفَةْ ومِسْلِيَةْ.. من ذهب بيش وجابي اَمُوْريّةْ)، وكان نشيد إيابهم بالمحصول يصل إلى قرى الأودية الأخرى، معلنين بذلك عرس الموسم الكبير.

عند تمام العِشَاء أقبل النّاس إلى بيت الشيخ لتناول الوليمة المقامة احتفالاً بنهاية الحصاد، ثمّ قدّموا للأمّ حصصهم في مخزون شملهم.

وعند نهاية الأمسية سرت الناقة «مِسْلِيَةْ» تَحنّ بصوت أليم، كأنّما قد أُخذت غنيمة بيد قوم لا يرحمون حاجتها للعودة إلى بلادها في وادي «اَلحُسَيْنِي»، وكلّما تناهى ذلك الصوت إلى شخص ركض نحوها مذعورًا، وقد شعرت الأمّ أنّ «مِسْلِيَةْ» تُودّعهم للأبد. في الصباح كان ناي باكٍ يجوب الأرض حزنًا على تلك الدابّة، ولم يتمالك أحد نفسه من البكاء أو الأسف على «مِسْلِيَةْ» التي لا تقلّ خسارة فقدها عن خسارة أحد الرجال الشجعان كما قالت الأمّ، ولم يعبر موت تلك الناقة سهلاً فقد كان محرّضًا لاسترجاع كلّ المرارات التي لقيتها «عُصيْرَةْ» دفعة واحدة في عقد ونصف العقد من الزمان، وهذا شأنهم مع كلّ حدث مؤسف ينالهم. باتوا ليلتهم مشفقين على ظرفهم ونافرين بأرواحهم إلى مناد قديم يستصرخهم فيهم قرنًا من الزمان كان هنا على ترابهم، وشقّت عليهم أنجع السبل لتعود أيّامهم على ما كانت عليه.



(١١)

لم يُوارب في يوم من الأيّام باب عُشّة الأمّ ولا يُمكن أن يُوصد حتّى في الليالي المطيرة، وتصرخ بمن يقفله: (أنا في رجا بِشَيبشْ)، تُكرّر أنّها لن تملّ من انتظاره الذي لا يستطيعه أحد في القبيلة.

نأى بهم الزمن وهي ترجو طرقات الشمال أن تحمله إليها وإلى قريته الحزينة المثقلة بعذابات الفقد والتيه، المحكوم بهما على تاريخ مجيد لرجال بدأت نجومهم بالأفول واحدًا بعد آخر، إمّا بالموت أو بالقتل، أمّا الرحيل فلم يأخذ من شغافهم سوى «بِشَيبشْ»، الذي لم يعد له أثر قطّ إلاّ في لسان الأمّ و«هَدِيّةْ»، أو أيّة امرأة تُريد أن تدعو على جارحها بالخروج دون عودة فتصرخ محتجّة: (أخرج خَرْجَة بِشَيبشْ)، إذ صار خروجه واقعة بارزة في حياتهم، مثله ككلّ الفوارق الزمنيّة المهمّة، وصاروا يُؤرّخون برحيله بعض الأحداث التي حصلت لاحقة أو سابقة بقليل، فكان الحدث القريب يُقرن برحيله، أمّا الحدث القديم فيُقرن بحادثة «اَلْهَرْبَةْ»، وهكذا أيّهما «اَلْهَرْبَةْ» أو رحيل «بِشَيبشْ» أنسب لبيان تاريخ أيّ صرف من صروف الزمن.

وأبقت الأمّ لنفسها وللعيون الناظرة أمل رجوع غائبهم. وكان ذلك الحدث بداية الواقعة التي حلّت بهم جميعًا، وراحت وصايا الأمّ تزيد عليهم يومًا بعد يوم؛ حتّى ليظنّ الواحد منهم أنّ كارثة أُخرى حالّة ستحيق بهم دون استثناء. ومع تتابع الأيّام غدت وصاياها هشيم

لامبالاتهم، إذ تعوّدوا منها الترهيب من فواجع الأيّام التي لم يلقوا منها شيئًا، بل ماجت حياتهم إلى شكل يحسبونه طبيعيًا، وأكثر فرصة للخلاص من شقاء السنوات الآفلة؛ هذا الخلاص الذي قدم به رجال يفدون على بلادهم في كلّ عام؛ ليُغدقوا في رسم الأمنيات لهم، ويهبوهم مرتعًا لأحلامهم، ومستقبلاً زاهرًا ينتظرهم في الشمال، ويُغروهم بالمال للحاق بجيش الإمارة، فكانوا يعدونهم بما لم يسمعوا به من قبل، ولم يحلموا به قطّ.

ظلّ الناس على عادتهم السنويّة يُؤدّون جزءًا يسيرًا من حصادهم للأمّ التي تبيعه في سوق «صَبْيَاءْ» بمساعدة معاونيها وبرئاسة حفيدها «حَمُود» في السنوات الأولى على عودتهم من «اَلْهَرْبَةْ». وبتدقيق حسابي لا يلبسه خطأ من «شَرِيفَةْ»، تُعاد بنود الميزانيّة، فتضع كلّ مورد مالي وفق خطّته المعتمدة مسبقًا، فجزء من الميزانيّة تخُصّصه لشراء أجهزة جديدة للحرث، وآخر لشراء الأعلاف، ومبلغ محدّد قدره تُسلّمه إلى الأمّ، ولا تعرف إلى أيّ قطاع يذهب من القطاعات المصروف عليها، ثمّ تحتفظ الأمّ بباقي الميزانيّة لسدّ حاجة ملحّة قد تُصيب أيّ فرد من القبيلة، وفي خفية عن «شَرِيفَةْ» والآخرين تُودع شيئًا في حراسة «زَهْرَةْ». ولا أحد يتنبّأ بما تكنزه الأمّ من ثروة، ويستحيل أن يظنّ أيّ شخص أنّها تُبذّر مال الناس المدّخر لديها، إذ لم يُذكر في يوم من الأيّام أنّ شخصًا وقف بباب الأمّ سائلاً مالاً وردّته خائبًا بحجّة انقضاء ما للقبيلة من مال في حوزتها.

قبل عهد «شَرِيفَةْ» بقيت الأمّ تُدير شؤون المحاصيل والرعي بشكل عام، فقد أدارت زراعة أراضي «بِشَيبِشْ» الغائب بشكل خاص، بعد أن ضمّت إليها تلك الأرض التي نازعه فيها «حَمُود»، حين وهبتها لـ «شَرِيفَةْ»، وقد حرصت كثيرًا على الذهاب بنفسها إلى الخلاء في جميع مراحل الزراعة، ابتداء من الوقوف على ريّ الأراضي عند جريان السيول، أو عند دكّها وتسويتها، ومن ثمّ حرثها وبذرها، ومتابعة نمو

الزرع، حتّى يتمّ الحصاد على الوجه المطلوب، وفي جميع مراحله الأربع، إذ لم يتوقّف عمل الأمّ عند مرحلة «اَمْجّادَةْ»، وهي الحصاد الأكبر؛ بل وحتّى المراحل الأقلّ إنتاجًا وهي مراحل «الخَلَفْ» و«العُقْبَى»، ثمّ «الجنيّةْ» تباعًا إلى أن تحصد من بذورها والمدّخرة من العام الماضي، أربع مرّات ومن بذر لمرّة واحدة فقط، هذا كما فعلوا بمحاصيلهم أثناء فترة «اَلهَرْبَةْ»، وكذلك في المواسم التي أدارتها «شَرِيفَةْ».



(١٢)

قبل حلول «ليلة اَمدُقمْ» ببضع سنين، كان سوق الثلاثاء يشهد لقاءات متعدّدة بين الشيخ والأمير، يتمّ فيها النقاش حول مطالب الإمارة التي بدأت تُثقل عاتقهم بما لم يكن لديهم في الحسبان مسبقًا.

ولم يكونوا أقلّ مرارة في آخر ثلاثاء التقى فيه الشيخ بالأمير، حيث عادوا بأرواح مكلّلة بالصمت المطبق، قارّين في بيوتهم؛ حتّى حان العمل المسائي في الخلاء، ولم يُغادر الشيخ داره إلاّ لصلاة العصر، ثمّ انقلب إلىٰ أهله مثقلاً، ويُفرط في أمر يرمض قلبه، فقد كواه الأمير من حيث لا يتململ من جرح ظاهر، عندما بيّن له أنّ اليد الطولى صارت للإمارة، وما عاد في وسع أهل «عُصيْرَةْ» أن يتحكّموا في مقدّرات الطبيعة، ولا يُمكنهم أن يحكموا بأعرافهم وقوانينهم، وشدّد على أنّ ظلّ تنظيمات الإمارة سيكون وارفًا على الجميع ومنصفًا لهم، وأنّهم سيخضعون دون تفرقة لقراراتها، وأنّ عليهم عدم حبس مياه السيول بوادي «اَلحُسَيْنِي» لأكثر من يومين، ووجوب الرجوع للإمارة في شؤون إدارة الأراضي والرعيّة. ولم يتوقّف عند ذلك الحدّ؛ بل أضاف الأمير أنّ الإمارة ستُرسل جماعة من المقرئين يُفقهون الناس في الدّين، ويُقيمون فيهم الصراط الذي يرونه صالحًا.

حينما خلا الأمير إلى مجلسه الخاصّ، في مساء ذلك الثلاثاء، أعلن أنّ لا خلاص من تعنّت «عُصيْرَةْ» إلاّ بواسطة رجل مخلص

للإمارة يستوطن حياتهم، وأنّه لن تُوكل هذه المهمّة الشاقّة إلاّ لمن يخترقهم من ناحية لا يستطيعون معها ممانعة بأيّ شكل من الأشكال، وذكّر مستشاريه بمحاولتهم الأولى التي كانت قبل سنوات، عندما أرسل «المُقْرِي» برفقة الشاب «ولد الهَيْجَةْ»، وما لقياه من معاملة مشينة في «عُصيْرَةْ»، لكنّ هذه المرّة سيكون الوضع مختلفًا، لاسيّما أنّ هناك بوادر ألمح إليها «المُقْرِي» تشي بتقبّلهم له، فخادمه الشاب صار يُكرّر ذهابه إلى قرية «عُصيْرَةْ»، ويقضي فيها أيّامًا معزّزًا ومحفوفًا بالاهتمام في بيت الشيخ، حتّى أنّهم عرضوا عليه الإقامة الدائمة بينهم، مع تكفّلهم له بحياة مرضية.

وكان للإمارة مبتغاها، فلم يمض شهر على التفكير بإرسال دعاتها إلى «عُصيْرَةْ» إلاّ و«محمد المصلح» أو المقرئ يُقيم في مسجدها، وقد تحقّق لها ذلك حينما تمكّن «ولد الهَيْجَةْ» من قلوب أهل القرية، وتغلغله في شعاب أرواحهم جميعًا، لما لجانبه من قداسة محفوظة بينهم، كما ساعده في ذلك اضمحلال بريق رجال «عُصيْرَةْ» الأوائل، وحتّى الأمّ بدت غافلة عمّا يدور، ولم تعر اهتمامًا لوجود ذلك الرجل في واديهم، وقد نزل الجميع عند صمتها ورغبتها في إهمال ذلك، فلم يُثرهم أن يُقيم فيهم المقرئ شعائر وطقوس دينيّة ما عرفوها من قبل؛ ولأنّهم جيل تال لا يُجيد التمحيص فقد ذهبوا إلى مشاغلهم عن ذلك الرجل، ولا يختلطون به إلاّ عند أداء فريضة الصلاة، أو إذا شقّ عليهم أمر في أحوالهم الشخصيّة، من نكاح وطلاق، أو في شؤون الميراث، فقلّة منهم تأنف إعطاء المرأة حقّها، مخافة أن تذهب أملاك مورثهم لغريب لا يمتّ لهم بدم كزوج المرأة إذا كان من خارج القبيلة. وقد كان شيخ الشمل يُشدّد في معاقبة كلّ من يُقدم على مصادرة ذلك الحقّ من المرأة، وهناك نساء كُثر هربن من جَور أولياء أمورهنّ، وعشن في كفالة الشيخ وتحت حمايته حتّى غادر الحياة في «ليلة اَمدُقمْ» كما عرفوها إلى أمد طويل، ومن بعده انتقل توق النساء للإنصاف إلى يد

«المُقْرِي»، الذي صار واليًا دينيًا، ومقرّبًا أكثر إلى الله، بعد أن كان شيخهم صاحب الولاية والقربى المطلقتين، وبعون أمّه في عهد تبدّد للنسيان وامتثل لسرد حكايات غدت في التالي من الزمن منقولة ومكرّرة، فتنقص شيئًا وتزيد شيئًا؛ حتّى سمحت للطاعنين في الحياة الأخرى التي حلّت برحيل الحقبة الأولى، تلك الحقبة التي مازال هناك من يُناصر عودتها ويُراهن على شمسها القادمة من جديد، مع روح «شَرِيفَةْ» الباقية على نهج أهلها في كلّ شؤون الحياة، سواء في إدارة الأملاك، أو في إدارة الرعايا الذين بقوا خُلّصًا دون تبديل، هم أُولئك الذين ينتمون إلى عشيرة الشيخ مباشرة، حيث انكفأت بقيّة العشائر على مقدّراتها، وذلك منذ موت كبرائهم، فتفرّقوا شِيعًا لا يمتّون بصلة لتلك الولاية العظيمة، إلاّ بجهة الإقامة وهي وادي «اَلحُسَيْنِي». وقد تتابعت هذه الحالة حتّى القادم السرمدي من الزمن، فلم يعد هناك ما يُقرّبهم كدم واحد وريح واحدة، فتنازعتهم مغريات الإمارة، التي استطاعت أن تصهرهم في دواليب مشروعاتها، وذلك بتعيين عدد كبير منهم أدلاء، و«أَخْوِيَا» أو معاونين، وإلحاق بعضهم بالجيش الذي طالما رفض الشيخ أن يلتحق به أيّ منهم، ففي إحدى المرّات أرسل له الأمير أنّه يحتاج إلى كلّ من بلغ أشدّه منهم، ليُسجّله في الجيش لما في ذلك من فائدة كبيرة للجميع، فردّ عليه الشيخ بكتاب يقول فيه إنّه لم يبلغ أحد أشدّه بعد في وادي «اَلحُسَيْنِي»، بمن فيهم هو ذاته الشيخ!

وبالتفافهم حول الإمارة صدقت رُؤى الأمّ حيث وضحت عند «اَلهَرْبَةْ» أنّ الزمن القادم سيسرق الأبناء بمال زهيد من ورق، وسيُغادرون بلادهم وأرضهم إلى بلاد لن تُظلّهم بخير أبدًا، كما رأت يوم ذاك.

(١٣)

منذ أن فضّل كبراء القرية وأعيانها التبكير بالموت، وتقديم اعتذاراتهم للشيخ عن مواصلة المسيرة في ظلّ وجود إمارة يشتدّ عود أمرها يومًا بعد يوم، ومنذ أفول «بِشَيبشْ»، وانقطاع ذكره عن ألسن الجميع ما عدا الأمّ و«هَدِيّةْ» التي تقصّ على «شَرِيفَةْ» بطولاته العظيمة، فمنذ ذلك لم تعد في قلب الشيخ وأمّه بارقة أنّ كتاب الأقدار باق لهم وحدهم، وأنّه لا يحمل لغيرهم أيّ نصر في الآفاق، إذ صار يحمل طيفًا آخر لا ينتمي إلى ترابهم، وكان هذا الطيف يُجلي ألوانه شيئًا فشيئًا، ما بين الرمادي والأسود؛ حتّى استقرّ إلى لون سانح لكلّ شكّ، ولا يصلون في محاولات فهمه إلى أيّ شبيه مقارب له، سوى لون ساق الغراب، وينثنون دائمًا عند كلّ رأي للأمّ حول تلك الحالة، فجميع العارفين بمواقع النجوم، وكلّ «اَلكَتَبَةْ» أو السحرة، والعارفين، ما استطاعوا التوصّل إلى رؤية واحدة تُبقيهم على صراط محدّد. وكانت الأمّ، بقدراتها المتجاوزة قدرات البقيّة، تتلمّس مخرجًا من زجاج الطلسم الذي يلفّهم، فذلك اللّون لا بدّ أن يكون دليلاً كاشفًا لحالهم الآني. ولعلّ السؤال عن ماهية ذلك اللّون هو السؤال المحرّض على التقدّم في البحث والتقصّي، وهو السؤال العصيّ الذي سيبقى لهم سنان موت محتّم، وكيف ستكون لهم غفلة عن نصل يحزّ جلدهم عميقًا كلّ ليلة، هذا منذ أن صرخ الشيخ، حربًا ضدّ الطيف المقبل، في يوم «اَلهَرْبَةْ» البعيد!.

كانت الأمّ تجد في ذلك اللّون القاني جانبًا مريعًا، فكلّما شعرت بالضوء يركم جبال «ساق الغراب» صباحًا أو كلّل حزامها مساء بأطيافه الصفراء والحمراء، أيقنت أنّ ذلك الطيف سينقشع عن خدعة لا تقل في كيدها عن أكاذيب «المُقْرِي» حين أتاهم أوّل مرّة، يصف لهم حمرة النار واصفرارها، ولن تقلّ تلك الخدعة فيما تحمله من خسّة عن الكتاب الجديد الذي سُطّرت فيه الأقدار كيفما تشاء الطيور النافذة من سروات «ساق الغراب» وصعابها، كما حكت عنها «حَسْنَةْ» قديمًا.

إنّ تتابع النور على الجبال يُقرّب إلى الأمّ فكرة أنّ هؤلاء الغرباء سيتتابعون فرقًا فرقًا، لا يُثنيهم عن تبديل الطبيعة القائمة أيّ شيء وتجريدها من أمسها، تحقيقًا لشكل ساق الغراب الجرداء من منابت الحياة، وأنّهم سيُواصلون عملهم الدؤوب دون توقّف، حاصدين فلذات الأكباد من الطين ابتداء، أراضي وخزائن قوت، ومن الولد تاليًا، وسينسجون أقدار البلاد والعباد على النحو الذي يُهيّئ لهم أن يُعمّروا، وأنّهم سيُطاردون كلّ قاهر أمامهم. وترى الأمّ أنّهم ماضون في ذلك حتّى إذا استطاعوا مطاردة الدابة، وهي شاهد القيامة الأوّل، لمنعها عن البعث، فلن يردعهم عن ذلك وازع؛ وسيقضون في الدنيا فسيح البقاء وكامل الدهر، ثمّ يستمرئون مروقهم حتّى يُحدّثوا أنفسهم بأنّهم وارثو العرش الجبّار!

كان أوّل أعمالهم التي ضامت الرجال، واحتقرت جهد النساء، هو منع طريقتهم في الختان، وفرض طريقة أُخرى وجدها أهل «عُصيْرَةْ» تمسّ رجولتهم، وتُخلّف خسارات بالقبيلة والأحلاف، ومن بعد تلك الطريقة لم يعد يحقّ للقبيلة التفاخر بأبنائها في يوم ختانهم، ولا التباهي بهم رجالاً يشدّون من أزرها، ولم يعد للفرح مكان في قلوب الأمّهات حين توقّف حصادهنّ المستمرّ في مخرجات الحمل والتربية، وحُرمن من رؤية صغارهنّ يعتلون مشارف الرجولة.

لقد شذّبت الإمارة مباهجهم العظيمة، وأنهتها حينما اعتمدت على

رجال معيّنين يسيرون في القرى ويقومون بختان كلّ من يجدونه دون ختان، وكان في هذه الطريقة من الذل البالغ ما لا يُمكن وصفه لدى القبائل، إذ تعني لهم تلك الطريقة مساواة الفتى بالبنت الزائد بظرها عن المعتاد، فتُطهّرها أمّها سرًّا، مخافة من علوّ شبقها إذا بلغت، كما فعلوا بـ«شَرِيفَةْ» وهي ابنة عشرة أيّام.

وعن ختان «أبو حَشْفَةْ» لنفسه، يوم غامر الشيخ بدعوة أمير «صَبْيَاءْ»؛ لتفادي الصدام معه، كان رجل «بني هَايِجْ»، في ضحى ذلك اليوم يتسلّل خلف الصبيّ بين أحراش «الأثل»، وشاهده وهو يبتر على حجر صوان قَلَفَة ذَكَره، فصار أمامه مشروع الوشاية بعصبة «عُصيْرَةْ» جاهزًا.

قبل رحيله كشف «بِشَيبشْ» نوايا الإمارة، ووجد صمتها حفاظًا على موازنة الأمور، وأنّها ساعية وفق منهج قادر على إدارة الشؤون كافّة، وكانت الإمارة تعرف أيّ منزلق ستقع فيه، لو بادرت ببغض العاصمة «عُصيْرَةْ»، وأعلنت عن نيّاتها المتشدّدة تجاهها، إذ كانت تُدرك قوّتها وبسالة رجالها في ذلك الوقت تحديدًا، لذلك لم تُحرّك أيّ ساكن في السنوات الأولى. إذ تأكّد بما يُشاع أنّها كانت على علم بقاتل عميلها رجل «بني هَايِجْ» في المسجد، وأنّها اكتفت إذّاك بإرسال القتيل إلى عصبته مع البندقيّة التي كانت تحيط بعنقه، ودون أن تُحدث من طرفها ما يدعو إلى تحريك الراكد الذي تحيك من خلاله ما تصبو إليه وتنشده من خططها.

لقد صدق «بِشَيبشْ» في حدسه، فحينما تهاوت قوى «عُصيْرَةْ» من رجال ونساء، فتقت الإمارة الباقي من نسيجهما، وشمّرت عن نواياها المدّخرة، فبدأت أوّلاً بتربية المنّ وأنّها أهله على الجميع، وأنّها راعية الفضل في البلاد، فبثّت هذه الدعاية بين القرى كثيرًا، وخصّت «عُصيْرَةْ» تحديدًا بقول منفرد لشيخها في آخر زمانه، حين صرّح له الأمير بأنّ الإمارة ظلّلتهم بالصبر، وأنّها كانت تعلم بكافّة الأفعال التي

لحقتها، كحرق مسجدهم وقتل رجل «بني هَايجْ»، خلاف المقتولين بواديهم إثر كلّ سيل تجرّه الأودية، ومخالفة دورة المياه في الأراضي، وأنّهم بقوا يختنون أبناءهم سرًّا، كما حصل لـ «حَمُود» خفية، في محاولة لخداع الإمارة.

برغم تلك المكاشفات، إلاّ أنّ الأمير لم يستطع الحصول على كلّ ما يُريد في وقت قياسي كما كان يتوقّع، حيث بقي الشيخ متماسك الهيئة كما عُرف عنه. وفي ذلك الثلاثاء بالذات، وهو يوم سوقه الأخير، قبل أن يعتزل الحياة العامّة تمامًا، عاد يذرع شأنه الحرج مع تلك الحقائق، التي لم يُصبه خوف من مطارحة الأمير حولها، فقد ردّ عليه أنّ أغلب تلك الاتهامات مرّت عليها سنوات ولا قيمة لإطلاقها الآن، فقوامة «عُصيْرَةْ» على الأراضي ومياه السيول شأن خاصّ بالمستفيدين، وهو مستعدّ لأيّ مقاضاة قصدها إقامة الحقّ في كلّ «المِخْلاَف»، وأنّه سيستجيب للإمارة حال وجدت دعوى يكون هو أو أيّ شخص من رعيّته طرفًا فيها، وقد أقدم على هذا الالتزام لأنّه مطمئن إلى الاتفاق الذي عقده مسبقًا مع شيخ «بني هَايجْ»، أمّا ما يتعلّق بأمر الختان فهو أيضًا شأن خاص بالنّاس ـ كما قال الشيخ للأمير ـ ولا يُمكن التدخّل في ذلك؛ لما فيه من إلحاق المهانة والذلّ بذوي المختون إلى أن تقوم الساعة.

إثر تلك المداولات مع الإمارة، خرج بعض الناس من وادي «اَلحُسَيْنِي» إلى جبال «ساق الغراب»، أملاً في الختان على طريقتهم، بعيدًا عن أعين الإمارة، ومنهم مَنْ بقي راضخًا لسوء الأحوال، وهؤلاء قلّة مستضعفة مستجيرة بـ«عُصيْرَةْ» من قصاص يُلاحقها، فاستطاب لهذه الفئة مدّ يد السؤال للإمارة، أمّا أغلب فتية «عُصيْرَةْ» الـ «عَتِيقَةْ»، إذ وشك عتقهم من وثاق الطفولة، فكانوا يتدبّرون في الخفاء ختان أنفسهم، ويُقيمون في الأحراش، أو على الـ «سَهْوَاتْ» المشيّدة بيوتًا على فروع الشجر في الخلاء، وذلك طوال مدّة علاج ذكورهم بأوراق

شجر «السّلَعْ»، ثمّ يعودون إلى قرية «عُصيْرَةْ» في صمت مرير؛ لفقدهم زهو الاحتفال بختانهم ورفع شأن رجولتهم بـ«شُهْرَة» بين القبائل، وبقوا على تلك الحال طوال عقود من الزمن تتابعت على ضيمهم؛ حتّى مرض في قلوبهم ذلك الفخر واقترب إلى أعماقهم موته.

حينما أعلن الأمير عن نيّة الإمارة في شقّ غبار «عُصيْرَةْ» بواسطة «المُقْرِي»، كان الشيخ يجتمع بخادمه وأمّه وجاريتها، وقد جمعوا كلّ الأموال من ذهب وفضة وريالات «فرَانسَةْ»، والبالغ قدرها ثلاثة أضعاف قيمة كلّ أراضي وادي «اَلحُسَيْنِي» شاملة ما يدخل في سلطتهم، وما وُهبتْ للشيخ من رجاله قبل وفاتهم، وكذلك الأراضي التي اشتروها ممّن فضّل الخروج من الوادي نزوحًا للجبال، إضافة إلى الأراضي المملوكة لـ «شَرِيفَةْ»، لكنّهم رأوا أنّ القادم من الزمن سيحمل المجهول الذي قد يُذهب ملكيّة تلك الأراضي لغيرهم؛ ممّا يستوجب معه وضع هذا المال في مستودع أمين لا يظهر عليه أحد؛ وحتّى يُمكن به استعادة ما قد يخسرونه لأيّ سبب كان.

لذلك نفّذ الخادم «حِنِين» وصيّة الشيخ، فنحر أكبر الجمال وسلخ جلده بعناية فائقة، وأحضره بعد أن جفّفه لمدّة من الزمن، واجتمعوا في يومهم ذاك ليُصرّوا المال المجموع في ذلك الجلد، ثمّ على جمل خرجت به الجارية «زَهْرَةْ» ليلاً إلى مكان لا يعرفه أحد، هذا ما تحدّثت به «هَدِيّةْ»، قبل وفاة الشيخ، إلى ابنتها «شَرِيفَةْ».

لا ريب أنّ لهذا الخوف الذي لم تعرفه «عُصيْرَةْ» من قبل، كان سببًا مقنعًا لجمع تلك الأموال وإخفائها بعيون لا تخون، فالسؤال عن مجدهم العظيم وكيف ينتهي إلى هذا الحال المتردّي، حتمًا سيدعو كلّ متتبّع لسيرهم إلى المبادرة نحو التفكير في السبب الحقيقي وراء ذلك الانحدار المريع.

ثلاث نوازل قد طوت أيّامها الطويلة على مضضهم، فاستغرقت قوّة أجسادهم وطمأنينة أرواحهم، وكان ما يُقارب عقد ونصف العقد

من الزمان ماضيين كفيلين بتلك الويلات، التي كان أوّلها «اَلـهَرْبَةْ» وثانيها رحيل «بِشَيبشْ»، ثمّ دخول المقرئ القرية؛ وحتّى التفافهم على أنفسهم، وحصر ممتلكاتهم، وجمع أموالهم، وإيداع مستندات ووثائق الملكيّة لدى رجل سويّ لا يطّلع على اسمه أو عنوانه مخلوق سوى الأمّ و«هَدِيّةْ».

(١٤)

بعد رحيل «بِشَيبشْ» بوقت وجيز، كانت الأمّ قد أرسلت معاونيها إلى «صَبْيَاء»؛ ليتحسّسوا، في سرِّيّة تامّة، وضع الشاب الذي قدم مع «المُقْرِي»، فوجدوه ملازمًا له في المسجد. وكلّما سنحت له الفرصة، خرج في الأزقّة، ولا يتفقّد حاجة النساء فيه، عندما يتعمّدن ملاطفته في سوق الثلاثاء، وهو لا يعيرهنّ انتباهًا البتّة، كما لو كان يخشى رقابة ما متشدّدة، كما اعتقدوا. وبخطّة رسمتها الأمّ اقترب معاونوها منه وتمكّنوا من جانبه الليِّن، وتجاذبوا معه أطراف أحاديث، وفتلوا حبال شركهم عليه؛ حتّى راعهم ذات لقاء بلاغة صراحته حين أبدى استعداده للهروب معهم إلى قرية «عُصيْرَةْ»، وعندما علمت الأمّ بذلك، جهّزت له مقامًا طيّبًا، وأعلنت اسمه «ولد الهَيْجَةْ» معيدة بذلك ذكرى «السّابِقَةْ» الأوّل أو «اَبْن حُسَيْنَةْ»؛ تمهيدًا لقبوله في القرية. وما كان لأحد أن يستهجن ما قامت به الأمّ رغم أنّه خادم ينتمي للإمارة التي آوته منذ طفولته، وقد صار يتنعّم بكامل الحقوق بينهم، فبطولته كما يظنّون ستُقارع بطولات أسلافهم؛ لذا سيكون له نفع ولن يندموا من بقائه في واديهم أبدًا.

لقد أوكلت الأمّ إليه مهام الرعي لمواشي الشيخ وخاصّته الراحلين، هذا بعد أن ارتكب «أبو حَشْفَةْ» الأخطاء في تلك المهمّة، وتخاذله عن أيّ عمل يُوكل إليه، وانصرافه إلى ميدان «المُسحُرْ»

وانشغاله نهارًا بهذه اللّعبة وغيرها، وليلاً بلعبة «عظم الطّرَق» حين ينهب الظلام مع أترابه بحثًا عن عظمة يُعيدها أنجبهم للميدان، أو يقتسمون السهر بإنقاذ كلّ فريق لأسراه من الفريق الآخر في لعبة «اَلسّاري»، أو مجالسة الجارية «زَهْرَةْ» التي تركم قلبه بكثير من القصص عن ملاهي وأسرار النساء المتعدّدة، لكن أبعد خيالاته لم تتسع لفهم رجولة «السّابِقَةْ» حين شرحتها له الجارية في معرض حديثهما عن سلالة هذا الفتى المجهول بالنسبة لوعيه، إذ لا يُتصوّر أن يكون لشخص مقطوع النسب كلّ هذه المفاخر، ويسأل نفسه بصوت مسموع: (ما الشرف اللّي يستحقّه وهو دفقة خسيسة ولا شرع يقرّها؟!)؛ لتُلجمه الجارية معترضة: (هذا ابن رجال، ولا يقدر واحد يمسّه بشي)، فيعود في دهشة لا ينزعه منها إلاّ فحولته وقدرته على مضاجعة ما يُريد من الفتيات، فتُثنيه الجارية عن مغبّة يَرِدُها كما تظنّ قائلة له بخيفة وخشية: (هذا شرع الوادي كلّه.. ما كان حتّى السّادة يلحقون فيه بكلمة تضرّه يا حَمُود!)، فينسى سريعًا أمر هذا «السّابِقَةْ»، فرغباته لا تتقاطع معه، ولا فائدة من الاهتمام بهذه الأمور كما يرى.

كان «ولد الهَيْجَةْ» يتقيّد بكامل التعاليم الموجّهة، ولا ينصاع إلى أهواء تتجاذبه في الوادي مساء، حيث يكبر كلّ شيء، الظلال وأغاني الرعاة، ورغبة النساء إلى الليل الهاطل، ونموّ حاجته إلى مقارعة الشباب، على رمال الوادي الذهبيّة، في لعبة «المُسْحُرْ» حين يركضون بعصي معقوفة الرأس يضربون بها كرة من قماش باتجاه مرميين، فيكتفي بقضاء ساعة قبل الغروب يُراقب أداءهم في تلك اللعبة، أو في لعبة «المِزْقَرَةْ» حينما يطرق فريق قطعة خشبيّة إلى مدى لا يصله الفريق الآخر، ويشتعل النزال عندما تميل الفتيات للمتابعة، حين تغفل عنهنّ «شَرِيفَةْ»، أو إذا تقدّمت «عَلِيّةْ هادي» لأحد الفريقين؛ لمنازلة الرجال في اللعب وتُقابلها «هاجرْ» ـ عشيقة سُبَيعْ ـ في الفريق الآخر، فتعلو الأصوات في الوادي، وتقرّ العصافير في أعشاشها قبل الأوان محملقة

في مكامن الصخب، وتختلط بعض مواشي الراعيات مع مواشي «ولد الهَيْجَةْ» بطريقة متعمّدة حين يُهملن عملهنّ، ولا ينتبهن إلاّ لسخط «شَرِيفَةْ» حين تصرخ فيهنّ غاضبة، وخاصّة العاملات في التعليف للدواب أو في تغريب خشاش الأرض عن منابت القصب والزروع الأخرى.

لم يكن «ولد الهَيْجَةْ» يُشارك في أيّ لعبة، عدا ذات ليل حين شاهد الشباب في ميدان «قُنَيْدَةْ» يُمارسون لعبة «الجيش الأَعلى»، هذه اللعبة الوحيدة التي شعر أنّها تدعو فيه الرجولة وتقدح بداخله جمرة الشجاعة التي هو أهلها، حيث رآهم يضعون شابًّا في حفرة ويهيلون عليه قليلاً من التراب ثمّ يسألونه: (مع أيّ جيش أَنتَ؟ مع الجيش الأَعلى وإلاّ معنا؟)، وكان السائلون يُشكّلون ـ بحسب قوانين اللعبة ـ فريق الثوّار على المملكة الكبرى، أمّا الشاب الحبيس فهو أسير جيشهم، وكلّما أبدى انتماءه لجيش المملكة الأعلى، أهالوا التراب عليه أكثر، وهكذا إلى أن يكاد يفقد أنفاسه فيستسلم لهم ويُعلن انتماءه لجيشهم الثائر، فيُخرجونه مباركين التحاقه بصفهم المتمرّد، ثمّ يدفنون من يتحدّاهم من جديد وهكذا دواليك.

عندما شاركهم «ولد الهَيْجَةْ» هذه اللعبة ذات مرّة كانت الغلبة له، إذ واروه التراب إلى أن غاب صوته وهو يُكرّر رفضه لجيشهم، وفي كلّ مرّة يسألونه الاستسلام كان يُؤكّد انتماءه للجيش الأعلى ووفاءه المطلق لقيادته العليا، وهكذا حتّى قلقوا بعد صمته المطبق تحت التراب، وفجأة اقتحم «بِخيت بَخَيّهْ» ـ خادم الأمّ ـ لهوهم ونهب الأرض عنه، في ظلّ ذهولهم وخوفهم عليه، فأخرجه حيًّا يبتسم كأنْ لم يكن شيء. ومن تلك الليلة وقع في نفوسهم موقعًا عظيمًا، إذ أثبت أنّه قادر على هزيمة كلّ شباب القرية، وأنّه لن يكون بعد ليلتهم تلك محلاًّ لغواية الشباب، أو أمام اختبارات تحطّ من رجولته، فهو لا يحتاج إلى كلّ هذا؛ لأنّه «ولد الهَيْجَةْ» ويكفيه ذلك فخرًا.

لم يُنازع أحدًا سؤال حول قدرته الخارقة على تحمّل عمليّة الدفن التي تسلب أنفاس الآخرين في ثوان معدودة، ولم يُثر هذا تعجّب الجميع عندما كانوا في مجلس الأمّ يستمعون لحكايته من «بِخيت بَخَيّهْ» الذي لم يكن يعلم عن لعبهم شيئًا، غير أنّ سيّدته أرسلته عَجِلاً إلى ميدان «قُنَيْدَةْ»؛ لإخراج الشاب في سرعة متناهية، وقد نزعه من باطن الأرض كمن ينزع معدنًا صقيلاً، فينفض عنه ما علق عليه من الرمل؛ ليخرج بريق جسده تحت ضوء القمر، ثمّ تحرّك به إلى السيّدة التي عنّفته وسألته أن يترفّع عن ذلك مستقبلاً.

بات الكلّ يزيد من حسن ظنّه فيه، وما كان لأحد أن ينبش فكرة في اللّيل عن تلك القوّة القاهرة التي يمتلكها، ولماذا انتصر كلّ ذلك النصر!! كأنّما هو ربيب الجيش الأعلى الذي لا يُقهر، ولكن تُرى أيّ زمام يقبض على ذلك الجيش؟ وأيّ يد ممسكة بذلك الزمام؟ إنّ ما تناقلوه من زعامة ومنعة، عبر عقود طويلة من الزمن مضت، هو الدليل الوحيد على ذلك الجيش الأعظم، ولكن الآن ماذا يقدرون وأيّ عتاد هم عليه؛ حتّى يكون جيشهم هو الأعلى؟ ثمّ ما الذي يمنع أن يكونوا ثوّارًا مخذولين، كما هو حال كلّ صبيٍّ منهم يستسلم فور أن تهلّ عليه قبضتان من التراب؟! أليسوا هم القلّة الباقية الآن، وذلك الآخر القادم هو الجيش الأعلى، إذ يخرج من معسكره «ولد الهَيْجَةْ» هذا، فيقرّ في صفّهم الهيّن، ويزرع فيهم الفرقة والشتات؟ من يدري!؟

كانت تلك تساؤلات «هَدِيّةْ» التي صارت تبتعد عن مجالس الأمّ لانشغالها بتعليل زوجها، وقد كانت ترى مزالق ما كان لها أن تقع من قبل، ولا تجد إجابة تميل بها إلى أمان صار يغيب عن قلبها، فهي ترى الأمّ تهتمّ بمعالجة مقاربات بين موطنهم وبين هذا الشابّ الدخيل، الذي ما كان له أن يصل إلى ما وصل إليه، لو أنّ «بِشَيبشْ» باق فيهم، وتخشى أن تُفاجأ به ذات فجر نائمًا في فراش «بِشَيبشْ» الباقي تحت سرير الأمّ منذ رحيل صاحبه دون أن يمسسه أحد.

بعد تلك المكانة التي تقلّدها «ولد الهَيْجَةْ» في القرية كان له أن يردّ الجميل، كم كاشف الأمّ، للـ «مُقْرِي» الذي ربّاه صغيرًا وعطف عليه صبيًّا، وهو الآن راغب في إدخاله إلى القرية، بعد أن تقدّم في السنّ، والسماح له بالإقامة في مسجد القرية؛ حتّى يُشيد له دارًا صغيرة إلى جانب الطريق المؤدّي إلى «صَبْيَاءْ» من الناحية الغربيّة للقرية، فاستجابت له الأمّ بعد أن ألحّ في سؤاله الدالّ على منزلة ذلك الرجل عنده، فرضيت تكريمًا للعرفان الذي حفظه للـ «مُقْرِي».

بمجيء المقرئ، واعتلائه منصب الإمامة، في غياب الشيخ العليل، جرت الأيّام رتيبة دون منعطف مفرح أو مؤلم، وقد داوم «ولد الهَيْجَةْ» على خدمة المقرئ بعد عمل الرعي، حيث كان يُدوّن له من كتبه بضع خُطب يُلقيها على الناس في كلّ يوم جمعة، ويُرسله إلى بعض المقيمين في أطراف القرية، ويُرغّبهم في التعرّف على «فضيلته» ـ كما يَعْدِل في شخصه أمامهم ـ، فهوى إلى مجلسه الديني أوّل مرّة «بُو هاجر»، إذ انشغلت ابنته عنه في العمل مع «شَرِيفَةْ»، ولم يجد لديه عنتًا أو تكبّرًا، فآنس من المقرئ طيبًا وخلقًا قلّما وجده في أشباهه الذين يجدهم بكثرة في «صَبْيَاءْ»، فتوالت زياراته حتّى بلغ «المُقْرِي» في قلبه المكان الذي يرغبه هو و«ولد الهَيْجَةْ»، واستمرّ في مجالسته، ومرافقته أثناء سيره في أزقّة القرية، وملاطفة الناس وتذكيرهم بأمور دينهم، حيث كان «بُو هاجر» يُقدّمه عندهم، فيتبرّمون من ذلك، إلاّ أنّهم لا يردّون ضيفهم المقرب «بُو هاجر»، فيُصغون على مضض مع جهالة تبطّنهم جميعًا، وفي كلّ مرّة يشعر «المُقْرِي» بصفاقة شخصه لديهم، إلاّ أنّه يستمرّ في مذهبه بلا كلل يُذكر، حتّى أعلن ذات مرّة عن مكافآت مجزية لكلّ من يحفظ آيات من القرآن وأحاديث نبويّة، حدّدها وعيّنها هو سلفًا. وقد استبشر «المُقْرِي» خيرًا بالفكرة التي تدبّرها مع الإمارة، عندما وجد عدد المقبلين على مشروعه كبيرًا، فاستحسن صنيعهم، وبشّرهم أنّ رضا الله عليهم ونعيمه قريبان، ونقد لقاء رضاهم

عن الإمارة ما وعدهم به من مكافأة مرضية لكلّ شخص.

صدقت الأمّ في رؤاها القديمة، فقد داوم «المُقْرِي» على بثّ بشراه طوال العام، حتّى تمكّن من أغلب الناس، يُعينه في ذلك «بُو هاجر» ساعده الأيمن، وأمين سرّه الوحيد، خلفًا لـ «ولد الهَيْجَةْ» الذي لم تعد له فائدة في أعمال «المُقْرِي» التي راحت تُثمر بشكل جيّد بسبب وريقات قليلة من المال أعمت الناس، وازدادوا بها ظلمًا وظلامًا لأنفسهم ـ كما رأت الأمّ ـ عندما وافق بعضهم على الالتحاق بالجيش، إذ تقدّم برفقة «المُقْرِي» عدد كبير من الرجال إلى الإمارة لتسجيل أسمائهم في جيشها.

حدث مساء يوم التسجيل في الجيش أن سُرقت أغلب الأوراق الثبوتيّة للمسجّلين، وأُحرقت دور أكثر من أربعين رجلاً التحقوا بالجيش، اشتعلت بلهبها قرية «عُصيْرَةْ» فكأنّما تنزّلت سماؤها بشهب حمراء تحرق ترابها، ولم تغفر لفعلتهم النكراء، فأكلت النار قواطع المنازل، وتطاير الشرر على محاصيلهم المدّخرة فركمها هشيمًا، ومال على أعلافهم فسواها رفاتًا هشًّا لا نفع فيه، وقد نال اللهب من جلود بعضهم فشوى لظاه الحارق وجوههم وأياديهم..

نبّههم الحريق إلى ما اقترفوه مقتًا لا مثيل له في حقّ بلادهم، لكنّهم رابطوا إلى دار «المُقْرِي»، فشيخهم إلى موت أدنى، ولم يعد من لدنه شيء يستطيع به أن يدفع عنهم تلك الكارثة ـ كما يُقرّرون ـ، وشعروا أنّ «المُقْرِي» سيقشع بدعواته الغضب الخفي، وقد اعتادوا منه تعويضًا يردّ كلّ مكربة حالّة أو يسدّ حاجة قائمة، فما عادوا يقفون بباب الأمّ ولا بمجلسها، حيث انفضّوا عنها منذ زمن بعيد.

تلك الليلة تدافع المتضرّرون في دار «المُقْرِي»؛ حتّى انشقّت الجبال بضوء الصباح على هرجهم، وهم يستمعون إلى خطبة طويلة من المقرئ، استخلصوا منها أنّ الإمارة ستتبع الجاني الذي لم يرع سكينتهم في دورهم، وأنّ الجزاء سيكون شديدًا له، وقبل أن ينفضّوا صاح

بعضهم بأنّهم هم من سيُلاحقون ذلك النكرة وسيُمرّغون أنفه التراب قبل أن يشنقوه أمام العالم أجمع، وكان في بيانهم شيء من الحرقة التي لا تتكشّف بينهم إلاّ لعرض يخصّهم قد سُفك، أو عار لهم تفشّى بين الناس، فما عادت لهم حياة يعيشونها.

من قبل تلك الحادثة، تناقلت النساء أنّ غريبًا يغير ليلاً على بعض بيوت القرية، ويلوذ بالفرار كلّما شعر به أحد، وكان صاحب البيت الذي يشهد الغارة يسأل أهله التكتّم على الأمر، إذ يخجل أن يُفتضح أمام أهل القرية الذين لن يروا فيه إلاّ خسيسًا؛ لأنّهم سيشكّون أنّ الزائر الليلي قد لقي إذنًا من بناته أو زوجه بالدخول؛ لذلك جروا على إخفاء السرّ عن بعضهم، ثمّ يُصبحون بوجوه تتقلّب في آثار الأقدام الموجودة جوار أسوار بيوتهم؛ علّهم يعرفون ذلك الغريب، وفجرًا عند الصلاة يقرأون في عيون بعضهم بعضًا سرّ تجهّمهم، أو حين يلتقون ضحىً في طريقهم إلى الخلاء، وقد دلّل على ذلك الأمر المشترك بينهم أنّ كلّ من مسّه خوف على أهل بيته منع بناته وزوجه من الخروج، وبذلك انقطع أغلب النساء عن العمل اليومي في القرية.

وكان يحقّ لمن خبّأ سرّه كلّما حصلت له تلك الحادثة، أن يستشيط غيظًا في دار «المُقْرِي» في ليلة الحريق، حيث أنّه لم يصمت كالبقيّة بل رأى ضرورة النيل من ذلك المعتدي الفاسق ـ كما وصفه المُقْرِي ـ الذي روّعهم في أمنهم وأمانهم، وقد هدّدوا بقتله إن قبضوا عليه.

تنامت في القرية خلال فترة زمنيّة قصيرة النقمة وارتفعت معدّلات الريبة بين الناس، هذا وهم ينسلخون تمامًا عن فسيح أمسهم التليد، ولم يعد من سلفهم سوى ذكريات ماضية، لاستغنائهم تمامًا عنها كما رأوا للأبد، وما صار يُعيدهم إلى زمن خلا غير مناسبات حزينة يهدرون فيها من وقتهم ـ بحسب شعورهم ـ شيئًا للأسف، كما هو المثال في حضورهم لمواساة الأمّ في مرض ابنتها بالوصاية «عَلِيّةْ هادي» التي

خارت قواها وهي تقود سربها في الحصاد، حيث تذاكروا روحها الممتعة في المرح الحاضر دائمًا، وما آلت إليه في آخر عمرها من فقد كبير، إذ أقسمت ألاّ تُفارق قرية «عُصيْرَةْ»؛ لتقطع بذلك دابر محاولات أبنائها الذين كانوا يصرّون على خروجها معهم إلى الجبال مهاجرين، بعد وفاة والدهم، ذلك قبل عدد من السنين جمعتها إلى عمر طويل قضته كاملاً في خدمة الأمّ وشيخ الشمل، حتّى غادرت في يوم ما محمولة في ركب «هَدِيّةْ» باتجاه جبال «ساق الغراب».

وحدها تلك المناسبة ومثيلاتها كانت تلمّ رميمهم، وتجمع ببيت الشيخ جيلاً جديدًا ما عاد له قيمة تُذكر، ثمّ بانتهاء تلك المناسبات يغيبون تمامًا؛ وكأنّ القرية انفرطت على الإطلاق عن جنسهم إلى غير رجعة، ولم تعد فيهم سوى تلك النعرة للانتقام من زائرهم المرعب، الذي لم يتمكّن أحد من الإمساك به، كما لم يتجرّأ أحد ـ قد لحق بيته أذى ـ على أن يُعلن في القرية عن تلك الحالة التي استشرت بينهم بشكل خفي، وظهرت في صدورهم فكرة وحيدة تشملهم، وهي أنّ هذا المباغت الليلي لا يُمكن أن يكون من خارج القرية، بل هو من داخلها، ولديه من الحنكة والدهاء ما يُمكّنه من هذا الفعل، رغم خطط كلّ راع لبيته المدبّرة للإيقاع به، وبمعرفة «المُقْرِي» الذي كان يُبارك كلّ خطّة قبل تنفيذها، إذ كان يُطلعه كلّ متضرّر على تدبيره، وفي انفراد دون علم الآخرين، فصار رجل الدِّين مستودع معضلتهم المشتركة جميعًا، دون أن يكشف ذلك لأيّ شخص، وكان يشدّ على يد كل من يُريد الثأر من ذلك المغير على أهله وبيته ليلاً، ويُقرؤه آيات الله الحافظة من كلّ مكروه له ولنسائه خاصّة، ودائمًا ما يستغلّ جانب الإهانة المخزية للشاكي، فيُحرّضه على متابعة نسائه، وحضّهنّ على أن يلزمن بيوتهنّ ولا يُغادرنها، وإن خرجن لحاجة ماسّة، فعليهنّ بالحجاب فهو أطهر لهنّ وأكثر أمانًا. وإن سترن وجوههنّ، فذلك أدعى ألاّ يُعرفن فلا يُؤذين كما جاء في القرآن ـ على حدّ تلقينه الديني ـ

وعليه إيقاد بصره وبصيرته حولهنّ، فلا يُفارقهنّ بالسؤال والمتابعة أبدًا.

ولا تمضي أيّام قليلة على تلك النصيحة للجميع، حتّى عمّت القرية هالة السواد للحجاب في البيوت والأزقّة وعند الآبار حيث حدود عمل المرأة، ما عدا «شَرِيفَةْ» وعاملاتها، اللاتي مازلن على سُنّة الأوّلين في شؤون الحياة؛ وقد أُشيع في القرية أنّهنّ يخرجن عن تعاليم الدِّين، لأنّهنّ يرفضن وضع الخمار الأسود على وجوههنّ، وهذه الإشاعة لم تأت من بعيد، فقد أطلقتها صاحبتهنّ في العمل «هاجر» التي لزمت بيت والدها منذ مدّة، وتخلّت عن عملها كمساعدة أُولى في الحصاد خلفًا لـ «عَلِيّةْ هادي» المقعدة، ممّا صعّب المهمّة على «شَرِيفَةْ» التي لم تُظهر كمدها من ذلك، بل واصلت فيض حيويّتها في الحياة، وقد كان موقف «هاجر» المتخاذل دافعًا جديدًا وقويًا لـ «شَرِيفَةْ» في تمسّكها بدورها في قيادة أسراب العاملات، فكلّما رأت خندقًا لقوّاتها يُدكّ أمامها، بقيت على حلمها في مملكة عظمى تكون أسيرة حنكتها في القادم من الزمن، وكان ذلك المرام الشاهق ينزعها إلى الصمود دائمًا، وعدم التواكل في الأعمال، أو الانكسار أمام عقبات صارت تتكاثر عليها، منذ أن توسّعت الإمارة في مكائدها لهم، بيد ذلك «المُقْرِي» الملعون في روحها وروح أمّها «هَدِيّةْ» كلّ لحظة وساعة.

لم يعد للمرأة شأن في احتفالات الختان إلاّ فيما ندر وخفي عن علم «المُقْرِي» ومساعده «بُو هاجر»، كما أنّها نأت بأفراحها عن الرجل، وما عاد بينهما أيّ مشاركة في الرقص أو الغناء، أو الاجتماع للتداول في شؤون الحياة، حتّى النساء العاملات مع «شَرِيفَةْ» سرن بشجاعتهنّ إلى موت بطيء، نتيجة كثافة الضغوط، وبدأ دبيب اليأس يتضافر عليهنّ، ويتقهقرن في بداية الأمر عن مجالس الأمّ التي يختلطن فيها مع «ولد الهَيْجَةْ» عادة، و«أبو حَشْفَةْ»، والمعاونين، وهكذا تشكّلت معالم انحدارهنّ في قلب «شَرِيفَةْ»؛ حتّى بدأت هذه الأخيرة تُعيد حساباتها، وتُقرّر القيام بالبحث عن سواعد بديلة، فلم تجد سوى

الرجال الذين عادة يرفضون قطف السنابل لما في ذلك العمل من قدسيّة لصيقة بالنساء فقط، إلاّ أنّها مضطرة إليهم في القريب العاجل، كما رأت، خاصّة أنّ البنات اللاتي عشن في وصاية الأمّ والشيخ، قد تفرّقن شيئًا فشيئًا بالزواج، أو انتقال الوصاية للغير، ولم يبق منهنّ سوى مَنْ تمسكن بأعمال المنزل خوفًا من الخروج، بعدما أُشيع أنّ غريبًا يتربّص بالنساء، وأنّه يختطف مهجة كلّ فتاة وحيدة فيُصيبها مصابًا يحرمها من الزواج طوال عمرها!.

(١٥)

قبل عام ونصف العام تقريبًا على واقعة «ليلة اَمدُقمْ»، كأنّ المشيئة أرادت أن تلوي أعناق المردة على إرث واديهم، المردة الذين خرجوا عن نسيج الحياة الأولى، واستفحل بهم الحال حين تنكّروا لماضيهم، وركنوا للمقيت من الحاضر الغريب، حيث غمّ عليهم حين هجرت السماء بلادهم، وأُصيبوا مصابًا عظيمًا في زرعهم وماشيتهم، فزُلزلوا في قوتِهِم وشرابهم، حيث قضى الجوع على من رفض سؤال الإمارة مددها، وهلكت أنعامه، أمّا من قام في ظلال الأمير محتاجًا، فلم تنقطع به الأسباب، وحصل على ما يُقيم جانبًا في حياته لمدّة لا بأس بها، هذا وفق رواية «محمد المُقْرِي».

في ذلك العام ذكّرتهم الأمّ بسنة «كُشْمةْ»، عندما كشّر الجوعى عن أسنانهم من شدّة الفاقة والتهموا قطع الطين في البيوت والطرقات، وهم ليسوا ببعيد من ذلك في عامهم ذاك، وخاصّة رفاق «محمد المُقْرِي» ـ كما قالت ـ، أمّا الذين لزموا الأمّ ودار الشيخ فما لحقهم ضرّ يُذكر، حيث كانت تمدّهم بخير وفير لا يعلمون له منبعًا، سوى كفّها التي لم تبخل بشيء عنهم يومًا، كما أنّ القلّة الباقية على المعروف مع الشيخ وأهله، ظلّوا ملازمين بيوتهم حماية لأهاليهم من المكاره الليليّة التي مازال يُحدثها ذلك الشبح في القرية، فما إن ينبلج الصبح حتّى تجد تلك القلّة زادها عند ساس عششهم، وغالبًا ما تُوجد الوجبة عقب ليل لم يظهر فيه أيّ مؤشّر لاحتمال وجود الزائر المخيف.

لم تُعلّق الأمّ على تلك الواقعة الملازمة لتخلف الغازي الليلي، فرفعت يدها ليكفّوا عن تلك الحكاية، واعتقد الحاضرون أن لا صحّة للشكوك التي ترى أنّ واهبهم السماوي يُرهب مزعزع سكينتهم، وهي في الحقيقة لم تكن لتذكر أدقّ التفاصيل في حضور «ولد الهَيْجَةْ»، الذي كانت تعلم أنّه يُزاوج بين مكانته في قلبها وبين حصافته التي يُظهرها في كثير من المواقف؛ أملاً في الخروج من خلال تلك المزاوجة بمطمع مهمّ يتمنّاه دائمًا. وهو يُلازم مجلسها على الدوام، أمّا هي فتتلهّف لملامسة قُذاله في أيّ مناسبة عابرة، إلاّ أنّها لا تجد مبرّرًا ليقترب منها أقلّ من خطوتين في كلّ الأحوال.

في بداية ذلك العام طلبت الأمّ من «غُبْرِي الليل»، المولود في يوم عاصف رملي والمرمي سرّه على التلّ في اليوم ذاته، أن يخرج في أثر الرياح، ماسحةِ الوجوه وشاقّة الوهاد والجبال، سواء كانت على اليابسة أو على البحار؛ ليسألها عن الغبار، فيقضّه من بواطن البسيطة البعيدة، أو من غلالة البحر المظلمة، ويجرّه إلى بلاد لهم يشقّ عليها العراء بعد أن مزّقها الجفاف، فلبّى نداءها، وقد زوّدته بزاد يسدّ حاجته لمدّة طويلة، ودسّت في يديه ريالات «فرَانسَةْ»، ثمّ خرج أهل القرية يُودّعونه في محفل مهيب، لم يشهدوا مثيله منذ زمن بعيد؛ وفاضت أرواحهم بالأسى من فرط ما شعروا به وهم يُراقبون طريقه؛ حتّى انسلّ طيفه في أفق الشمال الغربي، وكانوا يرجون عودته غانمًا ومظفرًا بغبار يجرف إليهم خصوبة وغنى التربة، ويزفّ لهم البشرى الأولى بمطر ثجّاج قد مَحِلَت السماء منه.

لم يتخلّف عن تأبين جلاّب الغبار سوى «المُقْرِي» و«بُو هاجر» وابنته؛ لأنّهم يركنون إلى الله الوهّاب كما تناقل الناس عنهم، حيث أعلنوا أنّهم لن يكونوا في زمرة المعترضين على القدرة الإلهيّة، فتسيير الرياح بأمر الله لا بقوّة رجل معدم لا يملك من دون الخالق شيئًا، وأنّهم براء من ذلك التجهيز وتلك الطقوس المنكرة في الكتاب.

عندما وصل إلى الأمّ خبر تلك المعارضة، أرسلت في طلب «بُو هاجر» وحين قدم إليها نوى أن يتحدّث معها من وراء حجاب لكنّه تذكّر أيّ نازلة ستحيق به لو عرض نيّته تلك، ثمّ أنّ هذا الأمر لا يعنيه كثيرًا إلاّ في حضرة «المُقْرِي»؛ ليُبيّن له أنّه ينصاع لله كما علّمه، وأنّه أخْيَرهم التزامًا بشرعة السماء، فطرد تلك الفكرة من رأسه، واستوى، بعد أن ارتجف صوته بالسلام، جالسًا على قَعَادَة أمامها، فسبقته تسأل في تهكّم جارح: (من متى وأَنت مُقْرِي يا بُو هاجر...)، لم يردّ بكلمة واحدة، فأردفت غاضبة: (دخلت هذا البيت وأَنت بلا قيمة ولا قبيلة تنهر عنك نار اَهل عُصيْرَةْ اللّي عزّزوك بينهم وكرّموك اَنت وبنتك، واَولادك قد قتلوا ولدنا.. واليوم تتنكّر لكلّ شيء وتسمّينا كفّار!)، كان يتقهقر في ملابسه مثلما تقهقر وهو يدخل مجلسهم أوّل مرّة مع ابنته، يطلب الرأفة والرحمة يوم ذاك، واليوم تصفعه كلّ العيون الموجودة، وتستنكر أفعاله بهم، فلا يجد مبرّرًا واحدًا يُنقذه ممّا هو فيه من حرج وخجل لا حدود لهما.

عادت تقول متوعّدة: (يا بُو هاجر اَظنّ اَنّ باقي لك ثلاثةْ اَولاد على الدنيا..)، ولم تكد تُكمل عبارتها حتّى خطفه برق الخوف فانهار عند قدميها يبكي، يُعيد المشهد ذاته يوم دخل بيت الشيخ، وهو يستجدي العطف على أبنائه السبعة من بطش صار في السنوات اللاحقة يسحقهم واحدًا تلو واحد، ولم يبق من السبعة سوى ثلاثة يتوعّدهم شرّ قادم، فطرحته أرضًا عندما ركلت صدره بقدمها وهي جالسة، وقد عدّته شيطانًا حين ساوته بالكلاب السود، فلعنته وفضحت زواج ابنته «هاجر» سرًّا من المقرئ، حيث صرخت فيه: (قم عليك ما على اَمكِلاب اَمسُود.. يظهر اَنّ سُبَيْعْ ما كان يرضي هاجر كما تشتهي، فصارت ما تعرف خالقها اِلاّ بزبّ المُقْرِي اللّي راح يشتهر فعله في القرية كلّها!).

وظهر لمن لا يعرف أنّ «هاجر» لم تتعرّف على الله إلاّ بمضاجعة

المقرئ، الذي أذهب عنها قدراتها في العمل واصطفاها لفراشه، وأنّه سيُواصل فنونه بذَكَره حتّى يُطارح كلّ نساء القرية، مسخّرات له بلا منازع، فهو الذي يحميهنّ بالدعاء من مقترفي الآثام فيهنّ، وهو الحريص على أمانهنّ آناء نومهنّ واستيقاظهنّ. هكذا استعرت تفاصيل الحكاية سريعًا في بيوت القرية وزيد عليها ما زيد.

خرج «بُو هاجر» من عند الأمّ ملعونًا مدحورًا، وقد امتقع وجهه بالهلع على أولاده الثلاثة المتبقّين، فهي لم تذكرهم لمجرّد المناورة، أو للوقوف على مدى مجالدته لشدّتها، بل هي تعي جيّدًا مرادًا قادمًا سيجزّ جذوره من بين الخليقة، ولن ينفع عندها أيّ جدوى في سؤالها المغفرة. هذا ما كان يُحدّث به نفسه وهو يتخبّط في خطواته بين الأزقّة تجاه أسفل القرية، حيث يُقيم بجوار المقرئ، وقد تذكّر موافقته على أن يُقابل الأمّ شريطة أن يُخبره بكلّ ما يدور بينهما، وهو إن تحدّث الآن فلن يجلب سوى الخراب الماحق لحياته ولأولاده وابنته، وكان في الإفشاء يُفكّر مليًّا ويرتعد جسده كلّه، وهو يرى أيّ منقلب سيكون عليه في الغد، إن هو تحدّث بكلمة واحدة ممّا أسمعته الأمّ، وقد كان في قراره يودّ لو يلعنها طويلاً ويشتم عروق أهلها جميعًا، لكنّه ما كان حتّى ليُحدّث نفسه بالتساهل في ذلك، إذ كانت في منزلة الأسياد الذين لا يُمكن ذكرهم بسوء، فكلّ من يُقدم على ذلك تخسف به قوى الأسياد الخفيّة، أو تحطّه إلى سقم يُكابده مدى الحياة، أو تُدنيه إلى علّة ما له خلاص منها، إلاّ بقربان يزفّونه في حشد كبير إلى السيّد المقدّس الذي بيده جلاء العلّة، فإن قبل كان الرضا عن المعلول ونهاية مصابه.

كان ينظر في خيار واحد لا ثان له أبدًا، وهو أن يُخفي كلّ ما حدث في تلك الزيارة الموجعة، ويختلق من بناة فكره حكاية مختلفة، علّه بذلك يكسب الحسنيين، مرضاة السيّدة «صَادِقِيّةْ»، وحُسْنى بيد معلّمه المقرئ.

لم تدم كذبته طويلاً عندما قال لابنته وزوجها المقرئ إنّ السيّدة دعته لتنقل إليه خبر تحوّل ملكيّة المنزل الذي يسكنه، منحة منها جزاء صلاحه طوال سنوات إقامته في القرية. فقد امتدّ عمر كذبته ليلة واحدة فقط، هي ليلة إيابه بوجه لا يبشّ بهبة مقدارها دار آمنة، إنّما عاد بوجه تُظلّله هالة غمّ خَفيَ على «هاجر» سببه.

ففي اليوم التالي تناقل الناس أنّ المقرئ يُقرّب «بُو هاجر» من مجلسه ويرفعه إلى منصب أمين سرّه؛ لا لقدرة في الرجل تُؤهّله لتلك المنزلة، ولكن لأنّ ابنته «هاجر» منال سهل لفراش «المُقْرِي»، وحين وصلت هذه الأحاديث للمقرئ وزوجه علما أنّ الأمّ فضحت سرّهما، وأنّ عليهما إيقاف مثل تلك الأقاويل المغرضة، فعزم المقرئ على أن يُلقّن أهل القرية درسًا قاسيًا في خطبة الجمعة القادمة، وكان يسمع من الناس أنّ السيّدة تملك قدرة القضاء على الجميع، وإلاّ ما كان بمقدورها نهر «بُو هاجر» عن نقل أيّ شيء إليه، وهو ينصاع إلى أوامرها صاغرًا لا حيلة له.

في يوم الجمعة أتت الخطبة الأولى بما لم يخطر ببالهم، فقد توعّدهم المقرئ فيها بالله وبجحيمه إذا هم أشاعوا البهتان في عرضه، وأنّ الله سينزل آياته المحكمات فيهم، فلا يُبقي من سلالتهم نقيبًا، ولن يسمح الله لهم بأن يمسّوا القائمين على حياضه بسوء، وهو ممّن اصطفاه العليّ الكبير لتطهيرهم من الرجس والمعتقدات الواهية، وعليهم أن يتوبوا إلى الخالق توبة هو ناقلها إليه بالدّعاء، وشاهدها أمام عرشه، إذا هم صَدَقوا فيها وصبئوا عمّا هم فيه من ريب في رسالته وهدفه السماوي الخالص.

وعندما بدأت خطبته الثانية تعرج في معراج لمسه الحاضرون صعبًا، بدأوا يحتارون فيما يصبو إليه، فقد ألمح إلى أنّه يجب نبذ كلّ قوّة عدا الإمارة، في توطئة واضحة للمساس بالمحظور عند نفر يحضر الصلاة، فلم يكد يُكمل فكرته عن تأييد الله للإمارة مبيّنًا مكانتها، حتّى

قفز الخادم «بِخيت بَخَيّهْ» من مكانه في المسجد وصرخ في الناس: (عمّتي صَادِقِيّهْ تقول هذا فاجر خسيس.. وأنّه ما يقدر يقول كلمة عن جوعكم أو خوفكم.. فالاِمارة عاجزة.. بس يشا الله له وحده.. ويتحكّم فينا على هواه.. فاسألوه يردّ عنكم هجّام الليالي إن هُوْ صادق...)، واصل «بِخيت» بصوت غاضب اعتراضه الذي ركّز فيه على أنّ أمنهم في أكلهم وشربهم، وسكينة مطمئنة يحيونها، كلّ ذلك هو من الأمور التي ستتكّشف عن مطالبات لا حصر لها، ولن تفي بها الإمارة التي يُراهن عليها المقرئ عند الاستدلال بأنّ الله في صفّها فقط، وقد اصطفاه الله له وحده، فهو صفّه المنيع، وأنّ دوره يتوقّف عند التحكّم بهم وفق سياسة ذلك الاصطفاء! وكان الخادم «بِخيب» يستدلّ على تدليس المقرئ بضعفه أمام غارات الليل التي صارت حكاية مرعبة وصل خبرها أعالي «ساق الغراب»!

انقلب المسجد إلى مهاترات وهمهمات متواصلة، حيث لاقى اعتراض «بِخيت» قبولاً لدى البعض، فثاروا في وجه المقرئ الذي لزم الصمت، وانحدر عن منبره إلى إقامة الصلاة ليُوقف الجلبة غير المتوقّع حدوثها، لكنّها ظلّت تُطارده من خارج المصلّى، فبقي عدد من الفتية غير المختتونين يُثيرون نارها بقيادة «بِخيت»، مثلما رتّبت الأمّ.

في مساء ذلك اليوم انقسمت القرية إلى فريقين، أقلّهما عددًا كان يتكوّن من المسجّلين في الجيش، وكان يُجانب الآخر بموقفه المستجيب للإمارة التي رأت تسليم المنقلبين على «محمّد المُقْرِي» في المسجد، والفريق الأكبر عددًا كان يرى أنّ في ذلك مساسًا بتقليد لا يليق أن يأتوا فيه بعار بين القبائل، فقد اعتادوا ألاّ يتمّ ثأر في عبد أو غير مختون أو امرأة؛ وكان هذا التقليد يدفع الكثير من الفتيان لختن أنفسهم، حتّى يجدوا في ذواتهم رجالاً يتحمّلون الثأر ويُحاربون لأجله، وإلاّ صار الفتى منهم أقلّ شأنًا. لذلك السبب كادت القرية أن تبيت على نزاع ساحق، لولا تدخّل منادي القرية الذي أمرته الأمّ، أن

يُوقفوا هذا النزاع، وأنّه يجب على الإمارة التريّث فيما قضت، حتّى تُنهي السيّدة مع «المُقْرِي» أمرًا عاجلاً.

عندما التقى المقرئ بالأمّ، وهذه المرّة لم يطلب، هو أيضًا، محادثتها من خلف ساتر، فقد أيقن أنّ دعوته لمجلسها عند تلك الساعة لن تخلو من جلل محض، وليس لديه القدرة على غضبها لو أنّه تمسّك بطريقته في الحديث معها كامرأة أجنبيّة.

لقد صدق توقعه، حيث بادرته، في وجود جاريتها «زَهْرَةْ» فقط، قائلة: (يا مُقْرِي ترى كان واجهتك ولد الهَيْجَةْ، واليوم ما عاد لك بيننا مكان، انتظرنا منك تفارق حياتنا في سكات إلاّ انّك اَبيت غير الإهانة...)، رفعت يدها فتهدّل كُمّ ردائها عن ساعد ممتلئ ترك في عينيه خاطفًا إلى حاجة، وقد منعت الأمّ مقاطعة همّ بها في حنجرته، فألجمه بريق الرغبة لحظة تعلّق نظره بساعد يدها العاري.

واصلت تقول: (سكتنا عنك كثير.. واَنت تلعب بالناس وتخرجهم عن طاعتنا باسم الله.. وما حملنا على السكوت إلاّ لكرامة ولد الهَيْجَةْ.. واَنت تعدّيت الحدود حتّى صارت لك قوّة تقيس حاجتك في النساءْ ووقت ما تِشا...)، هذه المرّة بتر حاجته في ذراعها البضّ، وانثنى على قولها الأخير يُنكر بانهزام اتهاماتها له بما يُشينه، ممّا جعلها تُضيف وهو يرفرف شفتيه، مطأطئًا رأسه، قائلة: (لا تظنّ اَنّي غافلة عن اَلاعيبك.. كلّ رجل في القرية يتقرّب منك حتّى تدفع عن بيته البلاءْ، وتعرف كلّ شيء عنه، فيكشف لك المسكين عن سرّه واَنت فعلك من بعيد...)، كان يُتمتم بتعاويذ حافظة من عيون المردة التي يشعر بأنّها تُحيط به، بعد أن أُسقط في يده تمامًا، وكأنّما ألقمته جمرًا يشويه إذ اشتعل وجهه، وانخفض رأسه حتّى تشعّب شعر ذقنه على صدره؛ وبين لحظة وأخرى يسرق نظرة إلى المحيط، ليتأكّد من أنّ موقفه الحرج لا يطّلع عليه أحد سوى الجارية، وأنّ الأسوار منيعة لا تسمح بذهاب الصوت إلى أبعد من ذلك المجلس، ولم يبدر منه أيّ

اعتراض أو مساءلة عن مصدر اتهاماتها المتوافقة قطعًا مع حقائق لم يكن مشدوهًا من معرفتها بها، فكثيرًا ما حذّره «ولد الهَيْجَةْ» من قدرتها على كشف كلّ الأمور في القرية، إلاّ أنّه كان يستخفّ بما ينقله له عنها، حتّى رفض مساعداته وجرّده من صفة «اَلْخَويْ»، ثمّ نقل أغلب المهمّات إلى «بُو هاجر». وهو في لحظته تلك كان يُواجه تقريع السيّدة «صَادِقِيّةْ» وحيدًا ودون عون يُمكن في وجوده التخفيف من حدّة التهم التي انتهت بقولها له: (وذا الحين يا فاجر اَنت مقروع بالدّين وبشرع عُصيْرَةْ ووادي اَلحُسَيْنِي، واخرج من هذي القرية ولا تُنَوّر الدنيا بكرة ولك ذكر هَا هِنا. . .)، إنّها نهايته كما رأته وهي تُقرّعه بالدّين وبشرع «عُصيْرَةْ» وواديها، وتردعه عن البقاء في القرية إلى شروق الغد. ولما للتقريع في عرفهم من إلزام وحجّة قويّة، ولا يُمكن أن يُذكر إلاّ في المفاوضات الحاسمة، فقد اضطرت الأمّ إلى ذلك مرغمة؛ لأنّها لا تُحبّذ أن تُؤذيه في جسده مباشرة، بل فضّلت أن تضعه موضع المقروع، وبالتالي لن يُسمح له بعد ذلك بأن يتجاوز الحدود المنهي عنها؛ وإلاّ سيكون عقابه شديدًا جدًّا.

عندما خسفت بكرامته، لم ينتظر أن تمدّ يدها لتأمره بالانصراف معلنة نهاية اللقاء؛ بل همهم بكلمات لا يعي حتّى هو أيّ معنى لها، وكأنّما يُسجّل رفضًا صغيرًا يُرضيه أمام المذلّة الكبيرة التي لحقته، ثمّ التوى متعجّلاً بما حمله من وعيد لا ينفكّ منه سوى بخروج فاضح من قرية «عُصيْرَةْ»، ولا يعودها ما بقيت هذه السيّدة على وجه الأرض تُرزق، كما قرّر.

عادت الإمارة في قرار القبض على الخارجين على سلطان الله كما أعلنت عصرًا، أُولئك الذين أثاروا الفتنة من المسجد، واستقرّت الأوضاع مع خروج المقرئ «محمّد المصلح» أو «محمّد المقروع» كما أطلقوا عليه بعد تقريع الأمّ له، وقد غادر مثقلاً بخوفه وعاره الذي لم تكشفه الأمّ لأحد، وتنفيذًا لأمره بقيت زوجه «هاجر» ملازمة أبيها؛ ولا

تخرج لأيّ أمر من أمور الحياة، وإلاّ ستنالها لعنة الله دون رجعة، وفق ما فهمته من زوجها وهي تُودّعه.

أمّا «بُو هاجر» بعد طرد معلّمه «محمّد المقروع»، لم يخرج من بيته مطلقًا، إلاّ مرّة واحدة شُوهد فيها ثمّ اختفى بعدها تمامًا، كان ذلك في مساء صعدت فيه الأمّ تلّ «شَارِقْ»، وشرعت تُنادي ماء السماء وتُجيّش جلاميد «ساق الغراب» وجبل «اَمدُقمْ»، تلك الليلة، التي أسموها فيما تبقى لهم من عهد «ليلة اَمدُقمْ»، كان يحضر «بُو هاجر» مع ابنته والناس الواقعة، وقد شاهدوه يُقلّب جسده على التراب باكيًا، ويصرخ في السيّدة أن تتوقّف عن نشيدها الداعي للجبال والسماء، خوفًا على أبنائه الثلاثة الباقين على قيد الحياة.

(١٦)

بقوا من بعد «غُبْرِي الليل» يُسرّحون أنظارهم للآفاق؛ فعسى البُشرى تُبادر بطيفه، وهم لا يبيتون على راحة بال على غدهم الجافّ، ولا حتّى في هجعتهم القلقة، حيث أقدموا على فكرة السهر المتواصل للنيل من أسباب ذلك القلق، وقطع دابر الشكّ الذي تلبّسهم ولم يهنأوا معه بحال سوي، جرّاء ما يمسّ دورهم ليلاً من اقتحامات تُرعبهم، وتحطّ من رجولتهم في التصدّي لها والحدّ من تكرارها.

لقد صارت القرية خاوية على صمت مطبق، ولا يُمكن لشخص دخيل أن يتنفّس بها حياة، أو يتلمّس فيها مظاهر وجود تحمله على الاستئناس وطرد الريبة. كانت مملوءة بالوحشة في أزقّتها وبيوتها، أمّا خلاؤها فغدت هيام الدواب الجائعة، والريح الناشفة تزفّ من وهاد إلى وهاد طرائدها من حشائش وخشاش البسيطة ولحى هشّة يابسة، تكون عند كلّ ظهيرة أديمًا دميمًا للأرض.

كانت «شَرِيفَةْ» كلّما اعتلت الزبارة ـ شرفة القرية على الوادي ـ رأت ضفاف ذلك الموت الفسيح، فلا يقع في نفسها يأس من أنّ هذه الأرض ستلد من جديد، وهي قادرة على اقتلاع دُمّل الموت من عليها، فشهوة السواعد إلى العمل لم تخب أبدًا، وكانت تعلم أنّ المواسم القادمة ستضطر فيها إلى البحث المضني عن عاملات لقطف السنابل، إذ ندرت أيديهنّ في وادي «اَلْحُسَيْنِي»، إثر الظروف الحالّة؛ وفكّرت ذات

مرّة أنّها ستكون مرغمة على فئة الرُّحل، وهم المتنقّلون في نجوع كبير، تلك الفئة التي تعتمد على العمل المؤقّت في مواسم الحصاد، وهي ستنال منهم عونًا كبيرًا، رغم ما ينقلونه معهم من عادات وتقاليد تتذمّر منها السيّدة «صَادِقِيّةْ»، وقد ألفت أهلها يرفضون تلك الفئات التي لا تُقدم على دخول واديهم البتّة، وكان «بِشَيبشْ» يقف لهم بالمرصاد.

كثيرًا ما قضت «شَرِيفَةْ» أماسيها في انتظار «غُبْرِي الليل» على تخوم «عُصيْرَةْ» الشماليّة الغربيّة، حيث خرج من هناك يُفتّش عن مكامن الغبار، غادر نحو غمرة الاكتشاف البعيد المفرط في المجهول، وهي تُنقّب عن معالم إيابه في حركة الغصون الجافة، إذا تخلّلها الهواء، وفي عتّة الأرض المتطايرة، وتُرهف سمعها لكلّ صفير ريحي في الخارج، فتركض عكسه وتتشبّث في الفضاء بكلّ لافح عابر، منذرة كلّ النهار لتتبع بوادر الفرج. وكانت تنهر الخادمات اللاتي يصرخن في الهواء الشديد أن يعود من حيث جاء، حين يعلو ويهبط بغسيلهنّ، أو يذهب بنارهنّ الموقدة في التنانير، أو يحمل الأوساخ والأتربة إلى داخل الدور وعلى مواعينهنّ، فيصرخن فيه قائلات: (علي ما هو عندنا. . علي ما هو عندنا. . .)، حيث يعتقدون أنّ كلّ ريح قادمة هي قوّة «بني أميّة» وامتدادها ممالك في أعالي «ساق الغراب»، تلك القوّة التي مازالت في ضلالها البعيد تقتحم القرى، تُفتّش عن الإمام «علي بن أبي طالب»، والنساء يخرجن ناهرات تلك القوّة، يُنفين وجود الإمام لديهنّ، فتخور الريح في عزمها وتتقهقر عن مؤن البيوت، وتنحسر إلى جوار البحر، لكن «شَرِيفَةْ» تمنعهنّ من ذلك؛ لكي يتمكّن كلّ تيّار هوائي مقبل من التقدّم، ولا يتوقّف عن تكوين جيوشه الرمليّة، حاملاً الحياة إلى بلادها الشقيّة بالجفاف.

بقيت «شَرِيفَةْ» على ذلك الحال وقتًا طويلاً، والأمّ تستطلع أخبارها، وتستعرض مع «زَهْرَةْ» نشاطها المستمرّ في إعداد أجهزة الحراثة، وتسمين أفضل الثيران التي ستعمل في الموسم المقبل،

فتُرزقها أَخْيَر هبات الأرض، وخاصّة تلك السنابل المدّخرة لتكون بذورًا لموسم الزراعة التالي، لدرجة أنّها أحيانًا وفي غفلة عن أعين الخادمات، تسرّ في منديلها الأرز الذي لا يُقدّم طعامًا إلاّ للمرضى، فهو شفاء مؤكّد وعاجل تجلبه السفن من «سنقافورةْ»، أبعد نقاط الأرض في اعتقادهم، فتُلقم منه ثورًا نصوحًا أو بقرة «قُرُوب» ـ تُوشك أن تضع حملها ـ، وترفض دائمًا إطعام دوابها المحبّبة إليها من حبوب «اَلدِّفينْ»، التي تجلبها الجارية من مكان سرّي، وتكون برائحة الأرض كما تظنّ، لكونها مطمورة تحت التراب منذ وقت طويل، حتّى لتتساءل بإلحاح عن مصدر تلك الحبوب النخرة! وقد كانت تحرص على الاعتزاز بدواب عملها، فلا تُقدّم لها شيئًا إلاّ عزيزًا، كما تُعلن باستمرار للجميع المغبوطين من أمانتها وصدقها حتّى مع الحيوان، وكثيرًا ما دسّت الأمّ في خاصّتها أنّ الله لم يعد يرحم هذه البلاد إلاّ إكرامًا وتقديرًا لفتاتهم النادر إنسانها في الوجود. وفي ذلك العام من أيّام بحثها الحثيث عن كلّ هبّة نسمة تُخاتل يأسهم على التلال، كان للمطر الصيفي عبور خجول، عندما نزل بما يكفيهم لزروع قليلة، تسدّ حاجة ما كانوا ببالغي انقشاع غمّتها من دونه، وهذا النازل البهيج كان دليلاً قاطعًا على أنّ السماء أشفقت على «شَرِيفَةْ» ودوابها وبلادها.

عندما نزل ذلك المطر في غير موسمه سارع الناس إلى الحقول الصغيرة وأحيوها بثمر «شَبّ» يتصاعد سريعًا، تاركين الحقول الكبيرة مكشوفة للريح في انتظار الغبار، والمطر الأكبر. قبل طلوع الزرع كان الحزن يُغالب «شَرِيفَةْ» كثيرًا كلّما سمعت الرجال والنساء يعنونها في أهزوجتهم الشعبيّة الحاضّة إلى تقليب وجه الأرض وفتح الشقوق وتمهيد كامل حدودها قبل مجيء السيل وهم قعود دون عمل، فكلّما سمعتهم يُنشدون:

(وسِّد وسَادَكْ . .

قبل ما يجِي السيل . . وعَادَكْ)

كانت تبكي وضع ممتلكاتها من حقول الذرة على الوادي، وأخرى للدخن في المساحات الواسعة من الخبوت الواقعة بين الوادي وجبل «عَكْوَةْ اليمانيّة»، وكان لذلك المطر أن يُخفّف عن قلبها شيئًا من حرقته، إلاّ أنّ الأمّ أمرتها بألاّ تُقدم على زراعة أيّ حقل، فامتثلت لأمرها برضا غير مستقرّ، وبقيت تسرح نهارًا مشرفة على عمليّات ردم الفتحات بين قطع الأراضي، وكذلك حرث الأرض بالشقوق وتحسين مجاري السيول إليها، استعدادًا لبشرى «غُبْرِي اللّيل»، المطر الأكبر، ودون أن تبذر بذرة واحدة.

(١٧)

في مساء أحد الأيّام الأخيرة من حياة الشيخ «عيسى الخير» أُثيرت في مجلس الأمّ قضيّة جدّ حسّاسة، كما بدا في أوّل الأمر، عندما قَدِم إليها أُناس القرية؛ لتنظر في موقفهم من صلاة العِشَاء التي لم تعد تُقام على النحو الذي كانت عليه، حتّى في عهد سبق إمامة «محمد المقروع»؛ وأثناء عرض مشكلتهم لم يذكروا أسبابًا واضحة للتخلّف عن ذلك الفرض في المسجد، كما أنّ عذر عدم وجود إمام لم يكن شفيعًا ليتحجّجوا به؛ كون أغلبهم صار متفقّهًا في الدّين، إضافة إلى وجود أشخاص منهم كانوا في صغرهم يحفظون قصار السور على يد الأمّ، والآن يحفظونها على يد «ولد الهَيْجَةْ»، كما أنّهم لم يعرضوا شيئًا متعلّقًا بتوقّف صلاة الفجر تمامًا، وذلك لانشغالهم جميعًا في حماية بيوتهم من ذلك الزائر الغريب.

كانت «شَرِيفَةْ» تُصغي إليهم، وتُراقب انهماك أمّها «هَدِيّةْ» في معالجة سدّة الباب؛ لتُقصي أصواتهم عن خدر الشيخ أملاً في ألاّ يقضي من جهده فيما لا ينفع، فهي تُفضّل إدارة الأمّ لكافّة الشؤون، سواء في ظلّ عجز الشيخ أو في أيّ وقت آخر، و«شَرِيفَةْ» لا تقرّ بذلك، من طرفها هي أيضًا، إلاّ لإيمانها بقدرة الأمّ على كلّ شائكة حالّة، رغم أنّ وادي «اَلحُسَيْنِي»، بما فيه من مستجدات أحاطت به لم يعد على سالف سادته ـ كما تلمس ـ لكن في الوقت ذاته لا يُمكن

التسليم بهذا الحال، ولا التسليم بأنّ الأمّ والشيخ وخاصّتهما سيرفعون أيديهم عن إدارة واديهم، أو أنّهم قد يتنازلون عن بعضها للغير، وخاصّة للإمارة؛ لذلك يجد بعض الناس أنفسهم في أحلك الظروف يقفون بباب الشيخ، ويعودون كسابق عهدهم إلى مجلس الأمّ، ومثال ذلك عندما شكوا إليها حال الأرض فنادت بـ«غُبْرِي الليل» أن يسوق إليهم الغبار من منابتها، وهم الآن يعودونها في شأن صلاة العِشَاء، مدّعين أنّهم في أشغال لا تتوقّف، ويخافون أن يحلّ بهم الله ساخطًا فيُحبط أعمالهم، كما حذّرهم من ذلك «محمد المقروع».

لم تكن تُحاور أيّ شخص فيهم، وكانوا يظنّون في كبرها عذرًا؛ لأنّها لا تردّ على أيّ منهم، وأنّها لم تعد «صَادِقِيّةْ» التي حكمت بلادًا كثيرة، وهي الآن أقلّ قوّة ممّا كانت تحياها في شباب ابنها الشيخ، وكانت «شَرِيفَةْ» ترمق عنت الأمّ في الاقتناع بما يتباكى عليه الحضور أمام الأمّ، وتزدريهم حيث لا يُكملون كلمة أو منعطفًا في الحديث إلاّ ويُشرّكون نظراتهم الراغبة فيها، فيقطع الخادم «بِخيت بَخَيّهْ» تلك الشرَاك بمداخلات تُعيدهم إلى صواب ما هم فيه.

لم يغب عن الأمّ تخاذل هذا الجيل، بعد أن كان عِرْقهم الأوّل في العالمين ذا سؤدد جبّار، وما كان في الوسع حتّى مقاربتهم بجيل الأفذاذ القاضين، وهذا ما يدفعها لتسفيه أفعالهم وعدم الوقوف معهم عند كثير من المحن الناتجة عن قصورهم ابتداءً في تجاوزها إلى شرف أعلى كان أجدادهم يرومونه على الدوام، ولا يقبلون بما هو دونه مطلقًا، وهم اليوم أقرب إلى منزلة خسيسة.

لقد استمعت الأمّ إلى أقاويلهم، وما وجدت فيها بيانًا واضحًا يُمكن لها أن تُنادمهم فيه بالتفكير والبحث عن مخرج يسوغ مبتغاهم، وكانت تشكّ في أنّ ما يُقلقهم هو شأن أبلغ من كذبة إهمال صلاة العِشَاء، فهم لا يُقبلون إليها عادة إلاّ لمغرم كبير، لكنّهم هذه المرّة لا يكشفون لها عن شيء، وقد استقرّ لدى زوج الشيخ و«شَرِيفَةْ» يقين

بأنّهم ليسوا ببالغي المكاشفة التي تُوضح كلّ شيء، فالدافع لحضورهم أخفى، وليسوا أهلاً لشجاعة تخوّل فيهم الصراحة للحديث بدلاً من الخوف والعار الذي يتلبّسهم كلّما أقدم واحد فيهم لقول الحقيقة، كما أنّه لم يسبق لشخص واحد أن كشف عن ذلك الأمر لقرين أو أيّ شخص آخر في القرية، فإذا هم جميعًا يسرّون في أنفسهم رزءًا خطيرًا، وتُنكر أقوالهم ما تفضحه وجوههم، فيتقلّبون في ملامح بعضهم بعضًا ولا يقدحون خفاياهم، فقضوا شهورًا طويلة يتقاسمون عمههم ذاك في صمت بالغ!

ذلك المساء انسلّوا واحدًا تلو الآخر من المجلس، بعد أن أقلعوا عن شدّ حبال التهم فيما بينهم، ولم يعل فيهم أحد منصفًا على أحد، ليس لأنّ لا دليل ناصر لأحدهم، بل لأنّهم بلا دعوى حقيقيّة، بعد أن تلاشت فرصتهم الحقيقيّة في إيضاح مرادهم المشترك. وما صعّب الأمر أنّهم لم يقفوا يومًا صفًّا منيعًا في وجه تلك النائبة الخفيّة؛ لذلك خرجوا من عند الأمّ وكلّ شخص منهم مدجّج صدره بقرار ألاّ يعود إليها في أيّ شأن مهما كانت الأسباب، وأنّ عليه الإسراع في معالجة أمن بيته، راغبًا عن عون السيّدة القدّيسة؛ بل وتحديدًا عن ظلّ ذلك البيت أبدًا.

لم يكن خافيًا عن الأمّ أنّ كلّ رجل منهم كان يخشى أن يُطلعها على الفضيحة؛ حتّى وإن تحقّقت في أحدهم الشجاعة، فإنّ جسارته على الكشف لن تُحرّض ألسن الآخرين على قول أيّ شيء، ففي المحصّلة سيظلّ حتّى أشدّهم عزيمة جبانًا، وسيشقّ عليه الاعتراف بأنّ غريبًا يزحف إلى مواطن نومه مع أهله، ويتمكّن من عقر داره، دون أن يقبض عليه؛ حتّى أذهب عنه النوم، وصار طريد أرق ملازم، وفريسة شكوكه في كلّ امرأة تحت ولايته، ممّا اضطرّه أخيرًا إلى العمل بوصايا «محمّد المقروع» حول ضرورة مراقبة النساء بعدد من الوسائل، كفرض الحجاب الكامل عليهنّ، وحصر أعمالهنّ في البيت وإيراد الماء من الآبار فقط.

كان «أبو حَشْفَةْ» يحضر ذلك المجلس ملتزمًا الصمت، مع مشاغبة الخادم «بِخيت بَخَيّةْ» بين لحظة وأخرى للتأكّد من صورة الكيّ القديم على ردفيه، ويتندر عليه بأُهزوجة قالتها «زهرة» تخليدًا في ذاكرتهم لحادثة كيّ الأمّ لمؤخّرته، عارضة توقّعها المتهكّم بأنّ إحدى ردفيه طابت من الجرح والأخرى باقية نيئة لم تطب بعد، فدندن بها «حَمُود» مثيرًا ضحك الحاضرين عليه: (بِخيت بَخَيّةْ.. على اَسْتُه كَيّةْ.. وَحدَةْ خَمِيدَةْ.. ووَحْدَةْ نَيّةْ)؛ وهكذا كلّما سنحت له الفرصة، وبعيدًا عن أعين الموجودين، يُوكز مؤخّرته حين يعبر أمامه، فيقفز الخادم عاليًا ومزمجرًا: (وااااه يا سِيد حَمُود...)، فلا يُكمل شكواه العرضيّة خجلاً، حتّى ينقلب «أبو حَشْفَةْ» إلى الجارية «زَهْرَةْ» بتلميحاته إليها إذا ما كانت تشتهي رجلاً من الحاضرين، حيث يُحرّك حاجبيه ويُومئ برأسه مشيرًا لها أن تُبدي اختيارها لأحدهم، ليُبارك عقد قرانها به؛ وكانت تردعه بغض جفنها في اتجاه الأمّ، حتّى تُوقفه عن معاودة إحراجها أمام «شَرِيفَةْ» التي لا تغيب عنها صغائره تلك.

بُعيد ذهاب رجال القرية، بدأ «أبو حَشْفَةْ» في ملاحقة الخادم العجوز «حِنِين جغام» ليتأكّد من أنّ له عضوًا ذكوريًّا وليس أنثويًّا؛ بحجّة التحقّق من رجولته، حيث غادره العمر دون أن يمسّ أنثى واحدة، كما يقول للأمّ والجارية مستفهمًا منهما عن وضعه؛ وقد كان «أبو حَشْفَةْ» يُعلي في صوته بما يُشقي روح «حِنِين» إذ كان يذكره بما تناقله الناس عنه من أنّ أحدهم رآه ذات مرّة وهو يحبو خلف كلبة وقد قبض رحمها على ذَكَره ممّا اضطره في نهاية الأمر إلى قطع عضوه التناسلي والاختفاء مدّة عام. وكلّما صاح الخادم أن يصمت زاد «أبو حَشْفَةْ» في فجور كلامه. وكانت الأمّ تُعنّفه ليتوقّف عن إيذاء خادمها، مع أنّها تبتسم في داخلها، فهي تعرف أنّ تلك القصّة أُلصقت بخادمهم «حِنِين» للتندر عليه فقط، أمّا سرّه فيكمن في كونه أنّه شخص لا يتصوّر أن يُضاجع امرأة في الليل وصباحًا تُقارعه الحديث والأكل والشرب

وتُقاسمه المناكفات، إذ يرى أنّه من غير المنطقي أن تكون للمرأة كرامة بعد مضاجعتها، ثمّ تخرج على الناس في الصباح التالي وتُشاطرهم الحياة، وكأن لم يحدث لها شيء في فراشها الليلة الفائتة، كما كان يأكل صدره الشكّ في جنس النساء، فأقسم ألاّ يتزوّج طوال حياته كيلا يقتل زوجته.

كانت «شَرِيفَةْ» من مجلسها تتلمّس رضا الأمّ من تلك المداعبات، وتأكّد شعورها عندما سألت الأمّ «أبو حَشْفَةْ» مبتدئة باسمه للسخرية: (يا اَبو حَشْفَةْ وذا الحين كيف نتأكّد من طول زبك بعدما مزقته في ختانك زمان؟). ارتجّت دارهم بالضحك؛ حتّى والده ابتسم في فراشه، عندما ذكّرته بحشفته المشرومة، وتوقّف بذلك عن مطاردة الخادم، ثمّ التفت إلى الأمّ يسألها: (بيني لي أيّ زبّ ترغب النساء.. كبير واِلاّ قصير؟)، فأُسقط في يديها، ولم تُعلّق بكلمة واحدة؛ لتتندّر عليه الجارية «زَهْرَةْ» منقذة الموقف، عندما وجّهت إليه قولها: (يمكن اللّي شَا تتزوجها تشكيك عند القاضي لأنّ حقّك ما يوفي لها كلّ شيء...)، فانطلق الضحك من جديد، و«شَرِيفَةْ» تتشاغل بتغذية صغار الماشية التي تحتفظ بها في الدار ولا تُسرّحها إلى المراعي صباحًا مع القطعان، فاقترب «أبو حَشْفَةْ» من الجارية وهي تتراجع إلى جوار الأمّ خوفًا منه، فهو لن يتوانى عن الإمساك بإزارها وشدّه للأسفل، فاضحًا بذلك عورتها، كما يُباغتها دومًا، ناقلاً هذه الفعلة من «بن شامي»، فردّ لها دينها يقول: (ما حَرّمت الزواج بعد مهدي اِلاّ لأنّك ما وجدت مثل فعله في ليله...)، وهذا ما يُشاع عن «زَهْرَةْ» إذ يُقال إنّ زوجها «مهدي» لحظة يُسكن ماءه في أحشائها يفقد صوابه، فيهرس جذعها تحته ولا يُخلي جسدها إلى الحياة التي تكاد تفقدها إلاّ بعد أن يضربه أسياده ضربًا قاسيًا فيقوم من عليها وتعود بأنفاسها من قبضة الموت، وهي من بعده لا تعرف لذّة للجنس كما يُقال عنها، والحقيقة أنّها حرّمت على نفسها مقاسمة الفراش مع رجل بعد أن تكبّدت الويل

من آلام وضعها لمولودة ماتت لحظتها في الوقت الذي يموت فيه زوجها «مهدي» في حرب طاحنة خاضها «الحَسَانِيةْ» مع «اَلعَبَاسِيَةْ».

وحين صارت «زَهْرَةْ» إلى جوار سيّدتها أشار إليها «أبو حَشْفَةْ» بكفّه مطمئنًا، فهو لن يُؤذيها كما أسمع الأمّ، ثمّ همس بينهما قائلاً: (أنا اَسأل بصدق عن رغبة الوحدة كيف.. هيّا بيّني لي...)، فقلّ عدد الضاحكين، وطلبت منه «زَهْرَةْ» الجلوس بالقرب من جدّته، وناولته فنجانًا طافحًا بالقهوة وسألته أن يتمضمض به، لكنّه لم يستطع لأنّ كميّة القهوة قد ملأت فمه، وبإشارة منها أفرغه، ثمّ سكبت مجدّدًا قطرات معدودة من القهوة ودلقها في فمه وحرّكها فتلاشت بداخله لقلّتها، ثمّ ناولته الفنجان نصفًا، عندها استطاع التمضمض بشكل جيّد، لتُعلّق «زَهْرَةْ» قائلة بحماسة لفطنتها: (هذي هي الواحدة فينا يا النساءْ.. ما ترغب رجل معه واحد كبير لأنّه يملأَ جوفها ويحشرها عن رغبتها ولا تحتاج الصغير لأنّه ما يحرّك فيها شِي.. تحتاج دايمًا رجل معه زبّ متوسط تحسّ به يرتج في حِرْهَا...)، طار عقله من جنون الفكرة التي قدّمتها له؛ عندما وضّحت ما يرغبه فرج المرأة حقيقة.

مضى لا يُلقي بالاً إلى وشوشة الجارية في أذن الأمّ، وتركها تُخطرها بامتلاء شجرة السدر التي اشرأبّت تُعانق سارية عُشّة فتاهم الفحل، وزادت لها في وصف فتنتها التي لم يسبق لها أن رأت مثيلاتها على ما هي عليه من حياة، وأرجأت ذلك الامتلاء في ساقها إلى كونها حبلى بصلبها المتفتّق بحمرته القانية، وكأنّها امرأة أفّت من حيضها وصار نياط شبقها يُجاذب الشغاف من الأعماق، ووفق قناعتهما فإنّ هذه السدرة لن يتقصّف لحاؤها مثل جسد امرأة جائع إلى يد تُلاطفه، فقوائمها تفرّعت من الأرض وعلى سرّ لا يعرفه سواهما.

غادرهما وهو يعي أيّ حجم تفضّله المرأة لعضو مضاجعها، وقد اطمأنّ إلى أنّه سيُجيد معاركه الليليّة في القادم من العمر، بعد أن ربا إلى قرابة الثلاثين عامًا تقريبًا، وهو حتّى الآن يرفض فكرة الزواج التي

يراها ملزمة لشخصه الحرّ، ويحلو له مطاردة النساء اللاتي يأتين في قوافل متنقّلة، وينزلن في أطراف القرية، فتحلّ فرصته في التفتيش فيهنّ عن تلك التي يُمكن مكابدة جسدها بشيئه العجيب، وخاصّة تلك التي تُفتّش عن إصابة جيّدة في فراشها، فتُرحّب بمضاجعة الأرفع نسلاً وعرقًا، وكان هذا الشرط يتوافر فيه دون جدال، إذا ما عرفت تلك المرأة أنّه سليل شيوخ «عُصيْرَةْ»، إلاّ أنّه لم يكشف لأحد عن ذلك خوفًا من أن تردعه الأمّ؛ وكانت «شَرِيفَةْ» قد أمرت كلّ من يعبر وادي «اَلحُسَيْنِي» منجعًا، بعدم إقامة النساء في قرية «عُصيْرَةْ» بقصد الإصابة الجنسيّة من رجل كفء، وبذلك خسر منذ زمن موارد شبعه الجنسي، وخسرت هي أيادي النساء العاملة في أعمال الفلاحة والحصاد. بعد ذلك اضطر «أبو حَشْفَةْ» إلى بيع ما لديه من أراض لمقايضات رخيصة لقاء تزجية وقت قليل لوطر جارف، ويكون ذلك في أمكنة بعيدة عن أنظار الأمّ و«شَرِيفَةْ».

اَلشّارقْ

(١)

في مساء لن ينسوه أبدًا، كما لم ينسوا منعطفيْ «اَلْهَرْبَةْ»، ورحيل «بِشَيبشْ»، خرجت الأمّ من مخدع ابنها، وطلبت رفقة «شَرِيفَةْ»؛ لتُخبرها بالاتجاه الصحيح المؤدّي إلى تلّ «شَارِقْ»، وفور صعودها للتل، صوّبت عصاها نحو جبال «ساق الغراب»، وقد سارع النّاس يحفّون مرتفعها، يترقّبون شأنها الغريب والماضية فيه دون تراجع.

منذ الصباح كانت الأمّ تُكابد رؤيا جهنّميّة تُحدّث بها نفسها منذ ليال طويلة؛ إذ لمست أنّ اليوم الموعود حلّ، وقد أقضّت قيلولة الجميع وهي تتذكّر امرأة تحكي قصّتها كلّما أرادت أن تُعيدهم إلى صفّهم الواحد الذاهبة ريحه. وكانت تلك المرأة في أحد مواسم الحصاد، ولحاجتها القاسمة، تتقصّى سقط السنابل من العاملات، تدسّها في حجرها، فطردوها من الحقول، لتميل بخصاصتها المؤلمة إلى مرتفع رملي يُشرف على المزارع وملاّكها يحفّونها ببهجة كبيرة، ونادت في السماء أن تُزمجر بعفاريت تلك الليلة، فلا تُبقي ممّا جاور مقامها ذاك شيئًا، ولا تذر في تلك الحقول سنبلة واحدة، وحين استوى أمام العرش سؤالها الباكي:

(يالله بِذي الليلة وعَبْلَتْهَا
تُشلّ الجَارَةْ وعَذْقَتْهَا)

عندها هدرت السماء بجبروتها لتكسح اليابس والأخضر على

السواء، وباتوا كأن لم يزرعوا بذرة واحدة وكأنّه لم يبزغ من باطن الأرض طلع تابعوا نضده حتّى حلّ حصاده؛ وصارت أهزوجة تلك المرأة اللعنة التي لا ينسونها ما بقي في الحياة رطيب حلق. وهذا المساء دنت منها تلك الرؤيا كثيرًا، عندما لمستها في حشرجة صدر ابنها الشيخ، حين شعرت بالموت يُجاذب آخر قواه. فقد شارف على التسليم، والذهاب الأبدي إلى براثن الغياب، بعد شهور من العناء مع المرض الذي ثابرت الأمّ في دفعه طويلاً، فكلّما غاب الشيخ عن وعيه سارعت بالانفراد بجسده، وشرعت في تأليب أعضائه جميعًا ضدّ أسباب هلاكه، حتّى يعود إلى سيرته المُرضية، فيبدأ بالسؤال عن «حَمُود»، وكأنّه يخشى أهواءً ستذهب بابنه الوحيد إلى بُغيات خطيرة، ثمّ لا ينسى التأكيد على خادمه الخاص «حِنِين» بما أوصاه به من قبل، ناسيًا أنّ أمر هذه الوصيّة قد انتهى إلى تدبير الأمّ؛ كما يسأل عن فتاتهم «شَرِيفَةْ» ويُقرّبها إلى صدره المتحشرج، فيُقبّل كفّها ويُذكّرها: (أنتِ آخر اَصحابي...)؛ كونه يجد في روحها عزيمة رجاله القاضين، ولأنّها، أوّلاً، بنت رجله الهُمَام الراحل، فتنحدر من عينه دمعة لا يحبسها عن خده أحد غير الأمّ، تمسحها وتعيده إلى صراط الوقار.

جلست الأمّ مستقبلة جبال «ساق الغراب»، وراحت تُصعّد بصوتها القديم في الفضاء مواويل متتالية، وبلحن ملؤه التودّد والرجاء، وتُشير بعصاها إلى رؤوس تلك الجبال الشامخات، ثمّ تُركّز على الطود الأكبر يمينًا، جبل «اَمدُقمْ»، فتدعوه أن ينهض من سبات الحجر، فالليلة ستدكّه السماء، وستُغنّي في عرضه الرّيح، وستتفتّق أركانه عن دروب تصلهم، يسير فيها ألف مخلوق من ذلك الجبل، يقشعون الليل عن وادي «اَلحُسَيْنِي»، فلا يكون لـ «الحَسَانِيةْ» بنيان إلاّ ويُزعزع الألف مخلوق أساسه، فيأتون على الأخضر ويجزّون جذوره، وإن أتوا على اليابس دكّوه حصيبًا، وما نقموا منهم إلاّ أن حلّ بوادي «اَلحُسَيْنِي» مصابٌ لا يرجون من بعده أملاً، ولا يُكتب لهم في المقبل من الزمن

خير، ويذهب دمهم فرقًا أشتاتًا إلى الأبد. كان قوم جبل «امْدُقْم» والذين عقدوا عهدًا على أنفسهم منذ ما يُقارب مائة عام، حين بايعوا الشريف «مِشَاري» واليًا عليهم، حاكمًا بينهم، مقيمًا فيهم شهرًا من كلّ عام، كانوا قد عقدوا مع الأمّ عهدًا أن ينزلوا عند أمرها، فلا يعصونها ما بقيت، ولا يعتدون أو يردّون اعتداءً إلاّ بأمرها، على ألاّ يمسّ جبلهم أحد سواهم، وأن يُنصّب ابنها «عيسى الخير» خليفة لوالده الشريف في قيادة الشمل. ووفق رؤيا الأمّ فهم من غد سيسيحون في القفار والوهاد، ويُثخنون في حياض من عاثوا ومن أفسقوا، فلم يعد هناك عهد يُوثقهم بهذه الأرض وبمن فيها، ولم يعد هناك مِن الرجال مَنْ يستحق بيعتهم.

كانت تزيد من عذوبة نشيدها السائل تلك الجبال أن تفيق من سكونها المطبق، فنهاية «عُصيْرَةْ» بأمسها المجيد ستحلّ هذه الليلة، وعليها أن تميد قبل شروق الشمس، مطلقة جحيم صخورها وبراكين أعماقها، فقوم «اَمْدُقْم» الخارقون قادمون لا محالة.

توافد النّاس من المزارع التي أثمرت بمطر صيفي مؤخّرًا، وظلّوا يستمعون إلى ألحانها المحمّلة بنبرات حزينة أرهبتهم بها، وخاصّة عندما خاطبت ذلك الجبل الذي يؤوي خلقًا خارقًا، لكنّهم لا يهابونهم كونهم مبايعين وموالين لواديهم؛ إلاّ أنّها الليلة تحثّ الجبال أن تُوقظ سمتها الصلب لأولئك، فهم سيقتحمون واديهم لأمر مفزع يهزّ كيانهم جميعًا، كما بدّد غناؤها طمأنينتهم على ثمارهم، فهي ترى أنّ السماء ستساوي الجبل بِحِبْطِه وأدنى، هذا حين يُنزع شجره وزرعه، وحين تُعري البسيطة التي تليه من كلّ قائم يهيج فيها حتّى البحر؛ لذلك بدأ أكبرهم يُلحّ قبالتها في سؤاله، وبضراعة لا تنقطع، ألاّ تُجيّش السماء ضدّهم، وألاّ تُثير السحب على أرضهم، فهم أهل حاجة لا يعرفها سواهم، وكانوا في ذلك يكذبون؛ لأنّهم أقدر النّاس منعة وأكثرهم رزقًا، فلا يلحقهم ضرٌّ ولا فاقة، لكن جشعهم، الذي صار سمة فيهم،

يحملهم على مناشدتها بألاّ تُؤلّب السماء ضدّ زرعهم ومالهم.

حين بقيت تُنادي السماء أن تبعث برسل ما نزلوا من قبل، رسل لا تردعهم عن مهمّتهم رأفة أو شفقة، تُمزّق الشعاب والأودية بسيوفها، وتقطع الجبال ببروقها، حينئذ يئسوا من توقّفها، وبعد أن ظنّوا كلّ الظنّ أنّ السماء ستستجيب لها، انصرفوا مسرعين إلى مزارعهم، يُيسّرون المجاري أمام غضب المياه الكاسحة، فيُبعدونها عن الثمار، ويُوجّهونها مسالك محدّدة؛ لتسري فيها بعيدًا عن مزارعهم.

بقي رجل واحد يصرخ بأن ينظر مقامها المهيب في رجائه، ويتوسّل بأن تكفّ عن تحريض السماء على بعث رسلها الناقمة، وكانت «شَرِيفَةْ» تنظر إليه وتُخبر الأمّ بأنّه والد عشيقة «سُبَيعْ»، يرجوها التوقّف، فكلّما فاض وادي «اَلحُسَيْنِي» بسيل جرّار، وجدوا أحد أبنائه السبعة الذين قتلوا «سُبَيعْ» مدلّى من ضفة الوادي الجنوبيّة، بعد قتله، وقد عُلّقت في عنقه خصيتاه وشيئه، تمامًا كما حصل لـ «سُبَيعْ»!، وإن شُرّعت أبواب السماء الليلة عن الماء، فإنّه سيبكي ابنًا خامسًا لا محالة بعد أن بكى من قبل أربعة، فراح يُغرق التراب بدمعه الساخن، وابنته من خلفه تزيد من النحيب، إلاّ أنّهما لم يجدا من الأمّ أيّ ملمح عطوف يشملهم برحمة، فانكفآ يغرسان جسدهما بالأرض، ويُحصّنان قلبيهما بأمل هزيل، والأمّ تُكمل آخر نياط ابتهالاتها الممعنة في السؤال نحو السماء البعيدة.

بحلول الشفق كان لها ما تُريد؛ إذ حلّ يوم «شَارِقْ» كما تنبّأت به منذ زمن، فقد مزجت السماء سحبها كأردية بيضاء تُخلط بأخرى رماديّة، وتُوّجت بها رؤوس الجبال وبرقها يُشرق كوضح النهار، يُنير السفوح والوهاد، ثمّ في دقائق معدودة بثّت الغيوم الحبلى مدرارها، وبزمجرة هائلة غسل قامات «ساق الغراب» من كلّ شائبة تعتري تجاعيدها، وانحدر إلى البسيطة قبالة الجبال، يخلع عن دربه كلّ ناتئ من طين ونبات، حتّى دكّ المعالم وغيّر طبيعتها المعروفة، ثمّ واصل

ذلك النسيج السماوي تمدّده، إلى أن خيّم على وادي «اَلحُسَيْنِي»، فانثال عليهم بكثافة عجيبة، وهرع العبيد إلى الأعلى ليحملوا الأمّ، ثمّ تقدّمتهم «شَرِيفَةْ» وقادتهم عائدين إلى بيوتهم.

في تلك الليلة، وبُعيد الغروب مباشرة، دعت الأمّ «حَمُود» ـ «أبو حَشْفَةْ» ـ إلى فراش والده، وبدأت تحدّثه بنبرة بائسة: (انقضى كلّ هذا التاريخ وما كُتب بين اَهل عُصيْرَةْ واحد كان في مثل لهوك ولعبك يا حَمُود.. وصارت شِعْرَتْك شيب ورافض تكبر وتعقل.. هذا اَبوك ما عاد يقدر يتكلّم.. لكن اسمع منّي وصيّته واحفظها.. يقول لك اِذا صار النّاس اللّي حولك يذبحون ذبائحهم ويمدّون لك الشحم من دون اللحم فاعلم اَنّ ما عاد لك بينهم محلّ، واَنّك صرت أذلّهم واَرخصهم، وعندها ما أمامك اِلاّ تطلع جبل عَكْوَةْ وهناك عريش نازل منه حبل علّق نفسك فيه حتّى تتخلّص من هذا العار، أو تنتبه لنفسك وتصير رجل وتحافظ على اَرضك ومالك...).

وهي تتحدّث إليه، معرّضة بكبر عمره دون عقل ونضج، كان يخفض رأسه خجلاً، فلم يسبق أن حدّثته بهذا الحزم، بالرغم من أنّها كثيرًا ما تقدح في سلوكه غير السويّ ورعونة أفعاله، وقد خذلها أكثر من مرّة في أكثر من مناسبة، فحين اعتمدت عليه في توزيع أجور العاملين في أحد المواسم، أبخسهم حقوقهم، وقلّل من وجبات العاملات لرفضهنّ مساومته لهنّ على مطارحتهنّ، يومها ثارت في وجهه، وأقسمت ألاّ تأكل من حصاد عامهم ذاك، بعد أن ضاعفت من حصص العاملين والعاملات، وكلّفت الفتاة «شَرِيفَةْ» بهذه المهمّة، وأبقته مشرفًا على شؤون الرعي، إلاّ أنّه خذلهم في ذلك أيضًا، عندما أمر رعاة البقر بأن يرعوا في ملك الغير، وفي ذلك المساء أعفته أيضًا من هذه المهمّة، وعيّنت عدد الأبقار التي أكلت في ملك الآخرين، وحبستها في مكان معلوم لمدّة أسبوع، وكلّما حُلبت أراقوا كامل الحليب في الأرض حتّى لا يذوقه أحد، كما أمر الشيخ، خوفًا من

غضب الله، فما أقدم عليه ابنه لم يكن مشروعًا في عرفهم، بعد أن دفعوا أضعافًا مضاعفة من المال لأصحاب المراعي المتضرّرة.

على إثر ذلك بقي «أبو حَشْفَةْ» بعيدًا عن موارد ومصادر الوادي، لا يمسّها ولا يقترب من العاملين في الحصاد والرعي والسقاية، ولا يعترض على أيّ قرار تتخذه «شَرِيفَةْ» ضمن صلاحياتها الواسعة، التي قد تصل إلى حدّ طرده في أيّ وقت، ومن أيّ مكان، متى رأت أنّ في وجوده تأثيرًا بالغًا على سير الأعمال. وفي الآونة الأخيرة لم يعد يملك شيئًا، فقد باع كلّ ما وقعت يده عليه، ليُحقّق مباهجه الخاصّة من ملابس وبنادق وملاحقة النساء العابرات ببلاده.

كانت الأمّ على علم بكلّ صفقاته الخاسرة، فكان ينقل للغير ملكيّة الأراضي لقاء مبالغ زهيدة، فيما الأمّ تُعيد ما يبيعه بضعف ما دُفع له، وتقوم بنقل كافة الممتلكات باسم «شَرِيفَةْ»، وصار محتاجًا لسؤال «شَرِيفَةْ» على الدوام.

عادت الأمّ تُخبره بأنّ هذه الليلة هي آخر ليلة يرى فيها والده الذي سوف يُغادرهم إلى الأبد، وعليه أن يُظهر له رجولته القادرة على مجابهة الغد بصروفه المختلفة، وعندما أسمعته ذلك شعر بحزن بليغ لم يتكبّد مثله من قبل، فانهار في حضنها، وشدّ من إزار والده الممدّد على فراشه، ثمّ حشر أنفه فيه، كأنّما يعبّ صدره من رائحته، فلا يفقد عبقه. عندئذ وضعت الأمّ كفّها على رأسه وذكرته بيوم ختانه، وكيف اعتلى بشرف عظيم لأهل «عُصيْرَةْ» جميعًا، وعليه أن يظلّ بتلك السيرة الحميدة، فلا يُظهر أمام النّاس ضعفًا أو هوانًا لا يليق بأهله.

غادرهما بروح مثقلة، وولج إلى عُشّته بعد أن نظر إلى السدرة، التي زرعتها الجارية «زَهْرَةْ» بجوار عُشّته، في مساء اليوم الذي جرح فيه حشفته، ورأى جذع السدرة ممتلئًا، كامرأة على وشك الوضع، وقد عزّز قوّتها أمام العاصف المطير.

سيستقلّون من هذه الليلة قطارًا لا يتوقّف عند محطّات الأمان،

سيحملهم إلى مزالق الحياة المتعدّدة، سيقتحم بهم جروفًا خطيرة، لا مثيل لها من قبل ولا من بعد، بل إنّهم لن يخرجوا من الملمّات القادمة أبدًا!

هكذا فكّرت الأمّ في غدهم، وما سيشيك على رجال «عُصيْرَةْ»، في ضعفهم، بعد أن استطاع الموت أخيرًا الوصول إلى ابنها ـ شيخ الشمل ـ وحاكم أمرهم منذ أن كان يركض في عينيها، بأربعة عشر سنة من العمر تقريبًا، عندما قُتل والده الشريف «مِشَاري»، وآل إليه حكم بلاده وأهلها، برعايتها وبصيرة حكمتها المتناهية.

بتقدّم الليل، جمعت الأمّ خاصتها، و«شَرِيفَةْ» و«هَدِيّةْ»، ثمّ أدخلتهم الجارية «زَهْرَةْ» واحدًا تلو الآخر، وسألتهم الأمّ توديع شيخهم، فهو يتأهّب للخلاص النهائي. وعندما جاء دور الزوجة، اقتربت منه، فاغتصب من حنجرته كلمة يكتنفها حزن يشرخ الجبال، سيحمله معه إلى مثواه الأخير، ذلك الحزن لا يتعلّق بما سيخلّفه من فراغ كبير في واديه، ولا شأن له بمجد «عُصيْرَةْ» الذي لا يعرف إلى أيّ مجهول سيذهب؛ بل سببه مرابطة زوجه معه، منذ ما يزيد على عقد ونصف العقد من الزمان، دون أن تتذمّر من حاجتها الأساسيّة، فهو لم يتمكّن طوال كلّ الأعوام الماضية من مطارحتها، وقطف ثمرتها المكنونة، فعندما اقتربت منه فرّت عبرتان من عينيه، وجذب كفّها إليه، وقال برجاء يُضني الأمّ: (سامحيني يا هَدِيّةْ...)، ومن فورها غرست أصابع كفّيها في صدره، تهزّه وصوتها تسحقه نبرة عنيفة للبكاء: (أنت ما تموت يا عيسى...)، وشرعت في «تَرْحِيلَة» تتغنّاه مودّعة، إلى أن تقدّمت الجارية وسحبت يديها من صدره، معلنة رغبة الأمّ في الانفراد به، فخلا لها المكان به، وقد أغلقت الباب المفضي إلى بقيّة الدار من الجهة الغربيّة، وتركت الباب الجنوبي مفتوحًا، ثمّ أخبرته أنّ بإمكانه الآن أن يطلب الإذن بالرحيل، فالزمن لم يعد له، رغم تمسّكه بالبقاء وهو يعرف أنّ بريق أمسهم يخبو، إن لم يكن ذلك الأمس صار إلى عدم.

كان يُجادلها بقدرته على فعل شيء، إلاّ أنّها تُثنيه عن التجربة، فكلّ رجاله قضوا وانتهى ذكرهم بين النّاس، ولم يبق منهم سوى الذاكرة التي لا تفي بصناعة رجال آخرين، وقيام ولاية شبيهة بما كانوا عليه من عزّة ومنعة. كان ينظر إليها كمن ينظر إلى فوهة بندقيّة هدفها يتوسّط محجريه، فلعلّ تلك البندقيّة تخذل صاحبها فيُكتب له نفس آخر، كان يذرع المسافة القصيرة بينه وبينها، كما لو أنّه يشقّ واديهم الجبّار الذي كان في تلك اللحظة يُدمدم بالمياه ويبثّها من أطرافه على السهوب.

كان قلبه يخفق بسرعة تشي بحاجته المتلهّفة لكلّ ثانية في الحياة ربما ستظلّ تتعقّبه طويلاً، وقد كانت تتلمّس من مجادلته لها، أنّه راغب في وقت يسير، وهو وقت سيكون خارج نطاق المكتوب له أصلاً، وهو بذلك يحدّ قليلاً من إلحاحها في مغادرته برفقة القادمين من جبل «اَمدُقمْ»، وفيما هي تُرهف السمع إلى الفاضل من هزيم السماء، وصياح الريح في الشجر، والسيل هدّار في الحقول، كان ينظر أيّ رهان له سيكون كاسبًا، إذا ما دخل معها في فكرة أُخرى من شأنها أن تُوقفها عمّا هي ماضية فيه.

كان يجنح إلى ملكوت روحه المتوثّبة للذهاب الأبدي، حتّى توقّف عند صاحبها القديم، السّابِقَةْ «اَبْن حُسَيْنَةْ» كما عنّ لها، والسّابِقَةْ الجديد «ولد الهَيْجَةْ»، فلحظتئذ أسرعت الأمّ تقبض على صدر ابنها بشدّة لن تُبالغ فيها، إذا ما عُرف أنّه استطاع الظفر بمقتل فيها، وأنّه لن يدع لها قائمة حال يُحسن إصابتها بدقّة، وقد كانت قبضتها الغليظة خير شاهد على مناله المنجي، والمفزع لها في الوقت ذاته.

ومن خلال ما يلوب في رأسه، سيُعرف أنّ الأمّ وبعد موت والده ـ زوجها ـ الشريف «مِشَاري»، اعتلت عرشًا رفيعًا في وادي «اَلحُسَيْنِي» قاطبة، وتمكّنت من رضا القبائل، وفي الليلة ذاتها التي قتل فيها الشريف «مِشَارِي» كان قوم جبل «اَمدُقمْ» يُسوّرون بجبروتهم حدود

الوادي، دون أن يمكّنوا أحدًا من رؤيتهم، فما يعرفه أهل «عُصيْرَةْ» هو أنّ الموالين لواديهم من ذلك الجبل يبيتون في حدودهم من كلّ جهة، ولا يخرج إليهم أيّ شخص للتحقّق من وجودهم فعلاً، وكلّ الذي يصلهم دمدمات مريعة، إذ يردعهم جُؤار متصل يُروّع أرواحهم، فباتت قرية «عُصيْرَةْ» ليلتها في جلل عظيم، تكيل من ضيمها على رجالها، وتشوي قلوب نسائها بحرقة الفقد، والأطفال يرتعدون في مضاجعهم، والدواب تجفل في مرابضها. الأمّ وحدها، من بين وشائج روحها الممزّقة، كانت تسرّب بين الرجال الباقين شيئًا من الهدوء، وتسألهم التروّي، فجسد الشريف مازال بين أيديهم مشغولاً بخيوط الدماء، والقوم الموالون يترقّبون الدخول من جديد.

لقد أتوا بالشريف محمولاً بعد العصر لتُودّعه عشائره، ثمّ يأخذونه إلى جبلهم، حيث راعوا عهدهم معه طوال حياته، إذ أفضى كبراؤهم إلى الأمّ بأنّ قبر الشريف سيكون عندهم إلى أن يُبعث، هذا ما تواصوا به شرطًا ليظلّوا على العهد من بعده؛ وتنفيذًا لبنود الاتفاق المبرم مع فقيد الجميع، والذي ينصُّ على أن ينعم الشريف بحياته في «عُصيْرَةْ»، ومثواه الأخير سيعمره أبدًا على جبلهم المهيب؛ إلاّ أنّها سألتهم التريّث في أخذ الجثّة حتّى تحيط كبار قومها علمًا بذلك.

كان ذلك المساء مخضّبًا بسحب قصيّة، عندما دخل القرية من الجهة الشرقيّة خلق لا مثيل لهم، يسيرون في طابورين متماسكي الخطوة، كأنّهم في محفل عسكري، وقد توسّطتهم مجموعة ترفع عرشًا صامتًا، كان يضمّ جثّة الشريف، فدخلوا إلى بيته دون أن يقترب من موكبهم أحد، ومن غير أن يتمكّن أحد من رؤية ملامحهم.

وكثير من رجال «عُصيْرَةْ» بقيادة «الهبّاش» و«اَبْن حُسَيْنَةْ» كانوا قد غادروا القرية قبل ذلك، مشكّلين فريقي تمشيط، منطلقين من حدودهم الشرقيّة باتجاه الشقّ الأعلى، حيث دمّروا وأحرقوا الأرض؛ إلى أن صعد لهيبهم هامات الجبال التي تؤوي قاتل كبيرهم، فما تمنطقت

الجبال بعتمة اللّيل حتّى استوت فوقها لعلعات البنادق، واشتعلت بوميض الرصاص عند الغروب.

لم تُرخِ الأمّ قبضتها عن صدر ابنها، وهو يُعيد توازنه بعد تذكّر تلك الحادثة، وهو فتى لا يُحسن التدبير بعد، إذ لم يصل عمره الربيع الخامس عشر حين قُتل والده، وتوقّف عند أُولئك القوم الخفيين، الذين لا يعرف سرّهم، ولا يتذكّرهم جيّدًا، لكنّه يترقّب دخولهم عليه في أيّ لحظة، فهو الآن ينام امتثالاً لأمر أمّه، وعلى الهيئة ذاتها التي كان عليها والده من قبل، وهم الآن عازمون على أن يأتوا لحمل جثمانه بعيدًا! توقّف هنا ولا يعرف إجابة عن سؤال دام معه ما يزيد على أربعة عقود من الزمن، وأعاده في صدره اللاهث في لحظتهما تلك: (كيف تمّ دفن الشريف بوادي اَلحُسَيْنِي رغم إصرار الموالين على دفنه فوق جبلهم؟ ولماذا أُصيبت صَادِقِيّةْ بالعمى في اليوم السادس على رحيل الشريف؟!)، توقّف عند هذا، ليُقاوم أصابعها التي تزداد انغراسًا كأنّما تجرُّ تلك الأسئلة من قراره القلق.

بما أنّه توقّف عن التذكّر، فإنّ سرد أحداث تلك الليلة القديمة وما تلاها يكتمل حين تتذكّر الأمّ كيف أنّها قضت ذلك الليل البعيد واقفة أمام زوجها المسجّى، تُفكّر في أيّ طريقة يُمكن بها ثني هؤلاء الموالين عن أخذ جثّته، وهم لا يُغادرون جروف الوادي، ويمنعون حفر أيّ قبر في أطراف القرية!

ضاقت بها السبل لغياب كبار القوم في أعالي «ساق الغراب» يُطاردون قاتل الشريف، وهي تتلوّى على المحكّ، ولا خلاص إلاّ باحتمال واحد وهو مفاوضتهم من جديد، فحزمت أمرها، وشرّعت للموالين القادمين كالريح بابَ العُشّة الجنوبي، وقد ظلّت معها خادمتها «زَهْرَةْ» إذ كانت شابّة، التي رفعتها قوّة خفيّة قيد قامة عن الأرض لصق «رُبْع» العُشّة، وتسمع من ذلك الركن المنزوي سيّدتها «صَادِقِيّةْ» تتحدّث بهدوء مع خلق لا تُبصرهم، وتُحاول أن تصرخ في ظلّ قواها المسلوبة،

لتمنع عنها فعلاً شيطانيًا كما تشعر، وبدت لها سيّدتها وكأنّها في حضرة تشريفات عالية المستوى، تمدّ يمناها مصافحة في الهواء، وتُشير يسراها إلى مصافحيها الخفيين بالجلوس، ثمّ بقدرة جبّارة غُيّبت الجارية عن الواقع، ليكون المكان مع الزمان ملكًا خالصًا للسيّدة ومبعوثي التفاوض من الموالين.

تُعيد الأمّ تفاصيل ذلك اللّقاء الفاصل، حيث وجدت نفسها فيه أمام مفترق الطرق، فعليها أن تتقدّم للعرض الوحيد الممنوح لها، من المفاوضين العُتاة، لكي تكسب جثمان زوجها مدفونًا بواديه إلى أن يُبعث، ولا خيار أمامها سوى أن تقبل بما عرضوه عليها، أو سيقطع دابر عصبة «عُصيْرَةْ» في العالمين، ولو لم يبقَ فيهم على قيد الحياة سوى شخص واحد.

تعلّلت مجدّدًا بغياب كبار قومها، وأنّ البتّ في ذلك الأمر لن تنفرد باتخاذه؛ وعليهم التريّث لتتشاور معهم في مقترح مناسب يُقرّرونه جميعًا، فمنحوها مهلة حتّى مساء اليوم التالي، وسيظلّ فيها جثمان الشريف «مِشَاري» معروشًا، بعد أن عجّلوا في تحنيطه بأوراق السدر المطحونة.

بحلول صباح تلك الليلة نادى في القرية مناد أنّ السّابِقَةْ «اَبْن حُسَيْنَةْ» وجدوه ملتصقًا بذئب أبيض كالثلج، وقد قتل كلّ واحد منهما الآخر، حيث كان «السّابِقَةْ» غارقًا في دمه ويداه تقبضان على عنق الذئب إلى درجة صعب عليهم فصلهما، فاضطروا إلى دفنهما معًا، وقد أشاعوا أنّ كبراء «عُصيْرَةْ» عندما وصلهم أنّ قوم «اَمدُقَمْ» يُحيطون بقريتهم، خلوا إلى رشد يُبرّر إيقاف القتال وعادوا، ثمّ فكّروا جميعًا بالتريّث في دخول القرية المحصّنة، ما عدا «اَبْن حُسَيْنَةْ» الذي أقسم بأنّه عند شروق الشمس سيدخل «عُصيْرَةْ».

في المساء انفردت «صَادِقِيَّةْ» مرّة أُخرى بالموالين، وركموا قلبها بعذاب أمرّ، حين أخبروها أنّهم هم من قضوا على السّابِقَةْ «اَبْن حُسَيْنَةْ»

عندما عزم على اختراقهم ودخول القرية، فأرسلوا له أحدهم على هيئة ذئب، وبيّنوا لها جسارته الخارقة، فرسولهم القاتل لم ينتصر عليه حيث قاومه وقضيا النحب معًا، وقد ثبت لها قدره العظيم، فهو لم يكن ليُهزم بسهولة إلاّ أنّ الموالين ضحّوا بأحدهم عندما أتاه على هيئة ذئب، وهو الحيوان الذي لا يخرجون على هيئته أبدًا.

ما زالت الأمّ تجول في سياقها القديم، وتشي لروحها بأقوى قرار اتخذته في حياتها، فحينما أعلنوا أنّها ستكون وحيدة في اتخاذ ذلك القرار، فهم لن يقبلوا بالتفاوض مع غيرها، ولن يسمحوا لأيّ رجل من رجال الوادي بدخول «عُصيْرَةْ»، عندها أدركت أنّهم يرفعونها على أسنّة باترة، فإن كانت أهلاً للمسؤوليّة فهي ستتخلّص من كلّ عائق يضعونه أمامها؛ في مقابل أن يُدفن «الشريف» بوادي «اَلحُسَيْنِي» ثمّ بقاؤهم على عهدهم راعين لها ولابنها «عيسى». وحين اطّلعت على عرضهم، تأكّدت أنّه يلزمها من تلك اللحظة أن تعرض عن كلّ مباهج الحياة، فقبولها بما عرضوه يعني إقدامها على مقايضة ما كان ليقبل بها أجسر الرجال في الوادي ـ بحسب ما أضمرته في موقفها إذاك ـ وهي محل ذلك الإقدام، وأهله ما بقي لهذا الوادي ذكر في الدنيا، لذلك أوقفت بارقة الأمل في أيّ خيار آخر، وقصّت لماء الحياة مجراه في روحها، قابلة بأن تقضي ما تبقّى من العمر في ظلام طويل، لا ترى إلاّ بهم ومنهم!

تتسلّل مع أراجيح الريح في الخارج تهويدة طويلة بالهزائم الخاصّة التي لا يطلع عليها أحد، ولا تتكشّف إلى قلب آخر على الإطلاق، وهي الآن تبذر سنانها الحادّة في الذاكرة: (مَنْ كان يستحقّ عيوني غير وادي اَلحُسَيْنِي؟.. رضيت بالعمى ويبقى لأهل عُصيْرَةْ كلّ هذا التاريخ!)، هكذا عزّت روحها في نظرها الذي قايضت به موالين لواديها من جبل «اَمدُقمْ»، حين عرضوا عليها أن يسلبوها نظر عينيها، مقابل جثمان الشريف، كما سيُمكّنونها من كلّ قوّة تُعينها على شؤون الرعيّة

والولاية، حتّى في عهد ابنها الذي سينحصر دوره في تمثيلها أمام الأحلاف الأخرى والخارجة عن نطاق سلطة «عُصيْرَةْ»، كما اشترطوا عليها ألاّ تخطو خطوة واحدة لاتخاذ أيّ قرار، إلاّ برأيهم والرجوع إليهم في كلّ صغيرة وكبيرة، وكذلك ابنها إذا ما كَبِرَ وصار رجلاً وتقلّد معها زمام الولاية.

وقبضتها تتراخى عن صدر ابنها المتأرجح بين الخفض والصعود. عادت إلى تاريخها الشخصي، وفتقت وجهها الممتلئ بالحياة عبرتان من أسى على ما ذهب من جسدها وروحها على السواء، وكأنّما يجتهد الندم الآن ليُظهر قدرته على ردعها عمّا ذهبت إليه في ذلك القرار القديم، إذ أعلنت للموالين موافقتها على تنفيذ الاتفاق بعد انتهاء ستّة أيّام على وفاة زوجها، وهي بذلك تضمن أيّامًا تفي بعزاءين، الأوّل لـ «عُصيْرَةْ» حزنًا على شيخهم الشريف «مِشَاري»، والآخر لها وحدها، ستُفرده لحزنها الخاص على معشوقها الميت، فلم تُقدم على ذلك القرار الخطير إلاّ حين أُسقط في يديها معنى الحياة، ووجدت أنّها لم تعد بجدوى البقاء امرأة سويّة، فلا جسدها سيهتوي الرطوبة بعد يومها ذاك، رغم أنّه يتلوّى طويلاً ولم تُعالج رغبته إلاّ مرّتين في العام الواحد، طيلة ما يزيد على خمسة عشر سنة هي فترة زواجها من الشريف «مِشَاري»، ولا قلبها بعد فاتنها، السّابِقَةْ «اَبْن حُسَيْنَةْ»، سيميل فيما تبقّى لها من العمر إلى غيره أبدًا.

كان أباطرة «عُصيْرَةْ» ووواديهم أَولى من أن تظلّ مبصرة وعلى مباهج الجسد، وتحيا الحياة ذاتها، هكذا قرّرت لنفسها وأضافت أنّها قايضت بنور عينيها مقابل رفعتهم، وبقائهم أُولي بأس ومنعة لا مثيل لهم من الجبل وحتّى البحر، فقضت ما يُقارب أربعين عامًا في ظلمات لا نهاية لها، ولا أحد يطّلع على سرّها أو يجرؤ على ملامستها، عدا «بِشَيبشْ» الذي يُمازحها أحيانًا، معرّضًا على الدوام برغبة جسدها، وشوق قلبها، وكأنّه يعلم فعلاً بحاجاتها الأساس.

انفكّت قبضتها القاسية، وسحبت يدها بهدوء من على صدر ابنها المنهك، كما لو أنّها تُسلم أساريرها لعذوبة ما، فتُؤسَر لها في يسر غريب، محلّقة معها إلى فضاء خصب بصورة خالدة لم تُفارقها، منذ أعوام طويلة، أعوام ظلّت خلالها تُمنّي النّفس بعودتها ولو لمرّة واحدة فقط.

عندما شعر ابنها «عيسى الخير» بأنّها تصعد في ملذّة خفيّة، أيقن أنّ فكرة ما عالقة بها وتُساورها إلى قرار آخر لا يقلّ خطورة عن قرارها القديم، ولا شكّ أنّ هناك علاقة لهذه اللمحة الأخّاذة التي تحملها كلّ هذه المسافة الزمنيّة الكبيرة؛ لتعود بهما حيث بدأا معًا في قيادة هذه الولاية، هو بعمر يُقارب الربيع الخامس عشر، وهي بقدرات خارقة اكتسبتها من أخوالها الجنّ كما أسرّت له يومًا، وكما يظنّ من قبل، لا كما يصله الآن من عميق روحه المتوهّجة بالحقيقة التي أتته متأخّرة كثيرًا جدًّا.

كرّر على نفسه ما توصّل إليه وهو في حالة يُرثى لها، فعاد إلى سؤاله عن الأسباب الحقيقيّة التي دفعت الموالين للنزول عند رغبتها في دفن والده بواديهم وبقائهم من بعد على الميثاق.

جزم أنّ الأمّ تغلبها هزيمة لم يعهدها عليها من قبل، لذلك فهي تصرّ على رحيله عن هذه الدنيا، بحجّة نهاية تاريخ عصبة «عُصيْرَةْ» ووادي «اَلحُسَيْنِي» قاطبة، وأنّه لا يليق به أن يبقى وقد غادر كلّ مجايلي عهده، وما آلت إليه الأوضاع بعد أن دخل القرية «محمّد المصلح» أو المقرئ، وراح يبثّ فيها تعاليم إصلاحيّة كما يدّعي، وما كان لهذا الرجل أن يتمكّن من اختراقهم لولا أنّه جاء برفقة ذلك السّابِقَةْ «ولد الهَيْجَةْ»، فهذا الشاب هو المنفذ الذي صعب عليهم سدّه، وهو الثغر الذي لم يقف عليه أحدهم فخسروا كلّ مجدهم التليد.

وأضاف في قراره أنّ الأمّ هي التي أذنت بدخول «المُقْرِي» ورفيقه، وقرّبت هذا الأخير بكلّ ما يسعها ودون أن تقع في حرج،

لأنّهم أجمعوا على وجاهة هذا العمل، نظرًا لمكانة السّابِقَةْ لديهم، وأنّهم سيستفيدون من عونه في سواد المقبل من الأيّام، خاصّة وهم يفتقدون لشجاع مثله بعد أن خلوا تمامًا من رجل يعتمدون عليه في الملمّات.

لزم فكرته عن «ولد الهَيْجَةْ» وراح يُؤلّب شكوكه حوله، فلم تعهد القرية أيّ قلاقل طوال تاريخها العتيق إلاّ حين صار المرض لا يُفارقه ويُقعده نهائيًّا عن الحركة، ويصله من زوجه أنّ مخلوقًا يقضي الليل يتلمّس شيئًا في البيوت، فيتنقّل بينها دون أن يُقبض عليه، ولم يتمّ إطلاع الأمّ على هذا الأمر، وقد تناقله بينهم البعض من الأقرباء فقط، خجلاً من تفشّيه؛ ولكيلا يتناقل النّاس أنّ بنات قرية «عُصيْرَةْ» يدسسن في فراش نومهنّ ذاك الغريب الذي لا يعرفون له مسلكًا أو موطنًا، حتّى أنّ الأمر وصل بهم ألاّ يتحدّث رجل لجاره؛ شاكيًا ممّا يلحق داره ليلاً من هجوم، ورغم محاولاتهم المتكرّرة، والمنفردة في البحث عن مصدر الهجوم إلاّ أنّ كلّ واحد منهم يبيت مخذولاً، وفي اليوم التالي لا يجرؤ أحدهم على التفوّه بكلمة واحدة؛ خوفًا من أن يُشكّ في عرضه، فإن هو تفوّه بكلمة شاكية لأحد فإنّ القرية ستطحن سمعة بيته، وسيُقال إنّ ابنته واعدت صفيًّا لفراشها، أو أنّ زوجته «تَحْتَطِبْ»، وهذه هي القاضية، فحين يتفاشون بينهم بأنّ امرأة أحدهم تجلب حطبًا لتنّورها من ورائه، فذلك يعني أنّها تبحث عن حارث لجسدها بدلاً منه.

صورة «السّابِقَةْ» خطفتها عن جوار ابنها المنازع، تلك الصورة التي ترجوها منذ عهد بعيد، وهي الآن تنشر لها حقول روحها، لتقرّ في بيادر ترحيبها بها، ولا يُمكن أن تُفرّط فيها مهما كان الثمن، وإن طلب الموالون في جبل «اَمدُقمْ» جثمان ابنها، كما فعلوا إثر موت زوجها الشريف من قبل، فإنّها لن تتردّد لحظة في تسليمه إليهم؛ لقاء أن يردّوا لها نور عينيها، وتستطيع بهما رؤية «ولد الهَيْجَةْ» وتنال به من منابت رغباتها البالية فترويها إلى أن تمتلئ حدّ الكمال.

تحرّكت رائحة الأنثى غالبة رائحة الذكر الذي كان فوق مَسْجاه يروغ من تعبه في غير هدى، فانتشرت الرائحة أنفاسًا حارّة متناسقة التدفّق؛ تخيط صعودها حتّى «القَروْ» حيث النهاية العلويّة لجوف العُشّة، ثمّ ترتدّ نازلة سلّمها المتعرّج، فتتعارك في خليط لولبي له عبق الاشتهاء.

لم تعهد يومًا أنّها فكّرت في عدد سني عمرها، ولم تُغامر في فعل ذلك، فقد أسلمت احتياجها للنسيان، ولم تحرص على متابعة شؤون تقدّمها في العمر الذي يحسبونه متجاوزًا السبعين عامًا، وما يلزم حيال هذا العمر من واجبات لا بدّ من أدائها، متطامنة إلى سرّ روحها في الحيويّة الدائمة التي تتمتّع بها، وكثيرًا ما كانت هيئتها الجميلة محلّ اهتمام الغير وتعجّبهم؛ حتّى غدت تُعرف بـ«التركيّة» لشبهها بالأتراك أو «الحُمْر» الذين حاربوا، في زمن قديم، «آل هَايِل» على حدود «ساق الغراب» الشماليّة وتناقلوا سير خلقتهم البديعة، حين جالوا في تخوم بلادهم وحتّى اليمن.

وسحنة الملوك لم تنفرد بها وحدها بل كان ابنها «عيسى الخير» على الآية ذاتها من الخلقة، فهو مشهور بوسامة لا مثيل لها، وبذلك الحسن الفريد تمايزت أسرتهم الحاكمة عن الأسر الرفيعة الأخرى في المنطقة، وهذا ما جعل الجميع يقرّ بمكانتهم وعلوّ عرقهم على مرّ القرون التي تخالفوا على عيش أعوامها الطويلة في وادي «اَلحُسَيْنِي».

(٢)

هي أمنية وحيدة آلت الأمّ على نفسها أن تحياها ولو لطرفة عين مبصرة، فتأجّجت تلك الأمنية بضوئها دون اختفاء فرضته عليها طويلاً، فظهرت جليّة لا غبار عليها، عندما بدأ ابنها الممدّد أمامها في ليلة الموت، يربط بين معشوقها الأوّل السّابِقَةْ «اَبْن حُسَيْنَةْ» وبين مثيله الغريب عنهم «ولد الهَيْجَةْ»، وروحه كانت تجتهد في البقاء؛ لأمر معيّن ترومه دون سواه، فلحظتئذ وهي ما زالت تنفرد به في انتظار خلق «اَمدُقمْ» ليقبضوا جسده إلى قافلة مهيبة باتجاه الشرق، تركت كفّها اللامعة ترأف بصدره، واستسلمت لخدر يغشى جسدها المعبّأ بالحيويّة، وكأنّها تستيقظ من غفلة طويلة أخذتها إلى زلاّت كثيرة، لتجد أنّ أمامها فرصة مواتية لتصحيح كلّ الأخطاء، لذلك هي لا يُمكن أن تتخلّى عن النفس الأخير الذي قد تستعذب به تلك الأمنية، فأمرت ابنها من قبل أيّام أن يستعدّ للموت، فلم يعد أمامه خيار سوى الرحيل معزّزًا عن كلّ دسيسة تحوكها الإمارة له، وهذا ما أتى في بيانها للخاصّة ولزوجه ولفتاتهم «شَرِيفَةْ»، كما أنّها قد رتّبت كلّ أمورهم اللاحقة، فقضت أن تُقيم زوجة الشيخ «هَدِيّةْ» بقيّة حياتها إلى جوار القيّم على كامل مستندات ممتلكاتهم والذي يسكن بالقرب من حِبط «ساق الغراب»، وهو لا يُرحّب بسواها وخادمهم الأوّل «حِنِين» وبعض المعاونين والمعاونات، أمّا الجارية «زَهْرَةْ» فستُرافقها إلى أن تقضي في

أمرها شيئًا. وقد استبقت الفتاة «شَرِيفَةْ» لتقوم على شؤون الممتلكات إلى حين. وقد وجّهت الأمّ منذ أيّام بأن يعدّوا دابّة تتحمّل مشقّة سفر يومين حين تُغادر «هَدِيّةْ» القرية بانتهاء عدّتها بعد وفاة زوجها، أمّا «أبو حَشْفَةْ» فهو سيُصارع الحياة كما طمأنهم، وأنّه سيُحافظ على دوام «عُصيْرَةْ» ومفاخرها المديدة، وإن أخفق فهو سيفي بوصيّة أبيه، فحينما يسترذله الناس بسقط عطائهم، سيُعلّق رأسه بحبل يتدلّى من عريش يقع على جبل «عَكْوَةْ»؛ مطهّرًا بذلك روحه من العار العظيم.

لقد انتهت مراسم الوداع، ولزموا جميعهم مخادع نومهم، حيث دخل «أبو حَشْفَةْ» عُشّته مبتور الروح بسبب ما يخشاه من غده القريب، ومن جهتها «هَدِيّةْ» اختارت مثوى وحدتها المضنية بعيدًا عن الأمّ و«شريفة» التي انزوت وحيدة على مرارة أشدّ.

باتت «هَدِيّةْ» تجدّ في تشييد الحنين قبل الشروق، فسرَت بـ«تَرْحِيلَة» تُنادي زوجها إذ ترى إثره الأرض خاوية، وتتمنّى لو أنّ المقبرة آهلة كالقرى فتحمل إليه الزاد والماء وماعون بيتها لرفعة متكئه، فالدار خالية وممتلئة بالموت، فأقضّت ليل «عُصيْرَةْ» بنشيدها:

(وااا عيسى..
الأرض بَعْدَكْ خَوَى
ليت اَلمِجَنّةْ قُرَى
واَجِي بزادِي والماءْ
ومَعْرَشِ للمَدْكَى
وااا عيسى..
الدار منّك خَلَى
والموت مِنّك مَلَى
وااا عيسى..
وااا عيسى..)

وقطعت «هَدِيّةْ» مسافة اللّيل الأخيرة، بـ«تَرْحِيلَة» الوداع تلك؛

ممسكة بكفّ «زَهْرَةْ»؛ علّها تشدّ من أزرها ولا تنخرط في بكاء سرى بعضه في ظلام القرية مريرًا، لا يحجبه شيء عن خدش أيّ قلب أصمّ، فينوش شجنًا طويلاً إلى ماضي بلادهم، إلى رجال مصطفين في عرش عال يرقبون نساء يتمزّقن في الحزن، ويثكلن حملهنّ قبل أن يضعنه، هم رجال في سماوات عُلى يرون ما نحتته ذكورهم من الأبناء هيّنة في الليل وحقيرة في النهار، كأنّما هذا النسل لم يكشطوه من أجسادهم العظيمة، بل هو سلالة ضرّ لا طين لها في وادي «اَلحُسَيْنِي»، وأنّ عليها اللعنة في كلّ كتاب أنّى تكون!



(٣)

تتحدّث «شَرِيفَةْ» إلى نفسها بأنّ إلى أرضهم ينتمي هذا الظلام الطويل، وإلى مخادعهم يدنو هذا الخذلان المريع، ولا يأتي اعتباطًا هذا الموت الكثير على هوانهم، فهم من شيّدوا لخرافته هذا العرش، وهم من قرضوا عنه الرزايا؛ حتّى استطال في جباههم مجدًا خارقًا، أليسوا هم من فجّروا له ينابيع عطاءاتهم، ومدّوا أمامه بساط الإكبار حتّى تشعّب في ضلوعهم؟ فأيّ عثرة ستقوم في طريقه؟ وأيّ مكربة ستناله وهم جبال ردعه ورماح شرره؟ وتُضيف أنّ أهلها هم الذين رمّموا فتات سيرته، وأقاموه فيهم معبدًا عاليًا، يطوّفونه أبدًا، فلا تُذكر عند مقامه كلمة إلاّ خالصة له، ولا تنمّ عنهم حركة في حضرته إلاّ خضوعًا له، مبكّرين إلى رضاه كلّ صباح، ومبادرين إلى سلواه كلّ مساء.

تُنازع روحها بذلك عن «ولد الهَيْجَةْ»، الذي أتى من دفقة مشروعة بالعشق، فسبق قران والديه المجهولين، وعليه أن يعلو برجولة والده في عيونهم، إذ له النسب الكريم من الأشجار التي تهيج عطاءً لهم، مطلقين بذلك عنان حاجتهم فيه شجاعًا لا يُشقّ له ريح سمعة، وسيّدًا لا يُمسّ بما يكره، ولهم عليه أن يردّ الجميل بقدر الشجرة الهيّاجة التي منحته اسمها العزيز. تتذكّر «شَرِيفَةْ» عندما جاء في رفقة المقرئ، كان شخصًا مهيبًا، وذا طلعة تتخطّف الأنظار، ويومها شاهدتْ من الأمّ الكبيرة ميلاً

واضحًا رغم عماها، وهي تقترب إلى جواره، كان ذلك بأنف وعين جاريتها «زَهْرَةْ»، إذ كان يقف خلف المقرئ آنذاك رفيقًا.

لا يُعقل أنّ «شَرِيفَةْ» باتت البارحة تحت وطأته، مشرّعة فخذيها لكرّه وفرّه، فلا يُظنّ بأيّ شخص آخر أنّه أقدم على ذلك، وأنّه قادر على اقتحام دارهم العتيق سواه، والأخطر من هذا أنّها لم تشعر به، فأيّ لعنة غشتها لتحملها في غيبوبة مطبقة؛ حتّى هذا الفجر الكارثي على وادي «اَلْحُسَيْنِي».

لا تكاد تُلصق جسدها في فراش قَعَادَتها حتّى تتبدّى من تحتها صرصرة استغاثة، وهي تتقلّب عليه في ضجر يُخزّق روحها، وكلّما شحذت من يأسها جذوة للنهوض، احتضرت برأسها فكرة لا تجدها تفي لأن تكون منفذًا إلى فتح مزاليج هذا المبهم أمامها منذ ساعة أو يزيد مضت على الشروق!

البارحة باتت «شَرِيفَةْ» على براثن موت عريض قاده الموالون من جبل «اَمدُقمْ» إلى شيخهم، فاختاروه إلى جوارهم، منهين سيرته في واديه بدفنه في جبلهم، تنفيذًا للاتفاق القديم مع الأمّ التي ألّبت مفاتنها القديمة، لتخرج على الناس في شكلها الذي تُريده؛ احتفالاً بموت ولدها وهو العزيز لم يخضع للإمارة قطّ.

وهي في فراشها تلبط أطرافها السفليّة، من الحوض وحتّى القدمين، في حمرة قانية، كانت «شَرِيفَةْ» تُفكّر في شائكة لن يعيها أحد غيرها في الدنيا؛ حتّى أمّها «هَدِيّةْ» لا تطلع على معاول تُضنيها بالتفكير، فقد استقرّ بها اليقين أنّها شخصيّة فوق العادة، وأنّها في مهد السيّدة «صَادِقِيّةْ»، لذلك قالت لروحها: (من هذا اليوم سأكون علية العليين في الوادي. . وليس في هذا الوادي وحسب؛ بل وحتّى ساق الغراب كاملاً بذرى وسفوح جبالها وأحباطها وعروقها في تِهَامَة. . .).

لم يكن ذلك ادّعاء أو خلقًا من صنيع اعتدادها بنفسها وعنتها الذي ورثته عن أبيها، كما يقولون؛ إنّما هو حقيقة النهايات، فلا زمن بعد

اليوم سيُكتب لأُولئك الرجال، ولا حظّ حسن يُمكن لرعيل ينحدر من دمائهم العريقة، فستغدو لها القوامة الفريدة على الزمن، ولها التصرف المطلق في حذافير الوقت، وتصريف نوائب الدهر أو مباهجه، وبالطريقة التي ترغبها، وأنّى تشاء، هذا نياط داخلها وصوت عمقها.

وها هو الطلع الأوّل من مشارف مملكتها التي حدّثت بها نفسها كثيرًا، فاليوم تُزاورها الشمس بتاجها المنتظر، وقد عهدت للصبر أن يُهذّب روحها بجمره، حيث نادى في القرية منادٍ بُعَيد طلوع الشمس أنّ رجال القرية قد تمكّنوا من إخماد ذلك الضال الليلي، وهم بهذا الفعل يقهرون الضيم الذي حمله شيخهم في صدره قبل الموت، وقد حقّقوا له ما يُريد، فخلّصوا القرية من شرّ مستطير كان يُرغمهم على البقاء في بيوتهم؛ وعدم الوقوف على شؤون أراضيهم التي مزّقها البارحة السيل العارم، فتلقّفته القبائل الأخرى سريعًا، في دلالة واضحة على ذلّهم العريض، واستبقوا متناسين ذلك المؤشّر، ومباركين إذا هم إلى خلاص من ذلك الخوف اللعين إلى الأبد، وفي قرارهم نقموا من الأمّ التي أرسلت خلق السماء والجبال ليدكّوا بلادهم، بلا رأفة تُذكر.

إثر ذلك النداء ثارتْ في الدار جلبة غريبة، وكانت «شَرِيفَةْ» تُرهف سمعها لدبيب حركة غير طبيعيّة لم تكن ناتجة عن طقوس العزاء في فقيدهم، وكانت أمّها «هَدِيّةْ» في عُشّة النساء تتبادل مع أُخريات النواح، وهي في عُشّة أُخرى قد دخلتها البارحة بعد جهد بالغ إثر رحيل الشيخ. كانت الحركة الغريبة تزيد من دبيبها، حركة أُناس يروحون ويجيئون، وقد خُيّل إليها، من خلال لمحة أو لمحتين وهي في فراشها، أنّ خدم الأمّ يتراكضون في غير هدى، فيهرعون إلى خارج الدار كمن يستطلع أمرًا خطيرًا، ثمّ يعودون متقاطري الأجساد بعيون متّقدة وأطراف نافرة بالتعجب والاستفهام من هول ما رأوا وسمعوا!

وفيما هي على ذلك النحو، إذا بالجارية تدخل مخدعها، وتبرق من عينيها حنقًا جامحًا، ثمّ ألقت عليها ثوبًا وقالت لها: (شُلّي ما عليك

وسرّيه لحزامك، والبسي هذا الثوب). لم تقدم على شيء ممّا وجّهتها به، فقد أذهلها افتضاح أمرها، وفي عجلة هجمت الجارية على فراشها، دون أن تنتظر من «شَرِيفَةْ» أن تسأل عن شيء فتكون مدينة لها بإجابة، وراحت تخلع عنها ثوبها، فعرّت جزأها العلوي كاملاً، لتبدو بكتفيها وقليل من صدرها مثل هالة مضيئة تفضّ عن النفس وحشتها، وأسدلت عليها غطاء يُضاهي ساعديها في البياض؛ ثمّ فرّقت بين ساقيها وقليلاً عن فخذيها، فتأرّجت نفحة لا يُمكن أن يكون مبعثها ناتجًا من تفسخ خيوط الدماء المتلاصقة، كانت نفحة أشبه برائحة لبّ شجرة طيّبة قد تمّ رتقه إلى نصفين، وسلكت شرخه الريح، فقد عمّ محيط العُشّة عبق فريد لا يتسنّى لأحد أن يستنشقه إلاّ ويخطر بباله نبات زكي اغتسل بالمطر، وراح في العراء النقي يُطلق شذا أعماقه.

راعت «شَرِيفَةْ» تلك الرائحة حين اخترقت أنفها، وبدأت تُسوِّل لروحها بأنّها كائن خرافي، فلا يُحتمل وجود إنسان تخرج من طرفه السفلي رائحة عبقة، ولم تسمع من قبل بحادثة كهذه تحصل لأحد سواها، وكانت تُشاهد أرنبة أنف الجارية تتحسّس مواضع شمّها في رغبة كبيرة، لمعرفة المنبع، وكأنّ الجارية مشدوهة من كلّ شيء كما يفضحها وجهها وحركتها العجلى، أو أنّ هناك ما يدعوها أكثر فأكثر إلى تذكّر رائحة مماثلة، ولا تقطع دابر شكّها حتّى تترك أرنبتها الضخمة، المتربّعة في وجهها الشاحب كقبضة طفل، تمتلئ من نفح فتاتهم العجيب، هذا كما تشعر بها «شَرِيفَةْ».

مِنْ على جسمها أكملت «زَهْرَةْ» سحب الرداء المحمر أسفله بالكامل، وربطته حول خصرها، ثمّ ألبستها ثوبًا آخر، بعد أن غسلت كلّ أثر تخشى أيّ عين متلصّصة عليها، وطلبت منها ألاّ تُفارق عُشّتها حتّى تسأل الأمّ حضورها، وأخبرتها بذنب عظيم قد أقدم عليه أهل القرية، متجاوزين كلّ أعراف أجدادهم وآبائهم.

ما أقدمت عليه الجارية كان لدى «شَرِيفَةْ» محل سخرية من نفسها،

فهي التي وجدت في شخصها ذكاءً خارقًا، فإذا بأمور جديدة تتكشّف أمامها، لترى عجزها عن بلوغ مكانة الأمّ، السيّدة العبقريّة، فكيف يُمكن لها تفسير كلّ ما حدث لها البارحة، وحتّى لحظة دخول الجارية إلى عُشّتها وما قامت به من تغيير لملابسها، وإحاطة خصرها بثوب ملطّخ بدماء زكيّة ـ كما تُقرّر ـ؟ كيف لها أن تبلغ سرّ ما يحدث لها وهي بهذا الضعف أمام علم الأمّ المتناهي في الإدراك؟!



(٤)

في اليوم ذاته الذي خرج الرجال فيه من مجلس الأمّ دون أن يفصحوا حقًّا عن سرّ خلافهم، وقد اختلقوا له سببًا واهيًا، هو تخلّف البعض عن صلاة العِشَاء، وتحديدًا في مساء ذلك اليوم كان كلّ رجل منهم قد دسّ في صدره نيّة التخلّص من فاعل الأذى بأهل القرية، عازمين جميعًا على النيّة ذاتها، دون أن يكون لذلك العزم أيّ تخطيط مسبق أو أيّ بيان يجمعهم إلى مقصد واحد وبتّوا فيه، هذا وهم موقنون بشخص محدّد لن يجسر غيره على إيذائهم ـ بحسب ظنّهم ـ وعقدوا متفرّقين تحقيق تلك النيّة في ليلة وجدوها مواتية لردّ الكيل في وجه السيّدة الأولى «صَادِقِيّةْ»، يدعمهم في ذلك تعدّيها على مزارعهم بالسيل الكبير الذي أحال أعمالهم إلى حطام لا نفع له، ورجال منهم قضوا وهم يدفعون عن ثمارهم المياه الجارفة، وكانوا بوقوفهم تحت تلّ «شَارِقْ» مساء يرجون عفوها وصفحها وألاّ تُخرج من مكامن الجبال منابع الماء أو تدعو من أبواب السماء ثجّاجها؛ وهم بذلك قد سألوها ما تستطيعه، لكنّها أعرضت عن استغاثاتهم ولم تُوليها أيّ استجابة، لذا وجب أن يردّوا لها سوءتها؛ فهي التي لم تُقدم على ما يضرّهم من قبل، فلماذا الآن تُثير عليهم الجوع والسقم، وبتلك الطريقة الشنيعة! كما تساءلوا؛ ليُقنعوا أنفسهم في صمَت بما سيُقدمون عليه عند نهاية «ليلة اَمدُقمْ»!

حين استوت الأرض بصفحة واحدة من المياه الساكنة في ساعات معدودة، في «ليلة اَمدُقمْ»، وحمل السطح كلّ ما على الأرض من شجر ودابّة وزرع، كان لغضب الرجال أن يطفح عاليًا، بعد زمن قضوه في مهاجع دورهم، يُراقب كلّ واحد منهم نساءه، ويرصد أيّ امرأة منهنّ تستبق إلى باب العُشّة لاحتضان الزائر الليلي، فتخرّ بين يديه حرثًا كيفما يشتهيها، إلاّ أنّهم جميعًا لم يكن بمقدورهم القبض على مبتغاهم القاهر، فأرجأوا تلك النيّة؛ حتّى أعلنت الأمّ لعنة الجبال والسماء عليهم.

بعد أن حُملت جثّة الشيخ «عيسى الخير» في محفل مهيب، وقد جرف بكاء زوجته «هَدِيّةْ» عليه أزقّة القرية بأرواح الرجال، دون أن يتزحزح واحد منهم خارج بيته، وتحديدًا عند نهاية الثلث الأخير من الليل، خرج رجال القرية جميعًا حاملين عِصيّهم وبنادقهم، وقد تدفّقت أنفاسهم بحمم لا سائل عن سببها، والتقوا في ميدان «قُنَيْدَةْ» قُبيل الفجر مصمّمين على بتر نازع سكينتهم ومزعزع أمانهم، ومدفوعين إلى النيّة ذاتها المدفونة في صدورهم، دون أن يتفوّه أحدهم بكلمة واحدة مبنيًّا عن القصد، إلاّ أنّ كلّ رجل منهم يعرف مقتضى الصدفة لالتقائهم في وقت واحد وعلى نيّة واحدة. وهم يُضمرون في قبضاتهم الموت المحقّق لشخص معيّن بذاته، انطلقوا إلى جهة أجمعوا صامتين أنّها تنتهي إلى مرامهم الخفي.

لحظة شارفوا على مبتغاهم كوّنوا حوله حلقة واسعة منيعة، ثمّ تقدّموا خفافًا لتضيق الحلقة شيئًا فشيئًا؛ إلى أن شدّوا وثاق سواعدهم على فراش الشخص المعني، الذي كان يغطّ في نوم عميق، وفي لمحة خاطفة رفعوا كعوب بنادقهم ورؤوس هراواتهم وانهالوا بها على رأسه وصدره، وآخرون انهالوا على جذعه السفلي، فكانوا يضربون بقوّة بالغة، لم تمكّنه حتّى من محاولة النهوض نحو فرار كان مستحيلاً والضربات تأتيه من كلّ جهة وتنال من أوصاله بدقّة بالغة، فانهار بين

أيديهم في دقائق قليلة، ولم يتوقّفوا أبدًا عند ذلك، بل بقوا ينهمرون بجام جحيمهم المتّقدة عليه، يشقّون في جسده سقر بغضهم، ويكيلون له من قليل حقدهم نظيرَ كثيره الذي هزّ كيانهم طويلاً، هكذا لدقائق يحسبها الحبيس بين أيديهم دهرًا، حتّى رأوا منه ما يُوقفهم تمامًا عن مساواة لحمه بعظمه، حيث توقّفوا فجأة ورموا بأسلحتهم جميعًا منزوعين إلى هلع فاجع، وهم يرون عورته تتكشّف أمامهم دون ذَكَر له.. فلم يكن له عضو! أُسقط في يدهم ما فعلوا، وفرّوا مثل نعاج باغتها وحش لا يُفرّق بين نحيلها أو سمينها، هذا وجثّته محاطة ببنادقهم وعصيهم الشاهد الوحيد عليهم.

لم يغب عنهم أنّ مَنْ سيسمع بفعلتهم هذه سيعذرهم، فما قاموا به هو صواب صريح، ولم يردعهم أنّه في معتقداتهم هو ذلك الشجاع الذي لا يمسّه أحد ولو بكلمة، إلاّ أنّ كلّ شكوكهم حاقت به، وقرّروا أنّه هو من يُقلق مساكنهم ليلاً، فإن كان أهلاً للرجولة كما هو الظنّ الحسن فيه؛ لكونه «سَابِقَةْ» يُجلُّونه، فكان يجب عليه ألاّ يشيع المنكرات في قريتهم، بحسب تقريرهم عنه؛ أمّا عن كونه بلا عضو فهذا أمر لن يتحدّث به أحد، لأنّه سيزيد من قدر فضيحتهم، فالعرف يمنعهم من مقاتلة غير المختون، فما بالهم بشخص ليس له عضو أساسًا؟!

لقد اقترفوا بفعلتهم تلك جرمًا عظيمًا في حقّ واديهم وأهليهم، وأتوا بما لم يأت به أحد من قبل، فما عهد الأوّلون منهم أن يجتمع قهر قوم مرّة واحدة على رجل أعزل، وليس هذا وحسب، بل إنّ هذا الأعزل قد ناصبوه العداء بظنون مجرّدة لا أدلّة دامغة تُثبتها، ولم يكن هذا العدو رجلاً عاديًا، بل هو من الصفوة المهيبة التي لا يلحقها ضيم قطّ، فإذا هم يشنّون عليه حربًا ظالمة بكامل قوّتهم، ولا يجدون أمامهم غير القضاء عليه، دون أن تردعهم مكانته العالية في معتقداتهم، وذلك غِيلة لا تقرّها أعراف واديهم في الحرب ولا قيم «المِخْلاَف» كاملاً.

ذلك ما حدّثت به نفسها «شَرِيفَةْ»، وأضافت: (لقد فعلها أهل الوادي.. وقتلوا ولد الهَيْجَةْ.. يااااه!)، تتعجّب وتُفسح من ظنونها فيه، هذا وهي تنتظر توجيهًا من الأمّ بعد أن جهّزتها الجارية بثوب جديد، وأخبرتها بتلك الكارثة التي تفوق كلّ كارثة قد حلّت، فهذه الجريمة تتجاوز في وقعها كلّ قاهر سبق موت شيخهم ليلة البارحة، ولا يُمكن أن يبقى في أيّ قلب ضير يُساويها، فلم يكن يُعقل أنّهم أقدموا على تلك الفعلة المهولة. كانت تسترجع كلّ المناغص التي ضامت أهل «عُصَيْرَةْ» من قبل، فما وجدت في تاريخهم أمرّ ممّا أذنبوه فجرًا.

حينما وصل «شَرِيفَةْ» الخبر وهي عالقة في عنق المحنة تساءلت: (هل حقًّا قتلوه بعد أن تمكّن من مكنونها؟)، تسأل غير مصدّقة، وتُضيف في دخيلتها أنّ هذا القتيل يتذاكر الفتيات عنه بأنّه يقضي الليل ينشب نوازع الرغبة في أجسادهنّ، ولا تتمنّع منابت شهوتهنّ عن أظافر رغبته، فتبيت الفتاة منهنّ تتلوّى من تحت رفيفه العذب، ولا تكاد تترقّى إلى أعلى درجة في سلّم شبقها، حتّى تتهدّم من هامة حاجتها إلى قعر مساورتها لما تخاله من طيفه، فيُوقظها إمّا صراخ النساء الأخريات خوفًا فيُذهبن نومها، أو صياح أحد ذويها في إثر الزائر المباغت، ولا تُفوت هذه الفتاة عن قريناتها في اليوم التالي تفاصيل الحكاية، وأُخريات يسبقنها في تفاصيل أُخرى لم تحصل لها معه، لكنّ الحقيقة أنّ أكثرهنّ يُبالغن في وصف ما يحدث لهنّ، فحين تضمّ الواحدة منهنّ ذلك الحارث لا تعي أيّ وسيلة أدعى لنهاية وطرها معه، مع أنّها لا تُبقي من روحها أيّ حاجة دون معالجة منه، كما يُخيّل لها، فتُصبح صامتة وجوفها يعول بجوع جارف لكلّ رجل تراه، ولا تقصص شيئًا ممّا حدث لها إلاّ على الفتيات الأخريات، اللاّتي يتسابقن في تحسين فصول الحكاية بما لا يعدو كونه أمنية لو تحقّقت بالفعل.

وحدها «شَرِيفَةْ» كانت تمنعهنّ من تقصّي تلك الثرثرات العارية من

وجوده حقيقة، فصارت الفتيات مع عنتها يدسسن عنها كلّ حكاية جديدة معه، وينفردن ظاهرًا في العمل، ويُبطِّن حديثهنّ به ولا سواه، وكانت هي على اطّلاع بما يفعلنه بعيدًا عنها، ولا يُزعجها ذلك، فكلّ الذي يُشغلها أداء العمل على أحسن وجه.

ثم تعود «شَرِيفَةْ» إلى عجزها عن اللّحاق بقدرة الأمّ، فبقيت جالسة على قَعَادَتها وتتحسّس خصرها المدجّن بثوبها ذاك، وتستفهم عن سبب هذا الفعل، وأيّ نيّة حملت السيّدة على هذا؟!

(٥)

كانت الأمّ في اللّيلة الماضية قد انفردت بابنها؛ حتّى حانت لحظة دخول ولاةُ جبل «اَمدُقمْ» عليهما فاستبقتهم قليلاً خارج الباب الجنوبي يتمايلون طربًا مع صفير الريح في الشجر، ثمّ أعلنت لابنها، وعبرة تفرُّ من إحدى عينيها، أنّ فضلاً لا نظير له يُصطفى به من السماء، فهو آخر الرجال في هذا الوادي، وأنّها اللّيلة تنتخبه رفيقًا لحملة العرش الأعلى، وأنّ الموالين يأتون على وعدهم، حيث قبلوا منذ أربعين عامًا أن يظلّوا محكومين بشرع «عُصيْرَةْ» من بعد عهد الشريف «مِشَارِي»، فلا ينقضون ميثاقهم معهم، بعد أن قبلت بامتلاكهم لنظرها، وشريطة أن يُدفن الشيخ «عيسى الخير» على جبلهم، وهم يقفون في الباب ينتظرون تسلّم جثّته مقابل وفائهم معها طوال عقود الزمن الماضية.

حين رأى الشيخ من فراشه دمعًا يفيض ببريق حسرتها، وانحدر نظره على غصّة تُغرز سهمها في نصف حنجرتها فتبلعها في حرج بالغ، أمسك يدها الناعمة، وسحبها بكفّ واهنة، كأنّما يُناشدها منع هذا الغرق الذي يأخذه إلى قاع مهول، فيُزعج يده الهالكة رفضها؛ لتسقط على صدره مخذولة، فلا تعيد الكرّة تلك اليد، لكنّ نظره باق؛ ليقول ما لا يُمكن قوله إلاّ لبصير مثله، وكم تمنّى، ولو لبارقة خاطفة، أن يطلع ضوء عينيها على حديث وجهه، أو يُشرق على جبهته التي ما انحنت لسلطة دخيلة تصيبه في قومه وبلاده. وليت نور بصرها ينبثق

للحظة على يديه المبسوطتين لعقود من الدهر خيرًا وظلاً فوق وادي «اَلحُسَيْنِي»، ولكلّ من استطاب حماه ملجأً له من مكاره تُطارده، ليت تلك العينين تقرآن قدميه المتّشحتين بطين بلاده، وتُحصيان خدوش الأرض في أصابعه، علّها لو رأت ذلك لوهبته سنة أُخرى يُقيم فيها أملاً جديدًا تُهَبِّط من عزائمه كلّما تحدّث عنه، فكثيرًا ما ألحّت عليه أن ينسى كلّ خطّة يُعدّها مستقبليّة للبلاد والعباد، فهو لم يعد بتلك القوى التي تسمح له بمواصلة عناده أمام الإمارة التي راحت تتوسّع في وجودها، فرجاله قضوا، ولم يعد في القرية عضد يضع ثقته المطلقة فيه، أمّا يأسه من إياب «بِشَيبشْ» فقد بلغ كلّ مبلغ، ولم يعد يتذكّره إلاّ حين تنحني الفتاة «شَرِيفَةْ» لتقبيل جبينه وهو في فراشه، فيقبض على كفّها الغضّة ويقبّلها قائلاً: (أنتِ آخر اَصحابي..).

لذلك لم يكن مستغربًا على الشيخ «عيسى» تبكيره في الذهاب إلى الموت، فهو الذي أذن لصحبه العظام بقضاء نحبهم، بعد أن رأوا عدم جدوى حياتهم حين صارت الإمارة تتدخّل في شؤونهم وتضيق من خناقها على سلطتهم، وكان هو من يرى أنّه لا صلاح يُمكن تحقيقه، لو تمّت المواجهة بشكل مباشر مع قوّات الإمارة. كما أنّ الإمارة لم تكن بتلك القوّة قبل عقد من الزمان مضى على رحيل تلك الخيرة من رجاله، لكنّهم كانوا يعلمون ما لا يعلمه أحد سواهم، فهم حتمًا سيقعون في مأزق كبير، لو أنّهم أكملوا أعمارهم في صمت، فلا شكّ أنّ ذلك ستتبعه كارثة لن تكتفي بهم، بل ستأتي على النساء والأطفال؛ وقد رأوا أنّ الحكم الجديد يزيد في انتشاره، وأنّ سواعده الحديديّة لا تتوقّف عند بسط السيطرة على الأرض وحسب، بل وحتّى على الرجال؛ ويسعى الأغراب في حبك الصلات بين السماء والأرض، وإتقان الثبور لكلّ من يتجاوزهم في علاقته بالله، فقد رأى الشيخ ورجاله أنّ القادمين الجدد يُقيمون أنفسهم سدنة للدّين لا يُنازعهم في ذلك أحد، ولن يكون لهم منازع إلاّ خصمًا مباشرًا لله القادر على

الخسف بالمردة منهم، وتُساعدهم الإمارة المتربّصة بكلّ من يحول بين رجالها المقرئين وبين دعوة الناس إلى ربّ حديث!

وبسبب ما لأمر الأمّ عليه من سطوة جبّارة، وما لمسه منها إثر دعوة «محمّد المقروع» في الوادي، فقد قبل بالغياب الأبدي، مخلّفًا من بعده وصيّة واحدة لابنه الوحيد «أبو حَشْفَةْ»، أو «حَمُود بن عيسى الخير» كما هو مدوّن في حجج ملكيّته لأراض تقع أسفل «ساق الغراب».

دقّق النظر طويلاً في أمّه، مسجّلاً بذلك لفتة أخيرة على ما يضوع في روحيهما عن الحياة التي قضياها معًا في قيادة وادي «اَلحُسَيْنِي»، منذ أن كان في ربيعه الرابع عشر، وحتّى موعد فراقه بعمر يذهب إلى عقده الخامس أو يزيد قليلاً، ولم يُداخله جزع على الإطلاق من كون هذا القدر الحتمي يسلبه سنوات عديدة، فقط لأنّ عصبته قد سبقته، فما كان يُؤلمه حقًّا أنّ نهايته ستطوي محفلاً عظيمًا قوامه ما يفوق مائتي عام وهم أمّة ممكّنة في الأرض، إن غادرها سيّد رحيم، أتاها سيّد أرحم، هذا وفي صُحف سابقة من تاريخهم مئات السنين انقضت لسادة الوادي وهم يُشيّدون على الأرض وطنًا منيعًا، وهو في ليلته تلك لم يُنازع الموت مخافة من الفقد الذي سيتكبّده تحت الثرى، بل كان يتشبّث بالرمق الأخير لآثار سادة الوادي الكبار في قلبه، وفي جانب بعيد وخفي حزنه الخاصّ على زوجه «هَدِيّةْ».

كان الشيخ قد انطفأ قُبيل دخول الموالين، ومسحت الأمّ جبينه المتفصّد عرقًا فاترًا، ثمّ سحبت نفسًا كبيرًا جزّت به كلّ جذر للحزن، وشرّعت الباب الجنوبي للمنتظرين، فدخلوا في ترتيب محدّد مسبقًا، حيث كبراؤهم أوّلاً، ثمّ عنهم راح يتحدّث إليها الشخص ذاته الذي خرج من حيث لا يعلمون في إحدى ليالي احتفالهم بختان «حَمُود»، وأنشد ليلتها في أهل «تِهَامَةْ» وسروات «ساق الغراب»، مشبّهًا جسارتهم وشدّة بأسهم بجمل جبّار يُقيم القيامة بضربة خفّ، فقال لها ذلك

الشخص أنّهم على العهد حتّى يصلوا بلادهم بجثّة ابنها، فإن تمكّنوا من دفنه لديهم، فستنال حقًّا عظيمًا تنازلت عنه طوال عقود من الزمن خلت، مع التسليم بحقوقهم كاملة، في الحرِّيّة والانفصال التامّ عن سلطة «عُصيْرَةْ»، وهم بذلك سيكونون في تحلّل كامل من الاتفاق القديم، وإن حدث خلاف ذلك فهم سيُوافونها بكلّ شيء في حينه.

بعد أن خرج كبار المفاوضين، تقدّم من الجثمان عدد من خلق لا شبيه لقوّتهم، ولا لجمال طلعتهم، يرتدون جميعهم حُللاً خُضرًا برّاقة، ومعهم آلة من لوح متين، فحملوا الشيخ عليها، وخرجوا في حركة خاطفة، ثمّ اقتحموا الليل فابتلعتهم عتمته المطبقة، بعد أن تركوا في أشجار الدار هزيمًا مخيفًا هزّها من جذورها بعنف شديد، ولم تتماسك سوى السدرة النابتة لصق عُشّة «أبو حَشْفَةْ»، حيث لم يتمكّن ذلك الصوت الرّاعد من كيانها؛ إلاّ أنّه خلّف فيها شرخًا هائلاً تمكّن من لبّها، إذ رتق ساقها؛ وظهر صلبها فاقع الحمرة، أسرعت «زَهْرَةْ» تُعالجه، كما يفعلون قبل أفراحهم، حين يُخرجونه من السدرة، ويصبغون بلونه أُزر الرجال؛ ليترك فيهم نفحًا مدهشًا يسبق خطواتهم، فيُميّزهم حيث يكونون.

أكملت الأمّ في عُشّتها بقيّة اللّيل، والجارية تتنقّل بين تلبية طلباتها، وبين بكاء «هَدِيّةْ» الذي مدّد رداء الأنين البالغ بحرقته أرجاء القرية، فأرخى اللّيل من ظلامه المطير قليلاً؛ لتُشرق السماء عن قمر يتمطّى إلى الغرب إيذانًا بفجر لا شِيةَ لهم فيه أبدًا. ومن الجهة الشرقيّة، حيث معالم الرجال الأوائل الراقدين في القبور، كانت الجنيّة «السُّلعِيَةْ» باكية العظماء الراحلين، تتناوب مع «هَدِيّةْ» النواح الأليم، وإذا التقى صوتيهما المشروخين في سلّم واحد من الصراخ، يصل خليط تقاطعهما كلّ أذن سكنها وقرُ الخنوع، فيعلو صراخهما في سماء القرية؛ هكذا إلى أن انتفضت أرواح الرجال الفاسدة في البيوت من المرابطة حول النساء، فاعتمروا هراواتهم وبنادقهم والتقوا في ميدان

القرية، بالغين مرادًا واحدًا يجمعهم تلقائيًّا، هذا حين انطلقوا ينالون من «ولد الهَيْجَةْ»!

ضحى اليوم التالي كان «أبو حَشْفَةْ» في العُشّة الكبيرة يستقبل بضعة معزّين قدموا من قبائل مجاورة، أمّا رجال القرية فلم يظهر منهم سوى قلّة باقية على مودّتها للشيخ الراحل وأهله، وهؤلاء لم يكونوا في ركب القتلة المحسوب أغلبهم على جيش الإمارة، والذين أرادوا من فعلتهم تلك أن يُبينوا مدى قدرة القانون على تحقيق العدالة، وبعضهم ممّن عيّنوا أنفسهم قوّامين على صلات العباد بالله، وأوّلهم «بُو هاجر» الذي لم يخرج من بعد رحيل «محمّد المقروع» إلاّ مساء أمس حين خرّ تحت التلّ يستعطف الأمّ على أولاده الثلاثة الذين وجدهم جميعًا، عند منتصف ليلة البارحة، مشنوقين في طرف الوادي، وأعناقهم مقلّدة بذكورهم وخصيهم، وبذلك فتحت هي باب الجحيم بينهم، فخرج في غير هُدى ناقمًا يسلك مقطورة الرجال الغاضبة، وقد كان يعد في نفسه كرهًا جامحًا لـ «ولد الهَيْجَةْ» إذا ما عُرف أنّه الشخص الوحيد الذي يُنافسه على مكانة المقرئ الأوّل في القرية بعد خروج سيّده «محمّد المقروع»، وبالتالي فالفرصة سانحة للخلاص منه؛ وسيتحقّق له ما يُريد لاحقًا، وفق تدبيره.

لم تكد الشمس تُزاور عن شمال «شَرِيفَةْ» وهي في قمّة ذهولها ممّا يتبدّى لها من بين ساقيها، حتّى تناهى إليها نداء المنادي الذي أعلن أنّ رجال القرية أقدموا على قتل «ولد الهَيْجَةْ»، وما كان لها أن تُصدّق لولا إخطارها مباشرة عن طريق الجارية «زَهْرَةْ»، حين دخلت عليها؛ تنفيذًا لأمر الأمّ، وخصّرتها بذلك الثوب المصبوغ.



(٦)

(هل خسروا كلّ شيء من ذلك المجد العظيم؟)، سألت الأمّ ذلك حين لم يعد أمامها سوى العار المركب يُرفع شاهدًا على كلّ قبر يضم أحد سادة «عُصيْرَةْ»، ولم يعد أمامها سوى أن تواري حطام أحلامها التراب، فتغيب شمسها أبدًا، فلا رجعة لهم بعد اليوم إلى ما كانوا عليه، ولن تغفر لنفسها هذا الذلّ الذي كتبته على شأنهم العظيم في البلاد، (لكن من سيرحم هذا الجسد في جهنّم الحاجة منذ عقود من الزمان. . .؟)، لا سامع لسؤالها الممض، ولا مجيب البتّة، وتحفر في أخاديد الوحدة، لتكون بيدها نجاة من هذه الهزيمة الشنعاء. لا مفرّ اليوم من المصير ذاته، من هذا الدمار الدقيق، من هذا الطعن العميق، فالآن سيستوون في فسطاط النهاية من حيث الضيم الأخير.

ما تبقّى للأمّ من تمكين خفي، عليها أن تستغلّه سريعًا، لتُنهي بعض الشؤون العالقة والمهمّة جدًّا، قبل أن يحلّ بها ما يخلخل من قداستها، أو تجريدها من قواها الخاصّة، بنهاية أيّام العزاء على ابنها، كما سألت الخلق الموالين ثلاثة أيّام أُخرى؛ ليبكوا فيها «ولد الهَيْجَةْ»، الذي استبق العبيد يحملونه من عثرته الأبديّة إلى دار الأمّ.

أُولى لعنات الأمّ ستصيب «زَهْرَةْ»، ساعدها الأيمن طوال خمسين عامًا مضت، فبعد كلّ هذه السنوات حلّت لحظة نهاية العمل الطويل والشاقّ، ولو أنّ قوّة عشرة رجال أشدّاء عُيّنت للقيام بما كانت تقوم به،

فإنّ هذه القوّة ما كان لها أن تُكمل حولاً كاملاً في الخدمة المتفانية والأمينة في آن واحد، عليها الآن أن تُوقفها عن العمل، وأن تُعفيها من كلّ مهمّة، فعجّلت بسؤالها أن تدخل على الفتاة «شَرِيفَةْ» وتُنظّفها ممّا هي فيه، وتُطوّق خصرها بذلك الثوب المخضّب بالحمرة، ثمّ أطلقت رُسلاً معتمة تجني من الجارية حصاد السيرة المديدة للرفقة، وقد شعرت «زَهْرَةْ» أنّها شيئًا فشيئًا تفقدها، ولا تُبدي أيّ احتجاج روحي يظهره سلوك جسدي معين، فبُعيد خروجها من عُشّة «شَرِيفَةْ» شعرت أنّ وخزًا خفيًّا يخترق رأسها، وعندما عادت تُنادي الفتاة لتلبية طلب الأمّ، خرّت كائنًا آخر لا يمت إلى عالمهم بصلة. كان ذلك آخر عهد للجارية بعالم كانت تعرف أدقّ تفاصيله، وكان عليها من اليوم ذاته أن تُقيم شخصها لما بقي من عمرها، فظلّت على تلك الحال مدّة شقيّة من الزمن، تهيم في الضياع بين أزقّة القرية لا يقربها أحد؛ لأنّها ضلال قديم من تركة السيّدة التي كانت السبب فيما آلت إليه، كما تناقل الناس قصّتها في المقبل من الزمن، وقد بقي لها شيء واحد عن ذاكرة «شَرِيفَةْ»، ولا شيء سواه، لا تنثني عنه على الإطلاق، وهو رعاية ما تيتّم من صغار مواشي أهل القرية، حيث كانت تذكر أنّ فتاتهم «شَرِيفَةْ» لا تُفرّط فيها أبدًا، وعند الغروب تنتظر عودة الماشية من المراعي، لتُقرب من ضروعها أفواه الصغار الجوعى؛ حتّى نازعها الناس في ذلك، وسمح لهم المقرئ بأن يُبعدوها عن كلّ ممتلكاتهم، ثمّ بعد زمن قضى على غياب عقلها، وفي ليلة مطيرة غادرت إلى الوادي ترعى دواب الأرض من السيل، كما صاحت في القرية النائمة، وبذلك اختفت إلى الأبد.

بعد انتهاء فترة عدّتها، إثر وفاة زوجها، خرجت «هَدِيّةْ» من القرية، تحمل خيرًا كثيرًا لا يعلم مقداره أحد، ويُرافقها في قافلة تكوّنت من مركوبتين محمّلة على إحداها «عَلِيّةْ هادي» وهي لا تُدرك من شأنها شيئًا، وفي الركب عمّال وعاملات ومشرفهم الخادم «حِنِين

جغّام» باتجاه الشرق تلحقهم رؤوس كثيرة من الماشية، وقد سكبت «هَدِيّةْ» دمعة باهظة حرّى وهي تنظر إلى السدرة المنداة من أعلاها حتّى أسفلها، والهواء يلوي أغصانها، فتطقطق كما لو أنّها تشكو فداحة الرحيل. بعد ذلك لم يحلّ في القرية ذكر لتلك المرأة الصبور، التي قضت من عمرها أينعه في خدمة رجل شاخ قلبه قبل جسده، ومات وهو يبكي في يدها؛ لعجزه عن دلق رغبة واحدة في جوفها، ولم يعل درجة واحدة إلى تحريك شيئها الباقي على أقفاله.

ولم يقض «أبو حَشْفَةْ» وقتًا طويلاً، حتّى خرج من القرية مع مقرّبين لأهله، يسّروا له الوصول إلى قربى من زوج أبيه، فأقام إلى جوارها ما شاء من الوقت، إلى أن تمكّن من الحصول على مستندات أراض باسمه، ثمّ عاد بعد زمن قصير إلى القرية عاقدًا العزم على إعادة ما خرج من ملكه إلى ملك المقرئين المستوطنين قرية «عُصيْرَةْ»، بعد أن صار لهم الشأن الأوّل بلا منازع ـ كما يُحدّث نفسه ـ وكان ينشر خبر عودته بتلك النيّة، قاصدًا بذلك أن تسمع بها «شَرِيفَةْ» فتصفح عنه، لكنّه لم يبلغ من الوقت شهرًا، حتّى استدرجه الأغراب إلى متع عرفوه ميّالاً إليها، فتمكّنوا ممّا بيده، وهكذا إلى أن خلا من كلّ شيء عدا ملابسه، أمّا دارهم فحرام عليه دخولها، كما يحذّر الناس منها، خوفًا من أرواح غير سويّة تسكنها، وفق القصص المبثوثة فيهم، وقد لاحظ غياب «شَرِيفَةْ» وتخلّيها عنه، وهي التي كانت خلاصه الدائم في محن كهذه، وعلم أنّها تلعنه وتأمل غروبه للأبد، خاصّة أنّ الأمر انتهى ليدها وحدها بعد الأمّ.

لم يدم طويلاً في عوزه ذاك حتّى تحقّقت رُؤيا والده، حين اقتسم أهل القرية، في صباح يوم ما، لحومًا كثيرة وزّعتها الإمارة، بمناسبة بناء مسجد في القرية، فقد ارتاع عندما سلّمه خادم «بو هاجر» حفنة شحم خالصة لا لحم فيها، وعندها شعر بالصفعة القاتلة، فأدرك أنّ والده، داخل قبره، يجهش بالبكاء تلك اللحظة، ولم يتمالك نفسه إلاّ

أن يشرخ السماء صارخًا: (اَبْن عُصيْرَةْ)، هزّ المحيط بتلك اللازمة التي لم تُحرّك ساكنًا فيما حوله، فلا رَجعُ رجل يُهوّن على قلبه، ويُثنيه عن استنجاده باسم عاصمة واديهم ـ كما اعتادوا فعله قديمًا ـ إذ لم يسمع أحدًا يردّ عليه مهوّنًا: (على حدّك يا اَبْن عُصيْرَةْ)؛ ليُوقفه عند حدود صرخته، ولا يضع قبضته الغاضبة شرقًا وغربًا على السواء، فتلك اللازمة قد انطوت مع رجال خلوا وعزّتهم، وهي التي حملته يومًا ما على ختان نفسه من قبل ودحضت عنه كلّ خوف، واليوم لا ناصر له يزبن قلبه الراجف لحظتئذ، وهي اللازمة التي تبثّ فيهم دمَ سادة الأرض وساقي طينها لا في دخلاء، مثل «بُو هاجر»، يراهم «حَمُود» اليوم وقد انقلبوا أهلاً للمكان والزمان!

عندما انتبه إلى وضاعته المخجلة، وخطفه الموقف إلى تذكّر وصيّة والده، أقسم من فوره أن يحقّق تلك الوصيّة، إذ لم يشأ لقلبه أن ينفرط في حزن قد يخذله إلى تقهقر ما؛ فانطلق ينهب الطريق باتجاه جبل «عَكْوَةْ اليمانيّةْ» حتّى اعتلى قمّته، ووجد عريشًا يتدلّى من سقفه حبل متين تفصله عن الأرض مسافة قدرها قامة ونصف القامة، ومن تحته يُوجد كرسي «غَزّالي» ذكّره بكرسي جدّته الخشبي الخاص الذي تقتعده في صباحات قهوتها، ولم يرغب في اجتذاب روحه إلى تلك الحيوات الماضية أكثر، كي لا تثقل خطواته فيجبن، وقد تُعيده الذكرى إلى ذلّ يهيب بنفسه ألاّ تكون عليه، فصرخ من جديد: (اَبْن عُصيْرَةْ)؛ لينزع روحه إلى شخصه المقدام، فأسرع إلى ذلك الكرسي يرتقيه، ثمّ سحب طرف الحبل وأحكم وثاقه على عنقه الذي يتطاول إلى الأعلى، ثمّ تابعت قبضة الموت الخطوة التالية، وفي غمرة ضبابيّة، بين حاجة متأخّرة للاستمرار في الحياة وبين حكم محتّم، تراءى له شبح، وقد عرف شخصه تمام المعرفة، كان يقف أمامه مباشرة دون حركة تنمّ عن خوفه عليه، وشعر بالموقف كأنّه الحياد بين العار الذي يتركه من خلفه في بلاد يتقاسمها الغرباء وبين كونه إنسانًا ينهار ويقتفي الأمل في

إنقاذه، فكابر أن يمدّ يده إلى ذلك الشخص أو يسأله الخلاص، حيث تذكّر رجال «عُصيْرَةْ» حين يجثو الواحد منهم أمام والده؛ ليأذن له أن يُبكر إلى الموت، وبذلك زاد من سخطه على نفسه وهي تتقهقر، راغبة في البقاء الذليل، لذا تجاهل ذلك الشخص القريب المحجم عن خطوة واحدة لإنقاذه ممّا قرّره، وأيقن أنّ هذه مشيئة والده العظيم، فأتمّ عقده مع الموت، وأنجز نهايته بشكل رائع يُذهب كلّ شائبة التصقت به في يوم من الأيام.

(٧)

في صبيحة «ليلة اَمدُقمْ»، أقبلت «شَرِيفَةْ» تُلبّي نداء الأمّ، فوجدتها غارقة في حسن بديع، وكأنّ عمرها لم يقرض من السنوات ما يدنو للسبعين عامًا، وكانت تقرأ جيّدًا صواب اختيار جواريها مفاتيح جمال مندثر، بعثت منابعه القديمة، فعند أوّل نظرة على الأمّ كادت ألاّ تتعرّف عليها؛ لولا صوتها الحادّ والمنطلق بعدد من التوجيهات الصارمة للخدم، أمّا وجهها فكان يقبض على ثائرة وشيكة تفجّر أوّلها في الجارية التي تركتها «شَرِيفَةْ» في العُشّة مجهدة على غير عادتها، وفي حال لم تعهدها عليها مطلقًا، وكانت قلقة ممّا جرى لها هي ذاتها، لذلك لم تُشغل نفسها بالسؤال عمّا حدث للجارية، واقتربت تجسّ ما يُمكن به تحقيق ارتياح ولو مؤقّت تجاهها، أمّا أمّها «هَدِيّةْ» فلم تخرج من عُشّتها، رغم أنّ خبر «ولد الهَيْجَةْ» قد انتشر سريعًا، وقد نقلت جثّته إلى عُشّة داخليّة شدّدت عليها الحراسة، للحيلولة دون الاطلاع على ما تراه الأمّ خاصًّا وسرّيًّا!

عندما دنت «شَرِيفَةْ» من مجلسها بادرتها الأمّ متسائلة: (يظهر أنّك يائسة من عودة غُبْرِي الليل...)، فتنفّست «شَرِيفَةْ» الصعداء إذ لم تُكاشفها حول ما ظهر في طرفها السفلي صباحًا؛ بل هزّتها بصوت حسير التودّد، إذ تكره فيها يأسها من رجوع رجل الغبار. عند ذلك وجدت «شَرِيفَةْ» في روحها رغبة قويّة لإبداء حماسها وأنّها لم تتذمّر

أبدًا من طول الانتظار، وتتأهّب معها، بذلك الحماس، كلّ أراضيها ودوابها، فهي مجمل الأسباب لحبّ الحياة ـ كما مدحتها الأمّ يومًا ـ، إلاّ أنّ الأمّ قطعت عنها تلك الرغبة وأضافت تقول: (سيكتب لك عذاب من المشي بين مزاقر القرية طول النهار...)، وصعقت من هذه النبوءة التي تفيد تأخّر إياب «غُبْرِي الليل»، وتحملها مشقّة المرابطة بين أزقّة القرية، لحمل الهواء على الخروج من تحت أسس البيوت، وسحبه إلى الروابي الجافّة، فيُحرّك الساكن من الأكمّة، ويمسح الطرقات الخالية ويُمهّدها لعابر أكثر فتكًا ترتجيه منذ زمن خلى.

كانت جثّة «ولد الهَيْجَةْ» قد اعتلت أكبر سرير جُهّز لها، وتضافرت سواعد العبيد في إزالة كلّ طمث لحقها، وقد وجّهتهم الأمّ ألاّ يكشفوا عن عورته أبدًا، فانهمكوا على أطرافه يضمّدون جراحًا لمعت شقوقها في جلده وآثار أورام متفرّقة في جسده هَزِلت، وقد تهدّل قُذاله متموّجًا، ومتناثرًا على عارض السرير يُمشّطه الهواء في غنج أثار غبطة العبيد، وما عاد للأمّ أن تعتمد على الجارية التي أفقدتها كلّ درايتها السابقة، وفي ذلك سرّ لا يظهر عليه أحد، فلا يتبادر إلى أيّ شخص يعرفهما سؤال عمّا حصل لـ «زَهْرَةْ» في هذا الوقت تحديدًا، ولماذا انتقلت كلّ مهامها إلى الخادم «مِسَاوَى» برغم خصوصيّة الرعاية التي كانت تُقدّمها للأمّ والتصاقها بها ليل نهار؟!

بعد الظهر خرجت «شَرِيفَةْ» ـ متخصّرة بالثوب المخفي ـ إلى خارج الدار لتُزاول بحثها اليومي عن أيّ نذير بالغبار، وحال تجوّلت بعض الوقت راعها خلوّ أزقّة القرية من أيّ كائن، وكأنّها أصبحت خاوية من أيّ نبض لوجود الحياة في هذه القرية العجيبة، هذه القرية التي أنتجت أبدع الحيوات عبر أكثر من مائتي عام خلت، وها هي قد تحلّلت من ليل رجيم أوّله سيل جرّار وطّأ لموت آخر شيوخهم، وخُتم بجريرة لا سابقة تُماثلها، ثمّ تتكشّف القرية بأزقّة يملؤها الهجير والخواء.

لم يُخالج «شَرِيفَةْ» شكّ في أنّ هذه الصورة التي بدت عليها معابر ومداخل بيوت القرية، ليست من صنيع الأمّ، فلا بدّ أنّ هذا الموت المستفحل هو أكبر لعناتها كردّ ماحق على الفعلة التي أقدم عليها رجال القرية، الذين رابطوا في بيوتهم، وأرواحهم يُثقلها وزر تتبرّأ منه السماء والأرض، فهم موثقون إلى لعنة لا انفصام منها، إلاّ أن يُعيدوا إلى «ولد الهَيْجَةْ» الحياة، وهيهات لهم الخلاص ممّا هم فيه! ذلك ما يُمكن للمتعجّب أن يقرأه من علم «شَرِيفَةْ» التي واصلت خطواتها في الأزقّة وحول أطراف القرية، دون أن ترى شخصًا واحدًا.

وهي في شغلها تُطارد أيّ لفحة هواء تدور في الجنبات، فترجو أن يسوقها القدر نحو التلال، كانت رائحة ما خلص منها تلفّ شمل مهابتها، وهي تسير بخطى وئيدة وحذرة في اقتفاء غايتها، فكانت ذات الرائحة تُعلّق في كلّ منعطف تأخذه، وتُتوّج كلّ نبتة ترقبها لترى في غصونها نشاط الرّيح واتجاهها، وقد أنست كثيرًا بها، وكلّما امتلأت رئتاها بغناها انبسطت روحها وتجاهلت الوحشة المحيطة. هكذا حتّى أتت على معظم الطرقات الرئيسة منها وخاصّة التي تفرّق القرية من الغرب إلى الشرق، وأكملت البحث في عدد كبير من الممرّات الضيّقة والفاصلة بين البيوت المقفلة بوجوم مطبق.

حين وصلت «شَرِيفَةْ» في مهمّتها إلى ميدان «قُنَيْدَةْ» حيث استطاعت أن تدفع بين قدميها تيّارًا يجول في تردّد واضح، كعادة غيره من التيّارات الصغيرة والضعيفة التي لا تُوقظ من الأرض سوى ما علاها من يابس هشّ؛ ولم تتمكّن من محاصرته التي تستعذبها دائمًا، حتّى لاحظت أنّ عددًا من نساء القرية يقفن في مجموعات صغيرة وموزّعة على منافذ القرية على الميدان، على غير عادتهنّ في الاختفاء الكامل في بيوتهن، وكن يرقبن معركتها الصغيرة مع ذلك الجويل الذي تفرّق من المكان، مخلّفًا قدمين صغيرتين تتشبّث أصابعهما بحذائها الخسفي، في حركة متحفّزة، حركة لا تُنذر بأنّ خوفًا يُكبّلهما هناك.

انتظرت قليلاً تتلفّت في جميع الجهات لتجد نظراتهنّ الوديعة جدًّا مصوّبة نحوها، ولم تر أيّة واحدة منهنّ تُبادل أُخرى حديثًا أو همسًا، ولم يكن في معيّة حشدهنّ أيّ رجل أو صبي أو حتّى طفل على الإطلاق، والعجيب في الأمر أنّهنّ من النساء المتزوّجات، وتعرفهنّ واحدة واحدة، وقد أيقنت أنّهنّ منجذبات لمعرفة سرّ ما تركه أثرها عاجًّا على القرية جميعها.

لم تتقدّم إليها أيّ امرأة، إذ بقي جميعهنّ في أماكنهنّ بصدور تتصعّد أنفاسها في مشقّة واضحة، ولم تدع لمطارق الخوف فيها مكانًا، حين حضرت الأمّ في بالها، فسلكت درب منزلهم مباشرة، دون أن تُبدي للخلف نظرة قد يجدنها نظرة قلق من منظرهنّ على ذلك النحو، وما كادت تتقدّم في عودتها حتّى وجدتهنّ يلتففن في صفوف متقاربة، ويسرن على أثرها، إلى أن دخلت دارهم واتجهت في عجلة إلى الأمّ تُخبرها بما يحصل من النساء، فوجدتها لا تُولي لذلك اهتمامًا، حيث كانت تُغني رعيل الصفوة في وادي «اَلحُسَيْنِي»، سادة الزمن الجميل، فتراجعت عنها وقد انقلب نظرها إلى أُولئك النساء فوجدتهنّ يجلسن جميعًا جوار عُشّة «حَمُود» وتحديدًا تحت السدرة، ولم تزد أيّ امرأة خطوة واحدة للدخول إلى مجلس العزاء، ورأت أغلبهنّ يتمسّحن بجذع تلك الشجرة في غير هُدى، مأخوذات إلى غرض خفي لا يُمكن لـ «شَرِيفَةْ» أن تعيه، ولا يُمكن لها أن تفتح مغاليقه العنيدة.

في اليوم التالي وعلى النحو ذاته، طافت في أزقّة القرية مقرونة بعبقها الفوّاح، ولم تكد تُقيم مشاغبتها الفاتنة بساقيها البضين مع جويل الهواء الذي لا يرتفع عن الأرض قدر ساق، حتّى انبثّت البيوت عن نساء أكثر عددًا من ذي أمس شاملاً بعضًا من الفتيات الأبكار، وتحرّكن على خطاها حتّى أتت دارها، فجثمن تحت السدرة إيّاها، يبلغن الغرض الغريب ذاته.. وعلى هذا المنوال عدّة أيّام، وفي كلّ مرّة يزيد عدد النساء؛ إلى أن خرجت كلّ امرأة بالغ في القرية، فتقرّ تحت تلك

الشجرة إلى ما شاء لها من الوقت، ثمّ تخرج إلى شأن بيتها الصامت، وقد توقّفت كلّ معالم الحياة، وهُجرت كلّ الأعمال، ما عدا ما يردّ المساغب عن الأطفال من مشرب وغذاء، فكانت يد «شَرِيفَةْ» مبسوطة لهم ولدوابهم، أمّا الرجال فلم يخرج واحد منهم على الإطلاق، إذ بقوا جميعهم صرعى، هاجرين كلّ الحياة، لا يُعرف لهم سبب، غير الذي أقدموا عليه من قتل «ولد الهَيْجَةْ»، وقد أثقلهم الذنب تمامًا، وبعجز شامل؛ حتّى لقضبانهم التي ضمرت في واجبها، ولم تعد تجد منهم ملامسة إلاّ عند قضاء الحاجة.

(بلا شكّ أنّها لعنة الأم، وهي القاضية. . .)، هذا ما استسرّت به «هاجر» على «هَدِيّةْ اَلسّاحِليْ»، وهي تحكي لها عن حال الرجال، هذا في معرض جوابها عن أسباب وجودهنّ المتواصل تحت تلك السدرة، دون رادع ينهاهنّ عن ذلك، ولم تعرف «شَرِيفَةْ» من أمر النساء شيئًا حتّى أخبرتها أمّها «هَدِيّةْ»، وهي تُغادر القرية، بأنّ غضب الأمّ ربما نال حتّى من النسوة. . هذا و«شَرِيفَةْ» تُكفكف عن خدّ أمّها دمعة حارّة، وتشعر بأنّ نظرها يتمسّح بتلك السدرة العتيقة.

(٨)

كانت الأمّ قد رتّبت موتها هي الأخرى، فبعد أن عشقت قديمًا لتخسر نظرها، ثمّ لا ترى جثمان عشيقها «اَبْن حُسَيْنَةْ»، حيث تنازلت قبل أربعين عامًا عن بصرها للقوم الموالين لقاء قوامتها عليهم وعلى وادي «اَلحُسَيْنِي»، فهي بعد تلك العقود من الزمن، تعود في حاجتها حين شعرت بأنّ عشيقها يبعث من الأبد يوم دخل القرية بسمة أُخرى هي «ولد الهَيْجَةْ»، فتُعالج كلّ عائق أمامها قد يمنعها من هذا القادم بربيع حبّها الأوّل؛ فتأمر ابنها بالموت لتُقايض بجثمانه نظير عودة بصرها، إلاّ أنّها غفلت عن الكتاب الجديد، فما عادت لها قدرة على إدراك ما قضاه هذا الكتاب، وما خبّأه عنها، وهي التي كانت تُناسل تلك الأقدار المتوالية، وكانت تستنزف كلّ عتادها في الحياة، لتتحقّق أمنيتها، والتي كانت في زمن مضى من قبيل المستحيل.

ـ (حقًّا لم يعد الكتاب بيدي. . .)، هكذا حدّثت نفسها لحظة وقع خبر القتل على قلبها كحمأة من حديد، شظّته نتفًا نتفًا، فلم تسعها الأرض ولا السماء مخرجًا من مصابها، ولم تف حنكتها الفذّة بفعل شيء، ورأت أنّها تتساوى في الغلّ والحقد مع الفاعلين، الذين لم يمنعهم شرف واديهم ولا رفعة «ولد الهَيْجَةْ»، فنالوا من صميم قلبها حقًّا، وهي بذلك قد خسرت كلّ شيء، وعليها أن ترحل دون عين تبكيها، ولا قلب يُبقي عهدها الزاهر؛ لذلك هي ستضرب ضربتها

النهائيّة والقاصمة، ثمّ ستُغادر، وكم تمنّت لو أنّ ذكرها سيظلّ طيّبًا كما هو ذكر «بِشَيبشْ» الماثل في جوارحهم دون توقّف.

في مساء اليوم الثالث على موت ابنها، كانت تنفرد بنفسها في انتظار مبعوث من جبل «اَمدُقمْ». حين دخل أخبرها أنّ ابنها الشيخ «عيسى الخير» قد دُفن بواديهم، ولم يتمكّنوا من حمله معهم؛ لأنّه تبيّن لهم أنّ هناك شخصًا واحدًا مازال يستحقّ حمل لواء وادي «اَلحُسَيْنِي»، وأنّه ـ ذلك الشخص ـ سيرضى بما سيُعرضه عليه هؤلاء الموالون لقاء دفن الشيخ فوق تل «شَارِقْ»، على أن يظلّوا على عهدهم السابق لوادي «اَلحُسَيْنِي»، وسيحفظون له سرّ شخصه ما بقي حيًّا، دون أن يطّلع عليه أحد سواهم، فاستمعت لكامل الرسالة، ثمّ غادرها تاركًا لعينيها ما تعاهدوا على حفظه طوال عقود طويلة من الزمن. لحظتها لم تدع لروحها أن تتعطّش لأكثر من حزنها فانكفأت تمامًا في عزلة تسحقها حتّى الصباح، حيث قضت الليل تذرع اللعنات واحدة تلو الأخرى، وتشرخ صدرها بالأسئلة: (عجبًا لله.. كيف له أَلاّ يُقارع ببطشه مَنْ يسوسون كتابه وعباده كما يُريدون؟!.. أما يذكر في عرشه بأنّ هناك مَنْ يأمل مُضاهاته في الجبروت؟!...)، وقضت في فجور الألم وتعنّته ليلاً طويلاً؛ فحينًا تتحسّس روحها تَعْدِلُ في جنب الله، وحينًا تُجانب إيمانها بتذكر مصابها القديم حين فقدت زوجها الشريف «مِشَاري» ومحبوبها «ابن حُسينة» في ليلة واحدة، وقد شقّ عليها أن تسعد بقيّة حياتها بضوء عينيها العائد والذي لم تظنّه معها، إذ باتت تغرسه في حلكة ذلك الليل حتّى الشروق.

أصبحت بصيرة ودون أن تُخبر أحدًا، ترى كلّ شخص كانت لا تعرفه طوال عقود خلت إلاّ برائحته وصوته، فرأت الطلعة البهيّة لـ «هَدِيّةْ» و«شَرِيفَةْ»، واطّلعت على ضخامة الجارية «زَهْرَةْ» الملقاة على قَعَادَة مجاورة بلا وعي، ورأت صغار المعز والضأن وهي تتمسّح

بـ«شَرِيفَةْ» وتتقافز خلفها وأمامها، ورأت في الأيّام التالية تلك السدرة الفارعة ومن حولها نسوة كثر يُنازع صدورهنّ نَفَس خشن، وكان الجميع يتحرّكون من حولها كما كانوا في عماها، فلم تلمس أيّ تبدل في طريقتهم معها، ومع احتياجاتها.

واستطاعت عند مساء ذلك اليوم، وتحت وطأة كمدها العظيم، أن ترى من «ولد الهَيْجَةْ» ذلك القُذال المتغنّج في نسيم تهادى لدقائق معدودة، وأن تقترب لمسجاه في يقين منهم أنّها لا تُبصر شيئًا، وتلمسه تحقيقًا لرغبة خمدت إلى الأبد، وما كان لها أن تفعل ذلك إلاّ لتُقرّع روحها أكثر وتُرهقها بشكل متواصل، وكأنّها تُجرّمها بذنب لا مغفرة له البتّة، ثمّ أعلنت دفن الجثمان إلى جوار ابنها أعلى تل «شَارِقْ»، وهي بذلك تُؤسّس منبرًا رفيعًا، يظلّ في العالمين من بعدها مقدّسًا، ومهوى الطامحين إلى الزهو والسمة العالية.

بقيت الأمّ تُخفي أمر عينيها المبصرتين، وقد قلّت في صحّة جسدها جرّاء انهيار روحها وحنينها إلى موت بليغ، إلى موت كان إلى وقت قريب يعزّ عليها أن يحلّ. وكانت «شَرِيفَةْ» تُباشر حلمها في الاقتراب من كشف هذا الهوان الذي يخطف وجه الأمّ، ويأخذها كثيرًا إلى أشواك ندم لا تعرف له أسبابًا محدّدة، وطالما حضرتها وهي تزمّ شفتيها في حسرة حارقة، فيُقربها ذلك الحضور أكثر من اكتشاف أمرها، فعندما تُبصر الأمّ سؤالاً في عيني «شَرِيفَةْ» تعود إلى سيرة تتمنّاها منها، وترسم ابتسامة راضية عن رائحتها الجميلة. هذا والفتاة تكسر حاجزًا عريضًا بينهما، حين تُنقب عن سرّها، وعن سرّ تلك الابتسامة التي تزول بعبوسها لحظة تدنو منها في سؤال عمّا يكدر صفوها الذي صار سمتها الملازمة، ولم تتركها على أيّ حال إلاّ وتُفاجئها بحضورها في حال آخر وفي وقت لا ترغب أحدًا فيه، وهكذا إلى أن رمقتها «شَرِيفَةْ» ذات مرّة تُفرّق جيّدًا بين صغار الماشية حين اختلطت على الجارية

«زَهْرَةْ» الخرفة، فساعدتها في ذلك دون أن تُدرك الجارية شيئًا، في دلالة واضحة على أنّها تُبصر لا محالة! وبذلك وجدت «شَرِيفَةْ» نفسها ظافرة بما تُريد، فهي حقّقت من دون الجميع علمًا خطيرًا، مثلها مثل والدها «بِشَيبشْ» حين كشفت له الأمّ عن حاجة جسدها التي لم تُقض في العمر إلاّ مرات معدودة.

(٩)

صارت القرية تختلج بالنسوة المتشهّيات في شبق مريع، حين هجر الرجال مضاجعهنّ منذ فعلتهم بـ«ولد الهَيْجَةْ». كنّ يتحلّلن من فخاخ الرغبة بتعفّر أجسادهنّ عند جذع السدرة ذاتها، وما كان لواحدة منهنّ أن تسأل عن تلك الحالة الغريبة، فلم يجدن غير هذه الشجرة تُخفّف عنهنّ حدّة الاشتهاء العارم، فما إن تستوي إلياتهنّ من تحتها، حتّى يشعرن بسيل راعف من النشوة، يتموّج بين فخوذهن، ويتسلّل إلى فروجهنّ في حركة لولبيّة ناعمة، تاركات له حرّيّة فيما تبقّى من معارجه فيهنّ، وإن اخترق جذوة أعمق وإلى أبعد ما تتوقّعه المرأة منهنّ، يكون قد لامس أدقّ الشغاف، واقتلع من الجوف جذر الرغبة، فتصير الواحدة منهنّ إلى كفايتها من الشبع، ثمّ تنهض إلى الأعمال التي عزف الرجال عن أدائها نهائيًّا.

لقد انقسمت فرق العمل إلى عدّة مجموعات من النساء، حيث رتّبن شؤونهنّ بحسب دور كلّ مجموعة في البقاء تحت الشجرة، فعدد منهنّ يُبكرن لقضاء الدور قبل الأخريات، وهكذا في تتابع مستمرّ، فكلّما انتهت مجموعة من حاجتها، انتقلت إلى عمل معيّن، وأتت غيرها، وبالتالي وجدن أنفسهنّ يعدن إلى العمل اليومي كما كنّ في السابق قبل عهد «محمّد المقروع»، وعادت المساواة بينهنّ، إلاّ أنّ ساعات العمل زادت عن سابقتها، وقد استغلّت الكبيرات منهنّ ذلك

السيل الكبير، وتحديدًا «ليلة امْدُقْم»، وما لحق البلاد من كارثة مزلزلة، فزرعن زروعهنّ وحصدنها دون أيّ ساعد ذكوري، وعادت الفتيات في أمن مثالي يرعين الماشية ويعلفن لها، وذلك برعاية كاملة من «شَرِيفَةْ» التي بقيت بشخصها الكريم بينهنّ، يقدّرن مكانتها، ويملأن صدورهنّ من شذاها الفريد.

في أحد الأيّام وفي محاولة يائسة لإعادة رجال القرية إلى سيرتهم السويّة، أعلن بعض النساء أنّهنّ سيتوجّهن بالدعاء إلى الله أن يُعيد إلى الرجال ذكورهم، وأن يُلهمها الانتصاب عاجلاً لا آجلاً، عند ذلك أعلنت «هاجر» رفضها هذه الفكرة بدعوى أنّها إسفاف بجوهر العبادة التي تعلّمتها من زوجها «محمّد المقروع»، وأعلنت أنّ محنتهنّ ليست من قبيل الضرّ الذي يُمكن كشفه بالدّعاء، وأنّ ما ينوين القيام به بدعة صرف. وعندما كان الرأي للغلبة من النساء، اعتزلت «هاجر» جموعهنّ لتقضي نصيبها اليسير من الوقت تحت السدرة، وتذهب في شؤونها الأخرى بعد ذلك.

مساء وتحديدًا قُبيل الغروب، كانت أكبرهنّ سنًّا تؤمّ بهنّ الصلاة وترفع صوتها بالدعاء في مسجد القرية، وأخريات من خلفها يُعزّزنه في صوتهنّ بقول واحد: (آمين. . .)، وقد امتلأ المصلّى بهنّ، حتّى ضاق بأجسادهنّ، وقد تمّت الصفوف بالفتيات اللاتي أتين يشددن من أزر أمّهاتهنّ وعمّاتهنّ وخالاتهنّ، ليُحيين أملهنّ عند الله وأن يسمع شكواهنّ المريرة، هنّ أيضًا، فيُقبل عليهنّ الرجال ولا يعزفون عنهنّ كما فعلوا مع أمّهاتهنّ المهجورات.

وفي غفلة من المبتهلات، ومن خلف سرادق مصلاهنّ كانت «هاجر» ترفع هي الأخرى كفّيها؛ مؤمنة بأنّ يد الجماعة ميسّرة إلى الخير، وكانت تخفت بالصوت: (آمين. . .) كيلا تتكشّف عن رغبتها عند جمع المتضرّعات، حيث كانت تُعارض عملهنّ هذا؛ حتّى وجدته من قبيل صلاة الاستسقاء، كما أقنعت نفسها بذلك، فسّرت بالدعاء أن

تهطل ذكور الرجال عليهنّ أوتادًا مطيعة، فتعينهنّ على عبادة مقبولة في أسِرّتهنّ الخالية.

كلّ ذلك لم يكن خافيًا على «شَرِيفَةْ» التي ظلّت غير بعيدة ترقب ترانيم الدعاء المدجّج ببكاء يُلحّ في الفضاء أنّهنّ ذوات حاجة لا مُلَبّ لها سوى قوّة خارقة كانت للأمّ ملكيّتها المطلقة، واليوم القوّة ذاتها تنفذ إلى أطراف «شَرِيفَةْ»، وستسير بالنهج ذاته إلى أن يُكتب لها ما تُريد.

في ضحى اليوم التالي على تلك الصلاة الفريدة، كانت الأمّ تقبض على يد «شَرِيفَةْ» التي رأت أنّ الموت ثالثهما حين خرجتا من الدار، وهما في الطريق إلى تلّ القرية، وهناك حين وصلتا كان الأفق الغربي يدفع نحو الشرق هالة من الزوابع السوداء الضخمة جدًّا، وقد بدت في جموحها كجبال تُطوى في عجلة خاطفة، فتسحق كلّ ما هو في طريقها، وكانت تقترب شيئًا فشيئًا، ولا يراها سواهما.

قبضت الأمّ أكثر على ساعد الفتاة وقالت لها: (اليوم يا شَرِيفَةْ يبدأ يومك العظيم.. فإذا صار نساءُ قريتك يرقدون تحت اَغراب، ورجال قريتك يخدمون الاَغراب.. فاخرجي من عُصيْرَةْ وجبل عَكْوَةْ في رَجاك.. ولا يفارق ذاك الثوب خصرك...)، ولم تُكمل قول شيء هو أقلّ أهميّة ممّا ذكرته، كانت تنوي بيانه لها؛ حتّى خرج من فيالق الزوبعة رجل تراه «شَرِيفَةْ» يقفز عاليًا فتعلو معه الزوبعة، ثمّ ينحرف فتتبع مساره الذي يتخلّل أشجار السمر فتنخر أساسها، متعقّبة حفر قدميه أمامها؛ إلى أن اخترق القرية من منتصفها، فأتت الزوبعة على البيوت التي هناك، فحملت قواطعها وعرّت العشش ممّا يعلوها من حشائش وألحية شجر «الأثل»، ومازال يُواصل الرجل تقدّمه حتّى وصل ميدان القرية وراح يدور حول جسده، فتتبعه الرّيح في كلّ حركة يُبديها، وراحت تعصر المكان وفق حركته الدائريّة، وتشرخ أديم الأرض ولها صفير عصف مدمّر، وتركها هناك تلوب في هياج لا يستكين.

وفي غمرة ذهول «شَرِيفَةْ» كان يقف بين يديهما، يقبّل رأس الأمّ

ويعرّف بنفسه: (أنا غُبْرِي اللّيل واَعتذر عن تأخّري عنك كلّ هذي المدّة. . .).

مدّت الأمّ يدها وصافحته في سرور لم يُلاق قبولاً من «شَرِيفَةْ» التي تسأل في صمت عن القرية، فقد غابت كلّ معالمها، ولا ترى منها أيّ منزل أو شجر أو إنسان أو دابّة، كأنّما ابتلعتها الأرض الغاضبة!

وفي تمام الذهول أيضًا، بدأ جلاّب الغبار يحفر قبرًا جوار قبريْ الشيخ و«ولد الهَيْجَةْ»، وفي دقائق معدودة كان يدعو الفتاة للابتعاد بعد أن جذبتها الأمّ إلى حضنها الفيّاض وقالت لها: (أنت بنت أرض. . فصرت بنت رجال. . .)، وفي ذلك إشارة إلى أنّها انتشلت من أرض ما حين سقطت من بطن أمّها، فحوّلتها إلى بنت رجال، عندما أعلنت أنّها بنت «بِشَيبِشْ» الذي لم يكد يذرع بألم شاقّ حسرته من هذه البنوّة، حتّى ينزعه حسّه النابه إلى أنّها ستكون ذات شأن عظيم في المقبل من الزمن؛ لذلك وازن بين عدم نسبها إليه وبين مكانتها القادمة، هذا حين ودّعها بلحس قدميها ورحل، إذ كانت غرّة لا تفقه شيئًا في ذلك اليوم البعيد.

ارتعدت من قولها: (أنت بنت أرض. . فصرت بنت رجال. . .)، فآثرت أن تسحب جذعها من يديها ولا تنظر في عينيها اللتين تتّقدان لقول الحقيقة أكثر، وتبرقان بحاجتها لأن تُظهر «شَرِيفَةْ» علمها بنوزهما الذي عاد إليهما، إلاّ أنّ «شَرِيفَةْ» لم تفعل شيئًا، وظلّت تُلقي نظرة على الأرض، وأُخرى إلى جبل «عَكْوَةْ» الشاهق أمام أكاليل الريح السوداء.

وكأنّ العالم جميعه شاخص في المشهد، إذا هما على التلّ، حين وضعت الأمّ بحركة بطيئة يديها على كتفي «شَرِيفَةْ»، وأبقتهما قليلاً حتّى شدّتها من جديد إلى صدرها المحشور ببكاء لا تعرف «شَرِيفَةْ» من أيّ قفار يأتي جائعًا إلى تلك الضلوع المحتدمة، ولا تعرف إلى أيّ هزيمة ينتمي، فشرخها ضعف الأمّ، حين رأتها لأوّل مرّة بحال كتلك، وقبل أن تصيخ إلى جرحها أكثر، ألحمت جسديهما معًا انتفاضة مريعة؛

لتترك لكلّ شراكاتهما في الحزن والوداع والفقد مسلكًا يتقاسمان نوافذه بينهما، إلى أن فاض من الأمّ آخر وريد للبقاء حين طلبت منها برجاء لا حدود للأسى فيه: (بالله عليك يا شَرِيفَةْ لا تفرطين لهم في عيونك. . .).

ماذا يُمكن أن تعرف «شَرِيفَةْ» من هذا الرجاء الأخير، وهي التي لا تعرف شيئًا عن حجم الظلام الذي عاشته هذه الأمّ، ولا تعرف سببًا لتلك العتمة الطويلة، وما الذي سيدفعها إلى التخلّي عن نور عينيها! وهل هذا ما فعلته الأمّ ذات يوم! وأيّ قيمة في الحياة نقدت لقاءها العزيز، هل هذا كان لقاء قوامها على أمر القبائل وقيادتهم؟!

بثّت تلك الأسئلة المحيّرة خلال موجز مفاجأتها الخاطفة، ولم تلحظ أنّها سرقت عنوة إلى تلك الأسئلة؛ ليتحلّل منها جسد الأمّ كما يتحلّل النهار من لفافات الليل، فما كان للحرج أن يُشقيها أكثر أمام عيني الأمّ، حتّى شعرت كما لو أنّ أحدًا يدفعها من المكان، إذ شدّت الأمّ من ملابسها إلى جسدها الضامر، ثمّ خلّتها دون توسّل، حين زمجر في المكان ذلك العاصف المستدير، فتراجعت هي إلى الخلف قليلاً، مفسحة لذلك العاصف أن يتوسّط قبرًا مفتوحًا، فيتعامد منه إلى السماء في علوّ لا نهاية له، كما بدا لها، ثمّ تيقّنت أنّه يحمل جسد الأمّ عاليًا وبتؤدة متقنة، وقد استسلمت السيّدة الأمّ إلى ذلك، وكأنّها في تصالح كامل مع ما يجري، ورأت ملابسها تبدّلت إلى بياض مشعّ، ثمّ علا في المرتفع صوت صلاة، تتالت طقوسها من خلال آلاف الحلل البيضاء تراءت لـ «شَرِيفَةْ» أنّها لأشخاص يصطفّون، أسفل التلّ، في الصلاة على المتوفاة، وبعد ذلك انحدر النعش مضيئًا في هدوء حتّى استوى في القرار، وصار المثوى النهائي عندما شاهدت «غُبْرِي الليل» يُسوّي التراب على القبر ويغرس من فوقه شتلة سمر موهوبة الحياة.

لم تُنزع «شَرِيفَةْ» ممّا عاشته في تلك الساعة إلاّ حين أخبرها جلاّب الغبار بأنّ عليها العودة إلى الدار، فالليالي القادمة بدءًا من ليلتها

تلك ستشهد عواصف مطيرة وأخرى رمليّة، ثمّ جذب من أطراف القرية زوبعته الهائجة، وأكمل طريقه نحو الشرق، عابرًا قرى الوادي الأخرى، لا تصدّه بعد ذلك سوى جبال «ساق الغراب» الواقفة هناك منذ آلاف السنين بلونها الداكن الموحش، وباسمها المكتسب من شؤم ادّخره الزمن ليوم كهذا، (ولم يُكتب لذلك الرجل من بعد ذلك أيّ إياب للقرية، ولربما لم تُكتب له حياة أيضًا.. من يدري؟!)، أثارت «شَرِيفَةْ» هذا التساؤل فيما بعد وحيدة بسكينة الجبال، حين أذنت لنفسها أن تتحسّر قليلاً على حال قريتها الحطام، وهي تُقارنها بجبال «ساق الغراب»، حيث وجدتها لا تقلّ حالاً عن منعتها الجبّارة على مدار مئات من الأعوام، إذ طوّقتهم مثلها بالأمن والسكينة. وحين انتقل العهد إلى رعيّة أقلّ شأنًا، تفشّت فيهم المناقص وسمحوا لغيرهم الدخلاء بأن يُقيموا فيهم موازين مختلفة، فتبدّلوا إلى هويّة مسخ، وأقدموا على ما أقدموا عليه من ذنب كبير، وكذلك جبال «ساق الغراب» التي بقيت في تماسكها المنيع حتّى شقّتها الخيانة بين الأحلاف، فانفلق حجرها عن حديد قوم لا يُوقفهم عن سحل النساء ولا عن جزّ رؤوس الأطفال شيء، فصاروا إلى ما صاروا إليه، بعد أن أشفقت تلك الجبال من ضيم تلك الأفعال المهولة، وانكفأت إلى جمودها العتيق، تاركة لهم سوء تدبيرهم في الحياة كيفما شاء القدر الحديث.

بعد شهر تقريبًا من حادثة رحيل الأمّ، والرجال في بيوتهم لا يظهرون على أحد، أُشيع بين النساء أنّ هذا الخير الماثل في الأمطار الماضية، وما سبقها من عواصف رمليّة، إنّما كانت كرامة أُولى للمؤيّدين بنصر الله على الأمّ، فحين غادرتهم إلى الأبد، انجلى عن القرية خبثها، واستطاع «محمّد المقروع» العودة إلى القرية وفي رفقته الكثير من أعوانه، بعد أن اطمأنوا إلى موت «ولد الهَيْجَةْ»، الذي لم يعد في آخر حياته وفيًّا لمن كفل يتمه وقام بتعليمه وحمايته، كما أنّ

الإمارة لم تُباشر أيّ سؤال عن سبب قتله، رغم أنّها اطّلعت على أسماء الفاعلين، وأُشيع في القرية أنّ الله عجّل بجزائه نظير نكرانه لمن ائتمنه يومًا على دعوته الصادقة المبشّرة. وقد عاد المقرئ الأوّل وفي معيّته أعوان كثر، دخلوا مُتخلّقين بروح الفاتحين الرحيمين، ولا يتوقّف دورهم عند حدود الدعوة والوقوف على حاجات الأرض والممتلكات، بل وحتّى عند حاجات أجساد النساء، فحينما أطلعت «هاجرْ» زوجها المقرئ على حال النسوة في القرية مع تلك السدرة، لم يمض على الدعوة الرحيمة ـ كما أعلنوا مسماها ـ في القرية سوى أسبوع، حتّى اصطفى كلّ رجل من أعوان المقرئ لفراشه أربعًا من النساء، يُعلّمهنّ أنّ في المطارحة توثيقًا أكبر لصلتهنّ بالسماء، وأنّ خضوعهنّ لهم هو مرضاة لله أوّلاً وأخيرًا، فخنعن لهم في يُسر تام، وقَبِل كثير من النساء بالطلاق من رجال القرية، وملن إلى شراك القادمين بهدايتهنّ وعتقهنّ من نار جهنّم، وكان في هذا دليل قاطع على قبول الله لصلاتهنّ المشتركة تلك. وليبقين صادقات في توبتهنّ انصرفن عن كلّ شؤون الحياة، قارّات في البيوت، تنفيذًا لهدي المقرئ وأعوانه.

كما نادى «محمّد المقروع» في رجال القرية أن يخرجوا من بيوتهم، فالسماء قد باركت الانتقام لها من أعدائها ومنهم «ولد الهَيْجَةْ»، وليس من دواعي الرحمة بهم أن يبقوا هكذا حبيسي بيوتهم، وعليهم أن يرعوا مواشيهم، وأن يحرثوا أراضيهم، وأن يُحقّقوا المصلحة الأولى للإمارة وهي التسليم لها بالأمر، فقد أعانتهم على تجاوز محنتهم. أمّا معضلة ذكورهم فيُمكن معالجتها بزيادة الزكاة والصدقات وإعانة الدعاة في عملهم، والله لن ينسى لهم ذلك، حين يدّخره لهم في خزائن الآخرة، وحتمًا سيخلّصهم الله من بوار قضبانهم، فسلّم الرجال في القرية بذلك كلّه، وخرجوا في أمل واحد أن يحرثوا البلاد، أمّا حرث أجساد النساء ـ بحسب اعتقادهم ـ فقد انتقل من دونهم إلى الأصلح والأجدر منهم.



(١٠)

عندما جرت الأمور للدعوة الحديثة في القرية على ذلك النحو، ولمدّة شهرين انقضت، كانت النساء يتهافتن على مرضاة السماء من تحت المقرئ وأعوانه، ورجال القرية ينقّبون وجه الأرض لزيادة حسناتهم بزكاة المال، عند ذلك رأت «شَرِيفَةْ» أنّ الأمّ كما صدقت بعتمة عينيها من قبل، فقد صدقت بنورهما أيضًا، وعليها الآن أن تنطلق إلى عرشها وحيدة، لا يُرافقها في مناها أحد، فالجارية «زَهْرَةْ» صارت ربيبة الأزقّة دون جدوى من إرجاعها إلى الدار كلّ يوم، وربطها إلى الوتد الخاص بها، فـ «شَرِيفَةْ» لا تغفل عنها في شغل حتّى يفكّ صغار القرية وثاقها.

خرجت «شَرِيفَةْ» من القرية، وفي طريق لا ترصده عين، راح نظرها يتعلّق بجبهة جبل «عَكْوَةْ اليمانيّة» حلمها الأبدي، إلى أن تمكّنت من الوصول خالية من كلّ شيء، عدا حمل روحها من النشوة حين استوت على قمّته، ثمّ مدّدت قامتها الممشوقة عليه، وراحت تُقلب جسدها على جلموده الضخم، الذي ينبسط منذ آلاف السنين، لا يُقارعه في الصمود شيء، ولا يُنازعه في المكان مخلوق، وهي الآن تبدأ مناصبته الخلود، وتخترق مملكته الأبديّة، فتشقّ من تاجه عرشًا لها، وتخترق تحصيناته، فتلك بلادها من تحتها، تراها قبضة من ماء وطين ستُعيد تشكيلهما كما تُريد، هي في لحظتها تلك موقدة الروح إلى

طلائع الشرف الجديد، ولن تقبل بأقلّ ممّا ترومه في خططها الناجحة حتّى لحظتها تلك.

تجول بنظرها إلى جانبي الجبل فترى من الشرق جبال «ساق الغراب» وقد اعتلتها سحب داكنة تُنذر بمياه جرّارة ستنحدر إلى الأودية، ثمّ تعود بنظرها إلى قدميها وتتبع خطوتها الصاعدة فتقرّ عند البداية حيث بلادها المتناثرة، التي تقاسمتها أياد منكرة، ولاحت لها قطع متفرّقة من الحقول التي ما فتئت يداها تعبق برائحتها الزكيّة، فلمست الجبل بكفّيها البضّين، وكأنّما تسأله أن يستنشق عبق هذه الأرض الجليلة بمن ربّاها إلى الخضرة مائتي عام دون كلل، وتسأله في روحها بحكايته القديمة مع أخيه جبل «عَكْوَةْ الشامية» التي سمعتها نقلاً من الأجداد، إذ كانا جبلين صغيرين، وكانت الجبال تحجّ كلّ عام إلى مَكّة مرورًا بهذا المكان، وفي عام من الأعوام، وفي رحلة العودة من مَكّة نامت الجبال هنا، وقبل الفجر غادرت المكان تاركة طفلين من أطفالها، هما «عَكْوَةْ الشامية» و«عَكْوَةْ اليمانيّة»، وبقيا هنا مخلّدين لتلك الرحلة الغابرة. وكأنّ الزمن يمضي لغير الجبال التي لن تعود بعد ذلك اليوم إلى حجّها القديم، فتسأل «شَرِيفَةْ» الجبل بقصّته الخالدة وأخيه، أن يكونا شاهدين على مائتي عام قضت لأهل «عُصيْرَةْ» في هذا الوادي. وتُوقد روحها بالسؤال: (ما ضرّ هذا الجبل وأخاه في شهادة لقاء ما حفظه أهل هذا الوادي لهما من قصّة تواترت من دم إلى دم طوال آلاف السنين دون أن يجلو من حقيقتها شيء؟).

ودّت لو تصرخ في هذا، لو تقبض بتلابيبه، لكنّ الجبل هو الجبل، كالمستقرّ على عرشه لا يرى فوقه أحدًا، ولا يُدني إلى شموخه ما هو أقلّ، فغيّرت مجرى روحها وبهجتها إلى استدبار بلادها، والتفكير بأنّها قضت من العمر الكثير، ممّا يجعلها راضية بما وصلت إليه مع الأرض والسماء في وقت واحد، وعليها الآن أن تنتخب نهايتها بالطريقة المتاحة والبعيدة عن كلّ ضوضاء، هذا وهي في لحظتها تلك

تُتوّج نفسها ملكة على هذا الزمان والمكان، فلا يُوجد بعد اليوم شخص سواها يستحقّ هذا المنال الأعظم.

كانت تُفكّر في ذلك وهي تترك خلفها قرى وادي «اَلحُسَيْنِي» وعاصمته «عُصيْرَةْ»، وتقدّمت إلى عريش ضخم تعجّبت من تشييده هناك، وكأنّه انبثق من هامة الجبل أمامها فجأة، فلا شعور لها بمدّة الوقت الذي استغرق لتعي ما تراه، وقد شعرت أنّه من صنيع الأمّ التي ما كانت لتُوصيها بالإقامة في الجبل كملكة متوّجة إلاّ وهي تعرف أنّ عريشًا هنا ينتظرها، وحين اقتربت منه لم تكن لتُؤخّر خطوة واحدة متردّدة إلى فعل آخر، إذ لم تجد في روحها عند اللحظة ذاتها ما يُدنيها إلى رأي آخر غير التقدّم. دخلت العريش الخالي إلاّ من سقف متين بالسعف وجذوع شجر «الأثل» لا تتخلّله الشقوق، وراءها حبل يتدلّى من عل، وأسفله أرضيّة مستوية كأنّها قُدّت من ظهر الجبل وعليها كرسي خشبي، فارتّجت روحها برعب هائل، حيث شعرت أنّ الأمّ تُحيط بها من كلّ جانب، أنّها تدعوها حقًّا للموت، وللخلاص قبل أن تقبض على جسدها حاجة قذرة لا يقضيها لها سوى رجال أغراب.

اشتعل بها سؤال كلهب يشوي جوفها: (أيّ ملك أنا سيّدته، وهذا الموت يأتي بيد السيّدة، بدلاً عن مخاوفها من أن يُسلب من عينيَّ بصرهما؟!)، ولا يُرضيها مذهب روحها الذي هو الآخر يقترح إجابة واحدة: (منالك هو أن تكوني فريدة الزمان والمكان فتختارين ـ كسادة الوادي ـ موتًا خالصًا للمجد وليس سواه.. ليس سواه)، كرّرت أن لا شيء يَعْدِل المجد الذاهبة فيه، ولا ملذّة واحدة اشتهتها غير أن تُعيد الوطن نساء ورجالاً قضوا. هذا حديثها لنفسها وهي تخطو إلى أسفل ذلك الحبل، ثمّ ارتقت الكرسي، وشدّت عنقها إلى المشنقة، وأفلتت جسدها ليُطقطق سقف العريش، وينهار من فوقها حمل كبير وثقيل لم يمسسها بضرّ، حين انبثّ أحد جوانبه جوارها. تحسّست ذلك الحمل فإذا هو جلد جمل ضخم كان موثوقًا بشكل جيّد إلى أحد أطراف

السقف، ولحظة تدلّت «شَرِيفَةْ» بكامل جسدها بقرت تلك الكتلة من المنتصف بطرف الحبل الذي كان يُطوّق عنقها، وتناثرت من الجلد أموال كثيرة تفرّقت على أرضيّة العريش، فأدركت فورًا أنّها حقًّا القيّمة الأولى على وادي «اَلحُسَيْنِي»، وأنّها بذرة الوطن الذي لا يموت على الإطلاق، وأنّ هذه الأموال هي التي جمعها الشيخ والأمّ ذات يوم. وكان لها أن تعود عن فكرة الموت التي ضلّت الطريق عن روحها تمامًا، وبقيت على يقين بأنّها في كنف الأمّ باقية، فما حدث هو محض تدبيرها وخلاصة إرادتها.

حريٌّ بها الآن أن تُحافظ على كلّ أملاكها التي لا تُحصى ولا تُقدّر بثمن، فيجب عليها أن تُحرّك نوازعها في الكشف عن النجاة، لتُواجه تلك القوى الدخيلة، وتقف في نحورهم، تُناهض إدارتهم التي تستخفّ بأعرافهم وتقاليدهم، وعليها أن تُقوّض من رماد الرجال جحيمهم القديمة. هذا ما عزمت عليه بعد أن أعادت كلّ شيء إلى مكانه، فرتقت الفتق ثمّ خبّأت جلد الجمل بما يحتويه في زاوية من العريش وجدتها أكثر انخفاضًا وقابلة للتغطية، ثمّ رصّت من عليها أحجارًا لتطمس كلّ أثر قد يشي بوجود شيء هناك، وعلّقت الحبل إلى سقف العريش الذي عالجته من جديد، وذلك لتوقّعها وجود احتمال آخر مفاده أنّ واضع المال غير أهلها، إذ كانت تتساءل: (ربما.. من يدري؟!).

وتتالت زيارتها لذلك العريش، فكانت تصعد الجبل كلّ صباح وتنزل إلى القرية ليلاً؛ لتتسقّط أخبارها وما استجدّ فيها، فعلمت أنّ الإمارة تُقيم مسجدًا يتّسع لرجال القرية الذين زاد عددهم في الصلاة وهم يرجون الله أن يساويهم بـ«أهل اليمين» ـ رجال الإمارة ـ وذلك بإعادة ذكورهم إلى طبيعتها الأولى، كما اطّلعت على أنّ البالغ منهم صار يُسلّم ذَكَره لطريقة الإمارة في الختان، ففي ذلك طاعة أُخرى هي هُداه إلى انتصاب دائم دون انقطاع، وألاّ يلحقه ما لحق أهله من

الرجال الباقين على حياة. وفي أيّام تالية سمعت أنّ الجارية حملها السيل إلى البحار، كما علمت في يوم لاحق أنّ «أبو حَشْفَةْ» عاد بمال وفير ما زال يبذّره على ملاهيه القديمة، فبصقته في قلبها ألف مرّة، وأقسمت أن تُذيقه ويلات بلا رحمة إن رأته يقف ببابها.

كانت تعود إلى عرشها الجبلي نهارًا، فتطمئن إلى ما ستؤول إليه الأمور، كلّما وقفت على كنزها ووجدته على حاله كما تركته بالأمس. وكانت لا تعزو أيّ شيء يحدث لها إلى الصدفة المحضة؛ بل تُعيده إلى طبيعة الحياة الغرائبيّة التي تلفّها منذ صغرها وحتّى شبابها النافر بالجدّ والاستقامة، فقد كانت كلّما دخلت عريش الجبل تجد صرّة مملوءة بالحبوب، ولم تكن الصرّة محلّ استغرابها أو حذرها من كون أحدهم كشف الأمر، بل كانت على العكس من ذلك تمامًا، كانت مستقرّة إلى طمأنينة بأنّ هذا من تدبير الأمّ الراحلة، فاستمرّت تحمل تلك الحبوب، وتنزل بها قُبيل الغروب، تبذرها في طريق خفي يصل إلى دارها، وكأنّها تخلق بحبل سرّي، قوامه الحياة، علاقة بين الجبل والقرية، إذ يربو أمامها كلّ نهار ذلك النبت، فلا يطّلع على نضده الأخضر أحد سواها.

(١١)

في اليوم المتمّم لشهر ينقضي على أوّل اعتلاء لها فوق الجبل، وتحديدًا قُبيل الظهر، وجدت نفسها قد تأخّرت قليلاً عن موعد وصولها إلى عريش الجبل، ففيما هي تقف ببابه، تفاجأت برجل كان قد سبقها إلى هناك، وجدته يضع عنقه في الحبل ذاته الذي أعادت شدّه للسقف، ورأت في عينيه إصرارًا على ما هو ذاهب إليه، فلم تهرع لنجدته ولم تُحدّث نفسها بذلك على الإطلاق، برغم أنّها أدركت علمه بوجودها في اللحظة ذاتها التي شدّ الموت عليه وغيّبه عن الوجود؛ ليكون بذلك آخر سلالة شيوخ وادي «اَلحُسَيْنِي»، فقد تعرّفت عليه قبل أن تخطفه المنيّة، إنّه «حَمُود الخير» أو «أبو حَشْفَةْ»، الذي غادر الدنيا وقد ترك جزء حشفته المبتور مدفونًا تحت تلك السدرة عبر عقدين من الزمان تقريبًا، السدرة التي آوت النساء تحتها في زمن خلا، واحتضنت محنة أجسادهنّ لينعمن بما يهبه لبّها من جزء حشفته الشّبقة!

كانت تعرف أنّ بموته على ذلك النحو، ستخلو لها الدنيا، وهي الآن تُجاذب ببصرها أطراف الأرض، وتقيس مدى الآفاق التي تتقلّص عن حدود طموحها، فهي لم تُفكر حتّى في إنقاذه، لأنّه رجل سوء، لا مثيل له سوى رجال القرية الذين أدّوا الزكاة للأغراب بأجساد نسائهم، أملاً في الغفران واطلاع السماء على ما بهم من عنت محق كلّ رغباتهم، ولا قدرة لها اليوم في أن تستدرجهم جميعًا إلى هذا الحبل،

فتقتصّ منهم واحدًا واحدًا، وتحرق القرية بمن فيها من بعدهم، فيكون لها المكان والزمان أبدًا.

تركت برودة الموت تسوم عظامه ولحمه معًا، وعادت إلى طرف الجبل، ثمّ جلست تنظر إلى قرية «عُصيْرَةْ» وهي تنام على وادي «اَلحُسَيْنِي»، وتذكّرت حديث الأمّ لها: (اليوم يا شَرِيفَةْ يبدأ يومك العظيم.. فإذا صار نساءُ قريتك يرقدون تحت اَغراب، ورجال قريتك يخدمون الاَغراب.. فاخرجي من عُصيْرَةْ وجبل عَكْوَةْ في رَجاك.. ولا يفارق ذاك الثوب خصرك...)، وهي إلى اللحظة ما زالت تحفظ تلك الوصيّة لا تُخالفها؛ فذلك الثوب لم تُخرجه مرّة من مكانه، ولم يعطب البتّة، فكلّما مرّ يوم زاد من فوحانه الزكي. وعند متعتها الخارجة عن معطيات الظرف في تلك اللحظة، وفي استوائها على جبهة الجبل، ركّزت في الرائحة التي تحملها، ثمّ تسلّلت يدها إلى ذلك الثوب الفاقع الحمرة، وسحبت منه جزءًا يسيرًا، ثمّ غرست أنفها فيه، فإذا بها تقترب قليلاً إلى اكتشاف أمره، فهو حقًّا يُميزها، وهذا ما جعل نساء القرية يخرجن خلفها أثناء تجوّلها في أزقّة القرية بحثًا عن أيّ دليل يقودها إلى الرّيح تنفيذًا لأمر الأمّ، فهي إذن كانت أداة حميدة لكشف عجز الرجال بعد الجرم الكبير الذي اجتمعوا على اقترافه، وما كان للنساء أن يخرجن إلاّ ببعث رجال آخرين يسيرون بهنّ إلى حياة أشهى وأعمق ارتواء، وحين عادت مليًّا في ذاكرة الزمن، وأنفها محشور في لفافة ذلك الثوب، عندها وقعت روحها على ما تبتغيه حقًّا، فهذه الرائحة لا تُميز سوى رجال «عُصيْرَةْ» الأوائل، فهي تخرج من أُزرهم المسبوغة بصلب السدرة الزكي.

ـ (نعم هذه هي رائحتهم أحملها بين فخذيي من شهور.. إنّي بنت أرضي ورجالي.. إنّها الرائحة الوحيدة التي تُميّزهم عن بقيّة رجال كامل المِخْلاَف)، وأجهشت في بكاء يجلّله الفخر بنفسها، وإن لم تكن بنت «بِشَييشْ» فهي الباقية من هذا التراب، واسمها الذي أرادت به الأمّ

أن يُقصي عنها شكّ المريبين في دمها وعرقها، اسمها من شرف الأرض التي التقطت منها، من هذه الأرض الممدودة تحت ناظريها وتتشهّى إلى سواعد صادقة كانت هنا، تروم أفئدتهم التي تعشقها، وتحتاج جباههم التي تسقيها بغيثها، (فأين هم الآن يا ربّي.. يا ربّي لقد أثقلت عليّ كثيرًا في هذا الامتحان.. لِمَ يا ربّي أنا.. سأحبّ هذي الأرض أكثر.. سأغرس قلبي في طينها أعمق، لكن يا ربّي.. هي يد واحدة على هذا الكتف.. هي يد واحدة على هذا الكتف.. فهاتها لي...).
كانت تتعب قليلاً في روحها حيرة، وبعينين موقدتين بالرجاء تُشرك الكون في سؤالها الله عن يد ترصّ كتفها لأجل الأرض، ولا تعرف أنّ تلك اليد، في اللحظة ذاتها، كانت من خلفها قد وضعت لها صرّة الحبوب في العريش، ثمّ حملت جثّة «حَمُود الخير» بعيدًا.

و«شَرِيفَةْ» مازالت في أمشاج البكاء، تُلحّ على السماء أن تهبها تلك اليد الغائبة في عتمة طويلة وأبديّة، كان من تحتها خطّ مستقيم لنبت يفرّ من الأرض كروح تشغف لجذوة الرقص، نبت أوّله جذر الجبل وآخره قرية «عُصيْرَةْ».

عُصيْرَةْ ١٨٠٠م ـ اَلحُسَيْنِي ٢٠٠٧م

ومعراج أعلى . .

للرجل . .

الذي مزّقوا قلبه بويل السماء ،

فيما الله يُسلّمه الشعلةَ كاملةً ،

أبي

ولأغانيهم العظيمة ، مائة سنة يحكونها ، وثلاثون عامًا لأُنشد بين يدي العالم ، هذا القليل من تلك الأغاني الكبيرة ؛ إجلالاً لهم سادة الضوء إلى السماء اختيارًا : محمد الذروي ، عبد الله هبّاش ، محمد اَبْرَا حَمُود ، أبو هدّاش ، علي هبّاش ، محمد هاشم ، حسن اَبْرَا حَمُود ، العلامي ، صادقية هبّاش ، آل الليل ، علي شامي ، يوسف هبّاش ، عبدالله اَبْرَا محمد هاشم ، علي مُنوّر ، اَمقاحطي ، علي اَبْرَا حَمُود ، مريم محمدية ، ابراهيم قاضي ، محمد عثمان ، حسن الاَحوس ، حسن اَبْرَا محمد هاشم ، الفقيه علي بن يحيى ، أحمد زمري ، ضيف الحازمي ، عبده جعبور ، علي رديني ، أحمد النجّاب ، حسين الذروي ، عمر الجوحلي ، قاسم هاشم ، مريم الحاجّة ، يحيى اَبْرَا اَحمد ، حسن بُو الخير ، آمنة قُبولية ، علي اَمْزلزلي ، محمد حسن هاشم ، آمنة مُنوريّة ، عبده قاضي ، يحيى ابراهيم ، علي طَيْري . وللجهات «بن ليلى» شمالاً ، «بن قرمشة» جنوبًا .

. . .

وكأجدادي وُلدت شرق صبياء، بمنطقة جازان، جنوب غرب الوطن المملكة العربيّة السعوديّة، أيضًا مثلهم أتيت للدنيا بأكثر من تاريخ ميلاد فقيل إنّي وُلدت في مطلع السبعينيّات الميلاديّة، وقيل في منتصفها، والمؤكّد أنّني وُلدت يومًا ما، ولن أُغادر مثلهم اختيارًا. . .

يحيى امقاسم
amqassim@gmail.com
بعيدًا عن اَلحُسَيَنى
انصرام ٢٠٠٧م

هذا الكتاب

إنّ هذا التسجيل الروائي الفني لمنطقة ومرحلة مجهولتين في تاريخنا، عند عامتنا، عمل يستحق الإشادة لا من ناحية تفوقه الفني؛ بل لكونه عملاً رائداً لم تعرفه الرواية السعودية، حتى الآن، في كتابة الرواية التاريخية.

غازي القصيبي

تباغتك «ساق الغراب» بعوالمها الفنتازية، عوالم الخرافة المعاشة على بقعة من الأرض يحتفل فيها الإنسان والكائنات بفطرية الحياة الخلابة، فيأسرك سحرها؛ لتنتهي مُحَمَّلاً بالحزن، تجاه ذلك الوجود النقي الذي غادر إلى عالمٍ يتحوّل لتكريس السدود بين البشر أنفسهم وبينهم والكون.

رجاء عالم

إنّها رواية عن الذات الإنسانية الحرة، عن عالم ملحمي يرتحل، لا يتحدث أهله عن الدين لأنهم يُمارسون الفضيلة، ولا يتغنون بالعشق فهم يعيشونه، ولم يهجسوا بالخوف إلاّ بحلول معاداةِ الطبيعة واغترابٍ لا خروج منه، جاءت به سلطة تصنع «الإنسان الغُفل» وتُنكر الإنسان الطليق.

فيصل درّاج

هذه الرواية تحكي ما احتفظت به ذاكرة الأمجاد لقرية «عُصَيْرة» على امتداد مائتي عام وأكثر، قُبيل وأثناء تصدّعها واضمحلالها أمام سلطة أخرى، وبشغل روائي له نظرة من الأعلى عارفة بالبدايات والنهايات جميعاً، وبلغة فذة نسجت عالمها السحري. إنّها رواية تستجيب استجابة كبيرة للقراءات الأنثروبولوجية دون نفيٍ لغيرها من القراءات.

حسين الواد



